بين الديانات والحضارات

تأليف
طه المِدَوّر

الكتاب: بين الديانات والحضارات

الكاتب: طه المِدَوّر

الطبعة: ٢٠٢٢

الطبعة الأولى ١٩٥٦

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

المِدَوّر، طه

بين الديانات والحضارات / طه المِدَوّر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ٤٣١ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٣٠٩١٤ / ٢٠٢١

بين الديانات والحضارات

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

كانت الشعوب الأوربية يوم ضاء سناء الحضارة الإسلامية في جميع أرجاء الأرض، فهدى الضليل وطمس على الغواية وطارد الجهل وأمتع الأمم المنتشرة في كل صقع وقارة يفيض من أنوار العلم ونعمة العدالة – نقول كانت الشعوب الأوربية يومئذ تئن تحت أشطان الغي، وتتخبط في ديجور الجاهلية الفاسقة المجرمة وتتخذ مذهب عبادة الأشخاص والأصنام [Antropomorphisme] ديناً تنغمس في غمراته الشقية الجامحة.

ولما كان الدين أساس سعادة البشر، فيمكننا أن نستنتج من نزغات الأشراك المتفشية في أوربا خلال القرون التي تقدمت المدنية الإسلامية، كيف أن هذه الكتل البشرية الجاهلة حرمت من كل فضيلةٍ أخلاقية حتى ولو كانت ابتدائية، وكيف أنه لم يكن لها من هم إلا الانغماس في خضم من الفوضى وتقاسم الزعامات للهيمنة والسيطرة على العناصر البائسة في المقاطعات العديدة التي تتكون هذه القارة منها، ولاسيما فيما كان له علاقة بالحياة الاجتماعية.

ولابد لنا قبل التوغل في استعراض الدراسات التاريخية التي سيتسع لها صدر هذا الكتاب والمتعلقة بتأثير الدين والمدنية الإسلاميتين على الأمم الأوربية من أن نتكلم عن العقائد السخيفة التي كانت تسود أوساط هذه الأمم في تلكم العصور المظلمة حتى تصل إلى الميعاد الذي بعث به الدين الإسلامي لتظهر جلياً الخطوط والأهداف المرتبطة بهذه الدراسات الثابتة المنطق والبراهين، والتي تبين لنا بأفصح لسان كيف استنارت أوربا المدغَّلة في بؤرة الجهل منذ عهد البشرية الأول حتى بزوغ فجر الإسلام بأضواء هذا الإشراق السعيد الضاحك،

وكيف تلقفت عن الشريعة السمحاء وتعاليمها النبيلة كل توجيه مغمور بالأمل تمخض عنه فيما بعد الوعي والثقافة والعمران وما إلى هذا كله من العوامل التي رفعت بالقبائل الأوربية وبيدائتها الشرسة من حضيض الجهل إلى أفق الحضارة السخي الجواد.

والاستعراض العلمي الذي سنربط به أبحاثنا من هذه الناحية بالأساس الذي يرتكز عليه الموضوع الرئيسي لكتابنا يستهدف قبل كل شيء إظهار جحود معظم علماء أوربا المتأخرين لفضل الإسلام وروائع التشريع العادل المنبثق عنه على الشعوب الأوربية وكيف قاموا بحملات منكرة ملؤها التضليل والطغيان على ما أسدته يد العرب البيضاء على كيانهم المتوحش المتردي في هوة الضلال، الأمر الذي حمل العالم والفيلسوف الفرنسي (أرنست رنان) على أن يقول في أحد مؤلفاته القيمة[1] بصراحة متناهية وسريرة صافية وتدقيق علمي فذ:

[إن الآثار والأسفار المحتوية على شتى الفنون والعلوم التي أضفاها علماء الإسلام على الكون والتي نقلتها الحملات الصليبية إلى جميع بلاد الفرنجة وما تقدمها من احتكاك بين العرب وأوربا عن طريق الأندلس، أدى كل ذلك إلى افعام المكتبات الأوربية الخاوية الفقيرة بكنوز لا تفنى من العلم الذي أنتجته قرائح العرب. وكان من نتائجه انتشار الثقافة والترعرع العلمي في البيئة الأوربية بأسرها، كما رفع مستوى شعوبها إلى أفق التمدن الذي نشاهدها عليه اليوم...]

– لا فُضّ فوه –

أما الغاية التي نهدف إليها من وراء هذا التنقيب العميق في بطون

---

[1] ترجمت بالحرف الواحد عن كتابه [تعليقاتي على تواريخ الأديان] ص ٢٧١:

(mes observations sur les Histoires des religions Genérales)

التواريخ، فهي حتماً تتمه ذات اتجاهات قومية لما سبق أن تكلمنا عنه قبلاً في كتابنا [البعث]. إذ سوف يجد المتتبع لسير الوقائع التاريخية التي سيرد معنا تفصيلها في هذا الكتاب أننا نستهدف السعي وراء توسيع نطاق الوعي العربي والإسلامي والاستعانة بذلك على استكمال متطلبات السؤدد والمجد اللذين نتوخاهما لهما وعزل العادات والتقاليد البائرة التي كانت العامل الرئيسي في انحطاطنا وتدهورنا إلى مواطن التضعضع والتردي، بعد أن كنا في طليعة الأمم المتحضرة، أو إذا شئت فقل بعد أن كنا المعلم والمرشد للأمم الجاهلة بالأمس والمتمدنة اليوم والله من وراء القصد.

طه المدوّر

الفصل الأول

الإلحاد ونتائجه

الباب الأول

اضمحلال الأخلاق - تضعضع الحياة الاجتماعية العامة - فقدان السعادة المطلقة

الإلحاد كارثة تصاب بها الأمم التائهة في ديجوره المدلهم، وهي تتفرع إلى ثلاث بوادر مفجعة:

الأولى: كارثة اضمحلال الأخلاق.

الثانية: فقدان الحرية وتضعضع الحياة الاجتماعية من الوجهتين الخاصة والعامة.

الثالثة: انحجاب مقومات السعادة عن الأفراد والجماعات.

ولأجل أن نثبت ذلك بالقرائن الواضحة الجلية، نبدأ بتحليل هذه البوادر الثلاث تحليلاً قائماً على أسس تكفلت العصور الغابرة والدراسات العلمية المعاصرة بتدعيم صحتها بما لا يقبل الشك والريبة.

اضمحلال الأخلاق

شبّه علماء الاجتماع حياة الجماعات بالآلة التي اخترعها الإنسان على أسس فنية. وقالوا بأن الأخلاق هي المادة التي تحرك هذه الآلة، كالنفط مثلاً بالنسبة للمحركات. فإذا انعدمت هذه المادة تعطل سير الآلة وبطل مفعولها. ولما كانت الأخلاق هي ذلك الشيء الذي ينعت بـ (الفضيلة) أو هي كل شيء (حسن) صار لابد من جعل قدسية الأخلاق أساساً لتكوين الحق العام الذي هو ركن العدالة، كما دلت على ذلك التحريات الدقيقة لمعرفة ما كانت عليه

الروابط الأخلاقية بين الأمم التي عاشت على ظهر هذه الكرة قبل ثلاثة أو أربعة آلاف سنة. وقد فسَّر العلماء والفلاسفة هذه (القدسية الأخلاقية) فقالوا بأنها هي الإيمان والتقوى. ولما كان الإيمان يرتكز على وجود إله واحد، فأصبح الإلحاد والحالة هذه تنكراً صريحاً للأخلاق. وإذا شذ عن هذه النظرية الثابتة بعض الملحدين الذين تبدو في أطوارهم بعض النزعات الأخلاقية الطيبة، فما مرجع ذلك إلا البيئة الراقية؛ المهذبة التي ترعرعوا في جنباتها، وهذه قليلة جداً في البيئات الملحدة.

وفي طيات التواريخ أدلة ووقائع وفيرة جداً اتضح من دراستها أن كل جيل حُرم من مقومات الأخلاق وانغمس سواده في بؤرة المفاسد تلاشى أفراده من الوجود رويداً رويداً. لأن معنى ذلك بأنهم لم يرتبطوا بأحاسيس الإيمان. وقد يذهب البعض إلى القول بأنه ربما كانت هاتان الخلَّتان الطيبتان غير مرتبطتين بالإيمان وحده، بل قد تقوم كل منهما على أساس جلب المنافع الخاصة وروح الأنانية، ولكن علماء الأخلاق أثبتوا بطلان هذه النظرية وقالوا:

"– لم تحب الأم ولدها؟ ولماذا يجدُّ الآباء ويبذلون كل غالٍ ورخيص في سبيل تأمين السعادة لأنسالهم؟ لأجل جر المنافع لأنفسهم اندفاعاً وراء روح الأنانية وحب الذات كما قال بعض أصحاب النظريات الفاسدة لاعتقاد أولئك الآباء وتلك الأمهات بأن أبناءهم سوف يكبرون غداً ويقدمون كل معونة لوالديهم؟؟ كلا... فلو كان الآباء والأمهات ينجرُّون إلى هذا الحد وراء غريزة الأثرة وحب الذات لما رأينا الأم عندما تشاهد ولدها وفلذة كبدها يقع في الماء مثلاً وتأخذ اللجة في ابتلاعه تلقي بنفسها عن طيب خاطر وتصميم غريب لتخليصه من الغرق مع علمها التام بأنها ستغرق معه أيضاً لعدم معرفتها العوم، ولما رأينا الأب يحرم نفسه من كسرة الخبز التي لا يملك سواها ليطعمها إلى ولده

الذي يئن بقربه من الجوع مع علمه بأنه سوف يموت هو جوعاً ويحيا ولده...".

هكذا أقامت نظرية (الانجذاب الروحي) وتثبتت دعائمها بالأدلة المنطقية التي لا تقبل الجدل، فقيل أن الإنسان لا يفعل الحسن ولا يتوخى الفضيلة إلا لانجذابه إلى هاتين الميزتين. وهاتان الميزتان لا تأتيان إلا عن طريق التخلق بالصفات المهذبة التي هي الفضيلة بذاتها – والمعلوم أن الفضيلة تتنكر للإلحاد لأنها تشتق من روح الإيمان وسمو الأخلاق.

٢- فقدان الحرية

واضطراب الحياة الاجتماعية

المفهوم جيداً أن الكتل البشرية المنتشرة في هذا العالم الفسيح غير متجانسة، ولن تكون متجانسة حتى ولا متساوية ولا في التكوين ولا في المظاهر الكثيرة الأخرى كاللغات مثلاً والعصبية والألوان والنزاعات والعادات. ففي كل هذا وغيره اختلاف بارز لدى كل عنصر عما هو مماثل له في قارة أخرى أو عنصر آخر.

فالأوربي أبيض جميل الصورة متناسق التكوين. والأفريقي الذي يقطن مجاهل هذه القارة أسود وكئيب المنظر. والأسيوي القاطن في أقصى الشرق أصفر اللون، كالصيني والياباني ويتكلم اللغات المعقدة، ويكتب مترسماً النقوش والصور للتعبير عن آرائه. أما القاطنون في القسم الأدنى من هذا الشرق فهم بيض الوجوه كالعرب مثلاً، يكتبون بأحرف أقوم اصطلاحاً وبساطة وأقرب للتفهيم والتثقيف، مما عند الآخرين.

ولكن هذا التباين الكامن في البيئات والقارات بين الأجناس لا يمنعنا من القول بأن جميع الناس في كافة أنحاء العالم يتساوون في الحقوق أمام القانون

الإنساني العام. ولهم الحق الكامل في التمتع بالحياة الحرة الطليقة من قيود العبودية. وكل أمة في هذا المجتمع الواسع لا تتمتع بحق الحياة الغير المستعبدة لا تستطيع أن تنتظم في حلقة الأمم الحائزة على تكوين اجتماعي منسجم.

أما الانسجام الذي نعنيه في الحياة الاجتماعية فمفروض فيه دائماً أن يوازن بين حالات الأفراد وطبائعها ومشاربها حتى لا تختل الروابط الرئيسية التي تربط أبناء البيئة الواحدة أفراداً وجماعات بعضها ببعض. وكلما ابتعد الناس عن إتباع مقوّمات التوازن اقتربوا من (الفوضى) التي تعني فقدان الحكومة والنظام.

خذ مثلاً على ذلك، أننا لو فرضنا أن زيداً ورث عن والده ثروة تحقق له مورداً صافياً في رأس كل شهر يبلغ الثمانمائة قرش. وأن خالداً الذي يكدّ ويجتهد في الليل والنهار للحصول على ما يطعم به عياله لا يكاد مورده في الشهر يساوي نصف مورد زيد، وهذا الدخل القليل لا يكفيه لإتمام واجباته الضرورية تجاه عائلته. فراح إلى زيدٍ هذا يغتصب منه قسماً من مورده بحجة أنه في حاجة ماسة إلى هذا المبلغ المغتصب، فإذا لم يكن هناك نظام أو حكومة لصيانة الحق العام وقمع شهوة الغصب والعدوان كان ذلك باعثاً بالطبع على انتشار روح الفوضى، أو بالأحرى كان معناه تضعضع الحياة الاجتماعية وفقدان الحرية المشروعة الممنوحة للأفراد. وفي هذه الحالة ينعدم التساوي ويستفحل الخلل في الروابط بين الناس. لذلك صار لابد من أن يسود الدين في الهيئات الاجتماعية وتتبعه الأخلاق المنبعثة عنه ويلي ذلك التشريع والنظام حتى تستقر الحياة العامة على دعائم قويمة، فلا تقترب الفوضى من هذه الهيئات، ولا يفقد التوازن حتى لا تتلاشى بعد ذلك المساواة التي لابد منها بين الناس.

وقد قال الفيلسوف اليوناني (تميستوقلوس) [أن أعجب ما في هذا الكون

وجود نظام عام وضع نفسه بنفسه وتواضع الناس على احترامه والرضوخ إليه، ألا وهو تركيز الحياة العامة على قواعد هي أقرب إلى العدالة منها إلى الفوضى ولو كان ينقصها التشذيب والاكتمال. ولولا هذا القانون الطبيعي لساد المجتمع البشري الهرج والمرج وراح الذبح والقتل والنهب والتخريب يعمل كلٌ في ناحية، ويرجع الناس إلى عصور التوحش الأولى. وإذا ما سألني سائل عمن وضع لهذا النظام سلطة التنفيذ لقلت أنها الروح الفلسفية الكامنة في كل إنسان لأنني أعتبر (الفلسفة) مطية له أي للإنسان يستنبطها من وحي تفكيره الفطري الذي تتغلب في طياته العقلية الراقية في طبيعتها.]

٣- انحجاب السعادة عن الأفراد والجماعات

إن جميع الآمال التي يعقدها الإنسان سواء في مطلع حياته أو عند منتهاها هي أن يتمتع بالسعادة لأنها ينبوع العيش الهنيء. والسعادة في عرف علماء الاجتماع لا تأتي إلا عن طريق الدين والخلق القويم. فلا سعادة مطلقاً لأحد كما قضت بذلك التجارب. لأن الإلحاد مصدر الفوضى والإباحية. فالإنسانية والفضيلة والغيرة والحنان والإنصاف وما إلى هذا كله من الصفات الشريفة لا تتطرق إليها عقلية الملحدين ولا تتذوقها. لأن دساتيرهم ومرامي تفكيرهم منبعثة من بؤرة الإلحاد التي ينغمسون في ديجورها. إذ كيف يتسنى لملحد أن يكون تقياً مثلاً مع أننا نعلم حق العلم أن التقى معناه معرفة الله والعطف على الإنسانية والتمسك بأهداب الفضيلة وعدم التنحي عن روح الإنصاف والرحمة.

فالملحد لا وجدان له، ولذا فهو لا يتقيد بغير عقائده الخاصة التي تتغلب عليها طبيعة الاستهتار والتنكر لقواعد الحقوق الإنسانية العامة والشذوذ عن الشرائع الدينية العادلة والتشدد في مقت المجتمع الإنساني مخترعاً لنفسه دساتير

نابية في مجموعها لا تتمشى مع التعامل المسنون والمألوف بين الأمم المتمدنة. وهو فوق ذلك يعد القتل والاغتيال والتسلط على حق الغير وإباحة الأعراض من جملة مبادئ (الفوضوية – Anarchisme) المعروفة لدى المتطرفين من طبقة الـ [Libertinage] أي الأباليين أو الأراذل. وكذلك بين الأقوام الملحدة، المتوحشة.

وعلى ذكر الوجدان نقول بأن العالم الروسي (الكونت كرادوف) karadoffe = تكلم باطراد بارع مثبتاً أن الوجدان منبعث عن الإيمان بالله، والإيمان يحتم على الإنسان أن يعترف بالقوانين العامة التي يتمسك المجتمع البشري بقواعدها الرصينة وأن يعتبرها مصدر السعادة والتنظيم والرفاه. وكلما ابتعد هذا المخلوق الذي يسمى إنساناً عن شواعر التدين أمسى لا يفرق عن طوائف البهائم الهائمة في غمرات العمه والضلال.

وفي جملة ما يقوله هذا العالم أنه إذا توغل المدققون في طبيعة الملحدين تبين لهم أن هؤلاء على حق في تطبعهم التنكري وانحدارهم إلى أحط العادات وأقبح الصفات، لأنهم يعتبرون أن ارتكاب الموبقات لا يحدها رادع مهما كان قوي البطش أنهم لم يتعرفوا عليه من قبل ولم يمرجوا في ساحته. فأصبحت الرذيلة طبعاً غريزياً من جملة طبائعهم السفيهة الكثيرة، ويعتبرون أيضاً أن تقنين العادات والتفريق بين الحسن منها والقبيح هو عبارة عن إشارة لا تتفق مع الإباحية التي درجوا على اقتراف مختلف الآثام من ورائها بدون تحديد. يدلنا على ذلك إننا إذا سألنا فوضوياً (ملحداً) عن الدافع الذي حدا به إلى إلقاء مفرقعته القاتلة على الناس أو الملوك وسبب إزهاق أرواح المئات من الأبرياء بدون سبب أو مبرر. لأجابك على الفور:

– وماذا ينجم عن ذلك، بل ماذا عليَّ من حرجٍ فيما فعلت؟

ذلك لأنه يجهل بأن القاتل يقتل، فلا يتذوق إلا حب الفوضى، ولم يتعرف على العامل الديني الذي ينهاه عن المنكر ومن جملته قتل النفوس البريئة، وذلك لعدم وجود أثر للدين في بيئته المنحطة. إذ من المعلوم أن دساتير الأديان – حتى ولو كانت من الأنواع الهزيلة، السطحية التي اصطلح عليها الوثنيون والمتوحشون – لا تخلو من زواجر تحد بقدر الإمكان من البهيمية ونشر الفوضى بين الناس وقتل النفس. ولذلك فإن السعادة لا تدخل بيئات هؤلاء لأنهم لا يعرفون مدلولها الشريف.

الفصل الثاني

تصنيف الأديان في نظر مشاهير علماء أوربا

الباب الأول

تتبعات ودراسات (هغل) Heguel و(هارتمن) Harthman و(تييل) Tiyles و(سيبدك) siyebeg

قبل أن نتطرق إلى البحث في علاقة أوربا بالشرق في أوائل القرون الوسطى والأثر العظيم الذي تركته الحضارة الإسلامية لدى الشعوب الأوربية، وكيف تسربت إليهم أنوار هذه الحضارة فحولت ظلمة الجهالة التي كانت تسود قارتهم إلى علم ونور وتمدن، سنحاول في هذا الفصل أن نصف معتقدات هذه النَّحل المتعددة العناصر والمشارب والأهواء والعادات والأديان وبالتالي الحياة العامة في مختلف ألوانها حتى نتمكن بعد ذلك من التدرج فصلاً بعد فصل كيما نصل إلى الهدف الذي رمينا إليه من وراء وضع هذا الكتاب.

كانت الشعوب الأوربية قبل ظهور المسيحية حتى وبعدها ببضعة قرون تتبنى الأديان التي تبتدعها خرافات المتصوفين والكهنة الذين يتخذون الكهوف والصوامع في جبال ومخابئ أوربا ملاجئ ومعابد لهم. وقد قسمها (هغل) إلى الأنواع التالية:

١- الدين الذي نشأ بدون عامل خارجي، والذي أوجده الاجتهاد فقط.

٢- الدين القائم على التقدير والظنون.

٣- الدين المؤسس على الشعور والإلهام.

٤- الدين القائم على التفكير والتحري عن المعبود الرئيسي.

٥- الدين القائم على البهرجة والرقص والترانيم الروحية.

٦- الدين القائم على الأسرار واضطراب الروح كإقامة الحفلات المليئة بالعربدة والسفه والخلط وسفك الدماء.

٧- الدين القائم على عبادة الأصنام والنقوش ومقومات الجمال في كل شيء.

٨- الدين القائم على الفراسة والتحليق في الفلسفة الطبيعية الغامضة.

أما (هارتمان) فإنه يوزعها كما يلي:

١- الدين القائم على التوحيد الكاذب (كأديان هنود أميركا القدماء).

٢- الدين القائم على إيجاد فلسفة صوفية زبدتها الفناء المطلق (كالديانة البوذية وكان لها أنصار في العصور المظلمة بأوربا).

٣- الدهربون
٤- أشباه الدهريين

} كالديانة التي كانت سائدة بين أهالي (رومية) القدماء

٥- الدين المؤسس على الزهد والعقيدة القائلة بالإعراض عن الحياة الدنيوية.

(كالديانة البرهمية في الهند)

٦- الدين المؤسس على الأوهام. (كبعض الديانات الفرعونية)

وتأتي بعد ذلك تقسيمات (تييل) وهي:

١- عبادة الحيوانات المتعددة. (وكانت شائعة في معظم أقطار أوربا الشمالية)

٢– عبادة الجن والشياطين وتأليه أبطال الأساطير. (كالعبادات اليونانية وخرافات الصقالية)

٣– الدين القائم على السحر والشعوذة. (كالديانة الرومانية القديمة)

٤– عبادة الأشخاص. (**Antropomorphisme**) الذين يمتازون بخوارق الأعمال وإنزالهم منزلة الآلهة (وهذه العبادة كانت تروج جداً بين الشعوب الجرمنية)

وإليك تصنيف (سيبدك):

١– الدين القائل بوجود صانع لهذا الكون. (وهي عقيدة سكان جبال اسكنديناڤيا)

٢–عبادة الانقياد لكل شيء حسن. (عقيدة فلاسفة اليونان القدماء)

٣– دين الاستخلاص المطلق (وهو القائم على أساس إنكار موجود قديم للكون. وهذه العقيدة سرت إلى أوربا من البوذيين في آسيا)

٤– العقيدة الوسطى. (وهي تخلط بين وجود وعدم وجود مبدع للكون ويقول بها الأفلاطونيون)

فأنت ترى من هذا الوصف والتحليل للأديان والمعتقدات التي كانت منتشرة بين الشعوب الأوربية في عصورها المفعمة بالضلال والجهالة، أن العلماء الذين أثبتنا فيما تقدم نتائج دراساتهم في هذا الصدد لم يتقيدوا عند توغلهم في التنقيب العلمي عن الألوان التي كانت تصطبغ بها العقائد المتباينة في معظم مقاطعات أوربا بغير ذلك الاستقراء والبحث الذين يعتبرهما فلاسفة العلوم التاريخية والدينية اليوم ركنين رئيسيين لصحة الاستنتاج وصدق الرواية.

وقد أيد (أرنست رنان) و(باولوس) و(استرائوس) وغيرهم من الفلاسفة العلماء تقسيمات العالم (هغل) بالخاصة، واعترفوا بأن الأديان التي كانت منتشرة في أوربا خلال القرون الأولى وبعض القرون الوسطى ليس لها صفة فلسفية ولا تستند على أسس يمكن أن ينبثق عنها أقل تشريع أو حصانة لحق ما!! حتى أن العلامة (جول سيمون) اعتبرها ثمرة اصطلاحات مضطربة ترعرعت في عقول سخيفة لا تفرق عما يفكر فيه أحط الأمم وحشية في البلاد المتديِّنة في المواهب البشرية.

أما الفيلسوف (ايسبينوزا – **Ispinoza**) وهو برتغالي إسرائيلي. فقد حمل حملة شعواء على جميع هذه السخافات وأضاف إليها حملة على الإشراك واعترف بوجود إله واحد أزلي. فكانت خلاصة فلاسفته بهذا الشأن تنحصر في الفكرة التالية:

[لم يتعرف الإنسان على الله الواحد إلا من وجهتين فقط. وبقي جميع ما عدا ذلك مجهولاً لديه ومغموراً في عالم من الأسرار التي أحاط بها الله هذا الكون. أما هاتان الوجهتان فهما (الفكر) و(الشعور) بالوجود والأبدية، وتسميان – بـ (**L'idéalisme - Et Semsualisme**)

وهو يشترك في النتيجة مع (استراؤس) في وصف الجهالة التي كانت تخيم على أوربا في تلكم العصور بأنها أحط المدارك التي عرفها الإنسان في أية بقعة من بقاع الكرة الأرضية...

هكذا كانت معتقدات الشعوب الأوربية عندما أشرق نور الإسلام فوق بطاح القارات العالمية الثلاث، آسيا وأفريقيا وأوربا. انحطاط مرهق، وجاهلية حرنة، غواية سفيهة لا يماز فيها بين بارٍّ وأثيم، ولا صدف عنها أمير أو حقير.

بل كلهم ابتغوا فيها الاغتمار في أغوار الباطل مما جعلهم يتورطون في عالم من الضلال قيل عنه في أسفار الأولين أنه اكتظاظ لم ير العالم له مثيلاً حول الآثام والنزوغ عن الفضيلة.

ويا ليت مغامرات العقائد الباطلة التي كانت تسود المجتمع الأوربي وقفت عند حدود الإلحاد الذي كان يكتنفه، إذن لهان الشر وخفت المصيبة. فهنالك انحطاط في المستوى الأخلاقي والاجتماعي أيضاً يصورهم لك أكابر المتتبعين من علماء أوربا المعاصرين الذين غاصوا وتعمقوا في دراساتهم حتى سيروا أغوار القرون المندرسة وكشفوا عن حياة الأقوام الأوربية الاجتماعية في العصور التي أطلق عليها نعت الـ Libertinage أي عدم المبالاة. أو التمرد على كل شيء.

ويقول الفيلسوف (قانت) وهو من أكابر حكماء ألمانيا المتأخرين في كتابه [نقد العقل المحض]:

[لم يكن في مقدور الشعوب الأوربية في القرون التي أطبق عليها فيها الجهل والإلحاد من كل ناحية أن تخرج في تفكيرها عن التخيلات التي تبتدعها عقول المفكرين فيهم. لأنه لا يوجد لدى الإنسان من حيث الأساس قوة قادرة تدفعه إلى الخروج عن دائرة ما يلفظه عقله الضعيف من التفكير سواء كان في تفكير هذا مصيباً أم خاطئاً.]

ويقول بعد ذلك: [أنه كان يحلو للجماعات والأفراد بمعظم مقاطعات أوربا في العصور التي ساد فيها مبدأ التخيلات الإلحادية نتيجة لعقائد روحية منتشرة بين ظهرانيهم أن يتوجهوا نحو المثل التالية لتركيز معتقداتهم:

١- استفحال صنعة امتشاق السيف (البراز) عند كل بادرة خلاف لتقوم بمهمة حل المنازعات الشخصية والعمومية.

٢- عتو الطبقات (الأرستقراطية) وتحكمها بالدهماء باعتبار أنها الطبقة المختارة عند معبودها الوهمي.

٣- الفسق والإباحية لأنهما من فروع العبادة المضطربة والمنبثقة عن الغباء المضلل.

٤- الخنوع لسيطرة الملوك والزعماء لاعتقاد المجموع بأنهم وكلاء الآلهة. فنتج عن هذا الضلال المعيب والعجيب:

١- التعسف في حل المعضلات العائلية وعدم الاكتراث للنتائج الاجتماعية الوخيمة التي تنجم عن ذلك.

٢- فقدان العدالة التي هي مرجع السلام والتساوي بين الناس.

٣- انحصار الثروات بأيدي النبلاء.

٤- عبادة المرأة والانصياع لشهوة الفسق والرضوخ لتحكم المتهتكات اللواتي يتبوأن مراكز رفيعة في المجتمعات.

٥- الشدة التي كانت تبدو من مصطلحات العرف والتي كانت تقوم مقام القانون.

٦- بوادر العصيان والثورات المتتابعة في كل مرحلة من مراحل تلك العصور الضليلة.

٧- الاسترقاق والقرصنة.

٨- الفقر العام نظراً لتفشي روح الفوضى، ومن ثم لعدم وجود الفكرة التجارية والاقتصادية بوجه عام.

٩- عبادة النقوش والتماثيل وتقديس الأساطير والخرافات والخضوع للأوهام وللسحرة والمدجلين.

هذا تصوير (قانت) للحالة البائسة التي كانت تسود أوربا في عصورها المظلمة، وقد رأى فيها النتيجة المحدودة السقيمة التي كانت وليدة تفكير الزعماء الدينيين، حيث استنوا للأوساط الدينية طقوساً للعبادة تتشوه بمقدار هائل بمظاهر الإلحاد والمروق عن كل فضيلة، وهذا في زعمهم هو أفضل العقائد لأنه لم يكن يتسنى لهم ابتداع أديان ومعتقدات أكمل منها!!!

وقد تناول (أرنست رنان) الفيلسوف الفرنسي[٢] دراسات (فانت) هذه فسلم معه بالنزاعات الدينية الإلحادية التي كانت تسود آنئذٍ محيط أوربا، ولكنه انتقد مذهبه الفلسفي القائل بمحدودية العقل المحض مستشهداً بالمراحل التي اجتازها الأنبياء وخصص من بينهم الرجل العظيم الذي خرج من أحضان البداوة الطاهرة في جزيرة العرب للمناداة بالدين الإسلامي، ويعني به سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام). وإليك ما يقول في كتابه [تعليقاتي على تواريخ

---

[٢] كان (أرنست رنان) من المع المفكرين الذين أنجبتهم القرون المتأخرة وأعرقهم ظرفاً وكياسة وعلماً، وهو من تلاميذ الحكيم (استراؤوس). ضليع بمعظم اللغات الشرقية وخاصة العبرانية والعربية. وأشهر مؤلفاته الكثيرة (حياة يسوع) المعروف وهو ينهج فيه على طريقة بعض الفلاسفة ك [باؤر] الذي أركز فلسفته على الإنتاج العقلي. وكان في أول نشأته راهباً ثم خلع ثوب الرهبنة على أثر حملاته على المسيحية وراح يتعمق في دراسة الأديان فعربنا عن كتابه "تعليقاتي على تواريخ الأديان" الكلمات التي أتينا على ذكرها في مقدمة هذا الكتاب. والحق أنه لمن الغريب جداً أن يتكلم (رنان) عن الإسلام بمثل هذه العاطفة المشبعة بروح النبل والإنصاف، بينما نراه قد أوسع دينه نقداً وتعريضاً وتزييفاً كما يعلم ذلك كل من طالع آثاره المدنية. وكلنا يعلم بأن الكرسي البابوي قد كفر هذا الفيلسوف وحرمه من الانتماء إلى المسيحية؟ وليس من الصعب أن تعرف بأن سبب هذا كله حملاته القوية على قضية التثليث وتنكره لها.

الأديان] رداً على نظرية (فانت) المتقدمة الذكر. ولكن قبل أن نأتي على تعريب أقواله هذه عن الدين الإسلامي وعن اعتقاده بمحمد (صلى الله عليه وسلم) نريد أن ننوه هنا بسماحة روح هذا الفيلسوف وانفراده من بين جميع علماء الفرنجة ومستشرقيهم كـ [دوزي] و[موير] و[شانت بيدو لاسومي] بالبحث العالمي والاستنتاج العقلي وإطرائه نبيّ العرب وابتعاده عن روح التعصب التي كانت تسود مؤلفات أولئك المستشرقين المشوهة والمشحونة بالتحامل والكذب والافتراء على العقيدة الإسلامية وتعاليمها السمحاء.

قال في الصحيفة ٢٧١ و٢٧٢ من كتابه الآنف الذكر:

[إن القرآن هو أساس الإسلام. وقد احتفظ بكينونته القديمة بدون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف. وعندما نستمع إلى آياته وما فيها من فصاحة وسحر تأخذك رجفة الوله والوجد. وبعد أن تتوغل في دراسة روح التشريع المنطوية عليه بعض تلك الآيات الإلهية لا يسعك إلا أن تعظم هذا الكتاب العلوي وتقدسه[٣] وقد دلتني تحرياتي العلمية والتاريخية على أنه لا صحة مطلقاً لما أريد إلصاقه بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) من كذب وافتراء مصدرها بعض المباينات العرفية والعادات القومية التي أراد بعض المتحاملين كـ (فولتر) أن يتوجهوا بها إلى الناحية التي تشفي سقام ذهنيتهم الوقحة وتعصبهم الذميم، كقولهم أنه كان يميل إلى التسيد والسيطرة. مع أن محمداً كما أثبتت الوثائق التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ كان على العكس من ذلك بريئاً من روح الكبرياء متواضعاً صادقاً أميناً لا يحمل الحقد لأحد وكانت طباعه نبيلة وقلبه طاهراً رقيق الشعور] تأمل.

---

٣ وبجانب هذا لا يعترف (رنان) لبقية الكتب السماوية بالعصمة وعدم التحريف اللتين اعترف بهما للقرآن الكريم.

ومع العلم بأن (رنان) لم يكن يعترف بصحة دين من الأديان فقد جاءت شهادته هذه عن الإسلام ونبي الإسلام ذات قيمة كبرى في نظر القسم الأوفر من المستشرقين الذين كانوا لا يقلون عنه دراسة وتمحيصاً للدين الإسلامي إذ يقول في كتابه المنوه به ص ٢٨٥:

[إن بعض الأديان قد أسستها أيدي النساء... ولكن الإسلام الذي قام على سواعد رجال أولي عزم كمحمد (صلى الله عليه وسلم) يعرف فيه كل منصف أنه قدسي الأهداف، بل هو دين الحزم والجد، دين البساطة والمساواة والحرية والعدالة.]

ثم ينتقل هذا الفيلسوف إلى التقاليد الإسلامية التي برع فيها القصد الجميل ولاسيما ما كان منها ذا علاقة بالمرأة فنفى ما رواه المتحزلقون من أشباه المؤرخين في أوربا بهذا الصدد وقال في الصحيفة ٢٨١:

[... ولقد اشتهرت نساء كثيرات في صدر الإسلام أمثال خديجة وعائشة وفاطمة. وكانت هامة خديجة متوجة بإكليل قدسي ينير شخصيتها البارزة المحببة، وعرفت بأنها سبقت كل من آمن برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) أي أنها كانت أولي المؤمنات والمؤمنين.]

وقال:

[لم ينصف المؤرخون الغربيون الإسلام باتهامهم إياه بقساوة الجهاد والفتوحات. مع أن هذا الجهاد كان ضرورياً لنشر العدالة التي تزدان بها التعاليم الإسلامية المشرفة. ونضرب مثلاً على ذلك بإيراد السؤال التالي لعلمائنا المؤرخين كـ (الكونت كرادوف) الذي اتهم الإسلام بالتعصب وحب الجهاد وحجب المرأة فنقول:

ترى كيف، ولماذا قلب نصارى سوريا ظهر المجن لأباطرة الرومان المسيحيين والتجئوا إلى حمى (أبي عبيدة الجراح) المسلم وعاونوه في الجهاد لطرد الرومانيين من الديار السورية؟ ذلك لأنهم تذوقوا العدالة التي جاء بها الإسلام وفضلوها بالطبع على الجور الذي كانوا يلاقونه ويعانونه من أبناء دينهم الرومانيين!]

وقال أيضاً رداً على فلسفة (فانت):

[ليس في الإسلام أساطير وخرافات. فالمجهود العلمي والمنطقي بارزان في معظم التقاليد الإسلامية. فإذا درست مذاهب الإسلام الأربعة (الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية) لا تجد غير دساتير أخلاقية متينة وشواعر روحية سامية، وقواعد تعبدية منسجمة ترمي بالنتيجة إلى تحرير الحق من كل باطل. وما البروتستانتية التي نشر الإصلاحيون (لوثر وأنصاره) المجددون لواءها في أواخر القرون الوسطى بأوربا إلا صورة لتقيد البساطة الإسلامية سواء في طقوس العبادة أو في استئصال عادات الزخرفة المقتبسة من أساطير الإغريقي...]

وعندما ينتهي رنان من نضاله الشريف وفلسفته البريئة عن الإسلام يختم مطالعاته بالجملة اللامعة التالية:

[لا يحق لأوربا أن تلجأ إلى طبع الأديان الغير مسيحية بطابع حضارتها وأن توسعها طعناً وتزييفاً. إذ أن لكل دين وجهة دنيوية بجانب وجهته الدينية قد لا تنطبق على الأساليب التي تشيد الأمم الأوربية بمحاسنها. إن محمداً العظيم أتى بديانة انبثقت عنها مدنية عالية لا يصح بجانبها اتهام أتباعها المتأخرين بالجمود، ففترات الازدهار والانحطاط مرّت على رأس جميع الأمم بما فيها أوربا المتعجرفة. وما يدرينا بأن يعود العقل الإسلامي الولود والكثير المواهب إلى إبداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة؟ بل وما يدرينا ما عساه أي يصبح بعد

قليل مصير المدنية الأوربية الحالية التي هي وليدة التمدن الإسلامي القديم؟][4]

---

[4] – كتب الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده الشهير مقالاً في مجلة (العروة الوثقى) وكان يصدرها بمصر علق فيه على كلمات (أرنست رنان) التي عربناها في أعلا هذا التعليق فيما يتعلق بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام والدين الإسلامي بالملحوظة التالية قال رحمه الله:

(تالله لو انبريت أنا بنفسي للدفاع عن الإسلام ونبيه لما استطعت أن أجيده. كما أجاده هذا العبقري الفرنسي. يزاد على ذلك أن مما يعطي هذا التعليق والدفاع، رونقاً لامعاً براقاً حشوها الإنصاف وشعارهما الوجدان الطاهر كونهما يصدران عن لسان أجنبي غريب عن الإسلام يتنكر في نفس الوقت لدينه نفسه!!)

ألا بورك ببطن حمله وأم ولدته. وما أجمل قوله (أن محمداً العظيم أتى بديانة انبثقت عنها مدنية عالية لا يصح بجانبها اتهام أتباع المتأخرين بالجمود، ففترات الازدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الأمم بما فيها أوربا المتعجرفة. وما يدرينا بأن يعود العقل الإسلامي الولود والكثير المواهب إلى إبداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة؟).

... فمرحى مرحى وعليك الرحمة يا ابن الكرام

هذا تعليق المرحوم الشيخ محمد عبده. وكل ما يمكننا أن نضيفه عليه، هو أنه لم يقم بين علماء أوربا من درس الدين الإسلامي وتعمق في سبر قواعده الشريفة مثل (أرنست رنان) ولذلك فإنه قال ما قاله عن علم لا أثر فيه للتزلف والمداهنة. ومثل أرنست رنان من يتنزه عن هذه الصغائر، وكيف لا وهو لا تربطه بالإسلام والمسلمين رابطة ما. فهو يتكلم بوحي العلم والوجدان والاتكاء على وسعة الدراسة التي امتلأ عقله الفياض بها.

غفر الله وعفى عنه وأكثر من أمثاله المنصفين في عالم دأب على العريض بالدين الإسلامي والحط من كرامة المسلمين.

لابد من ظهور أديان جديدة لإصلاح شأن البشر وإزالة فوضى الإلحاد وتدهور الفضيلة - الديانة اليهودية لم تستطع القيام بهذه المهمة الأخلاقية لنقص في عقائدها

قال [أوغست كونت] المشهور بإلحاده وتنكره لجميع الأديان:

- "لا يسعني عندما أنظر إلى فريق من المسلمين وهم يؤدون مناسكهم وفروض صلاتهم بشكل جماعة متكاتفة في أحد مساجد (فاس) والسكون والإيمان العذب يخيمان فوق رؤوسهم إلا أن أكبر عظمة هذا الدين الذي عرف كيف يصقل الأذهان ويهذب النفوس، ويسترق القلوب ويقوم الأخلاق، ويقضي على تمرد الروح ويحوله إلى خشوع عميق وتواضع ملؤه الوجد والخضوع. ولقد اشتهيت أن أكون يوماً أحد أفراد هذه الأفواج الساجدة لربها فأراحت ضمائرها بهذا النوع البريء من العبادة المخلصة ولكني لا أدري لماذا لا أكون إلا ذلك المتمرد ضلّ ولم يهتد وما زال يتوغل في الأعماق؟..."

فأنت ترى أن الملحد الضال نفسه يتوق حيناً بعد آخر إلى نزعة الإيمان وبسماته القدسية الحنونة، هذا فضلاً عن أن الملايين من الخلائق التي تعيش في أنحاء هذه الكرة الفسيحة منذ ألوف الأعوام تشعر شعوراً حاراً بضرورة التدين ولو كان ذلك عن طريق الاتجاهات الإصلاحية. فهذا القوم يعبد الأصنام، وذاك النار وثالث الشمس، ورابع الرياح، وخامس الشياطين والأرواح.... حتى تصل هذه المعتقدات المنبعثة عن انحطاط في التفكير وضلال في الحياة العريقة بالسذاجة والجهالة إلى العشرات بل المئات كما أثبت ذلك (الكشكول) وهو

من الكتب التاريخية الإسلامية القيمة. حيث قال بأن عدد الأديان في العالم تبلغ الأربعمائة أو أكثر...

وقد يوجد بين هذه الأقوام وفي كل عصر أفراد تنكروا للمعتقدات القائمة بين ظهرانيهم فاتخذوا الإلحاد منهاجاً وعقيدة لهم، وادعوا – حتى في زماننا الحاضر – بأنه ليس ثمة من ضرورة وجدانية أو سياسية أو اجتماعية لوجود الدين على مختلف أنواعه!! ولكن هؤلاء بقوا أفراد قلائل لم تفسح لهم عقائدهم الشاذة بالإكثار من الأنصار الذين يتمذهبون بمذهبهم الضال. لأن فكرة التدين هي من أعرق المدارك التي استيقظ الإنسان على نعرتها الملحة العذبة. يدلك على ذلك أنه منذ بدء التاريخ البشري وظهور (آدم) أي قبل ٧٠٠٠ عام تقريباً والناس ينهمكون في التحري عن الأديان والالتجاء إلى عبادة المُثُل المتفرعة عنها. فأصبح الإنسان والدين كاللازم والملزوم، بل لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض حتى أن المخلوقات التي عاشت في عصور ما قبل التاريخ كانت تعبد أنواعاً من الحيوانات أو كوكباً في السماء أو معبوداً غريباً آخر كما دلت على ذلك الآثار التي اكتشفها كثير من العلماء في جهات اليمن والصين وأميركا ومعظم أرجاء أفريقيا ك [الأنرتالي] و[اللوجري] و[الكرماني] وغيرهم من الأقوام المنتمية إلى العصر الحجري وما تلاه من عصور قديمة تائهة في مهامه الجهالة المطلقة والعريقة في القدم.

وكان مبعث الميل إلى التدين بادئ ذي بدء عند الإنسان أنه أخذ يفكر في نفسه ويقول:

[ترى من أنا... ومن أين جئت، وإلى أين المصير، وما هذه العوالم التي تحيط بي من فوقي ومن تحتي، ولم هذه الأشجار والرمال والبحار والأنهار،

والنجوم، والشمس والقمر... وكم سأعيش من السنين، ولماذا أموت، وكيف خلقت، وماذا بعد الموت؟؟؟]

فهذه الأسئلة جميعها التي كان الإنسان الأول يوجهها إلى نفسه لم يجد لها سوى جواب واحد – ولو اختلف نوعه – وهو أن هنالك صانعاً خفياً لهذا الكون ولهذه الأشياء كلها، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. لأن هذه الأشياء ذات تنظيم بديع ونظام ساحر لا يمكن للطبيعة أن توجدهما من تلقاء نفسها.

فبهذه الأحاسيس والغريزة الفطرية الملهمة تمكن البشر من الوصول إلى الخالق، وأخذ بعضهم يعبده على الوجه الذي يحلو لميله وطبعه. فكان هذا الخالق عند البعض كما قلنا فيما مر معنا هي الشمس، وعند الآخرين الريح، والبحر، والتمساح، أو حجراً منحوتاً بشكل إنسان أو مما هو معروف في حياة الأقوام التي عاشت في تلك القرون السحيقة.

وقد أيد الفيلسوف اليوناني المشهور (سقراط) هذه النظرية التي عززها بالاستنتاجات المنطقية التالية:

[كيف يشعر الإنسان بحاجته الماسة إلى الهواء والماء والطعام، كذلك تشعر روحه أنها في حاجة مبرمة أيضاً إلى غذاء معنوي، لاهوتي. وهذا الشعور هو في عرفنا الدين الذي اهتدى إليه أول إنسان. يدلك على ذلك أننا إذا تتبعنا حياة طفل أتينا به من أقاصي البلاد المتوحشة وتركناه يترعرع بدون أن نلقنه عقيدة دينية مهما كان نوعها، فإنك لتجده عندما يصبح رجلاً كامل الشعور، يتحرى في أعماق تفكيره عن شيء مجهول ويظل باحثاً منقباً تحت تأثير عامل نفسي وغريزي حتى يعثر على بادرة تكون في أول أمرها مائعة اللون

تتمركز في دماغه، ثم لا تلبث حتى تنسجم وتتخذ شكلاً صوفياً بارزاً يأخذ في التطور رويداً رويداً إلى الشيء الذي نسميه عقيدة أو ديناً. لأن هنالك ضرورة خفية وقوية تدفعه إلى هذا التدرج حتى يصل إلى النوع الذي يحلو له للعبادة. وهكذا فإن الإنسان يمتاز بطبعه عن الحيوان لتجرد هذا من المدارك ولالتصاق الأول بعامل أخلاقي وبشعور فطري يتطلب الفضيلة، والفضيلة كما نعلم لا تنبعث إلا عن الدين." أهـ.

نعم إن (سقراط) لم يكن صاحب رسالة دينية، ولم يشاء أن يعالج الأديان التي صادفها في المحيط الذي عاش فيه، أو فيما هو أبعد من محيطه، ولذا تباعد عن فكرة إدخال إصبع في صناعة اللاهوت، وحصر كل تفكيره في العلم والفلسفة لأنه كان يعرف جيداً بأن أقل ذبذبة أو فلسفة تطرأ على معتقدات الناس في ذلك الزمن تتناول مباشرة الأخلاق التي اصطلحوا عليها تحت تأثير معتقداتهم.

وكان يعرف جيداً بأنها معتقدات فاسدة، باطلة. فحاول أن يفصل الأخلاق عن الدين، ففشل في مسعاه لأنه أيقن بأن مصدر الأخلاق هو الدين.

غير أن تلامذته كأفلاطون، وأريسطاطاليس، وتيموستوكلس واضرابهم قد خالفوه في ذلك وقالوا بأن الأخلاق غير الدين، ولا تنبثق عنه بشكل من الأشكال واستشهدوا على ذلك بأن الأديان العديدة كانت متفشية في عصرهم وتراها مع ذلك أباحت الخلاعة والفسق والتضليل وعبادة الجمال... وكل هذه اللوثات لا تتلاءم مع الأخلاق حتى الابتدائية منها والبسيطة. ومما ورد في نظريتهم الفلسفية في هذا الصدد تأييداً للمبدأ الذي تواضعوا عليه، وهو أن الأخلاق شيء والدين شيء آخر قولهم:

[إن الأخلاق والفضيلة اللتين نلمسهما في بعض البيئات المتدينة مصدرهما التهيب من سطوة القانون العام ورهبة الأحكام، ومثل هذا النوع من النخوة الواقعة تحت تأثير الإرهاب لا يمكن أن تمت إلى الأخلاق الأصلية البريئة بصلة من الصلات.]

الآن إن [أوغست كونت] حمل على هؤلاء الفلاسفة حملة نكراء واتهمهم بأنهم في نظرياتهم هذه حاولوا بث روح العصيان والتنكر للأخلاق بين طبقات البشر حتى الملحدة منها. وكان عليهم أن يقروا نظرية أستاذهم (سقراط) القائلة بانبثاق الأخلاق عن الدين حتى يستقر الإنسان على حب الفضيلة والتورع عن ارتكاب الشرور والمعاصي تحت عوامل لا صلة لها بالرهبة التي تبعثها الأحكام الشديدة بين الناس. وقال: [إن فلسفة (أفلاطون) القائلة بأن الأديان لم تمنع انتشار الشرور في البيئات الغير الملحدة ولم تردع الخلق عن ارتكاب أنواع الموبقات وكل محرم ومكروه، وأن أعظم استبداد وأفظع تنكيل ارتكبهما الناس بين بعضهم بعضاً أتت عن طريق الأديان، وإن الأديان اتخذت وسيلة لارتكابها.. نقول أن فلسفة أفلاطون هذه مع ما فيها من بعد النظر وصحة الاستنتاج، إلا أنه ينقصها إحصاء الموبقات والجرائم التي ترتكب عن طريق الدين وأن يعدد الحسنات والفضائل المغدقة على طبقات البشر ومجتمعاته عن طريق الدين نفسه أيضاً حتى تتم مقابلة الشيء بضده...]

الباب الأول

فشل أولى الديانات السماوية الثلاث وهي اليهودية في إيجاد استقرار ديني للمجموعة البشرية

لابد قبل البحث في ظهور أول ديانة سماوية من التغلغل في بطون التواريخ لندقق ونبحث في حالة الأديان التي كانت تعتنقها الأوساط البشرية في القارات الثلاث أوربا وآسيا وأفريقيا. لأن هذه التوطئة تساعد القارئ على تفهم الأوضاع العامة التي اصطلح عليها الناس في معتقداتهم وتقاليدهم المتضاربة في تلك العصور البعيدة، وكل ذلك يتسلسل لا تختل معه حلقات الدراسات الممكنة التي سنضطلع في مواضيع هذا الكتاب حتى نصل إلى الغاية التي توخيناها من وضعه وإخراجه بشكله الحافل بالحقائق العلمية والتاريخية.

بعد أن استقرت المدنية الإيرانية قروناً طويلة ابتدعت خلالها في عالم الصناعات النفيسة أرقى الآثار الخالدة وكوّنت للشعب الفارسي أسمى الأمجاد وأخلدها سواء في الفروسية أو الثقافة أو وسعة الملك، أخذت تتوارى في عالم الفناء رويداً رويداً حتى تلاشت خلال قرون معدودة ولم يبق بادياً منها إلا الأطلال المندرسة، لأنها لم تستطع أن تصمد أمام ظهور عباقرة أشداء من رجال الفتح وأبطال التجدد الذين شددوا الضغط عليها وتناولوها بالتقطيع والتهديم، كما ذر في نفس الوقت قرن المنازعات الداخلية فيها وتفرق الناس إلى كتل متباينة الأعراض والمعتقدات، فرزحت وتلاشت بعد أن تأرجحت طويلاً تحت تأثير تلك الملابسات الهدامة.

وكانت العقيدة الدينية السائدة أبان ذلك المجد في بلاد فارس هي

(الزرادشتية) التي كانت عبارة عن سلسلة طويلة من الخرافات والمراسيم الدينية الباطلة وقوامها

عبادة النار وتأليه الأشخاص. وما كاد الإسلام يظهر حتى انهارت هذه الخرافات وظهر إلى جانب ذلك ميل إلى هجر كل سخافة تركها لهم أجدادهم باسم الدين وراحوا يقبلون على اعتناق الإسلامية بتهافت غريب الشكل وواسع النطاق. لأنهم كانوا يشعرون بسخافة المذهب (الزرادشتي) الذي لم تركن لتعاليمه ضمائر الكثيرين منهم، وإنما كانوا يرضخون إليه تحت تأثير جماعات الكهنوت، ولأنهم عندما قابلوه بالمذاهب (البوذية) و(البرهمية) وفي الهند و(الكنفوشيوسية) في الصين وجدوا أن طرز العبادة في تلك الأمصار تنحصر في الأوهام والخيالات والزهد والتعاليم الطويلة المملة. يقابل ذلك العبادة العملية التي تفرضها عليهم (الزرادشتية).

وإذا ما التفتنا إلى بقية الأمصار في قارة آسيا كالهند والصين وتركستان واليابان وغيرها نجد أن شعوبها كانت تمشي في عباداتها على غرار الشعب الإيراني من حيث المبدأ، أي أن كل بلد ابتدع لنفسه إلهاً وراح يعبده كما يشاء!! ففي الهند كانت تسود الديانتان البرهمية والبوذية وفي الصين الكنفوشيوسية وفي تركستان أو بلاد المغول كانوا يعبدون الذئب الأبيض (آق قورد) وفي اليابان الشوغانية أي تأليه الشمس وكلها مصطلحات جاءت من وضع الإنسان ولا تمت إلى وحي السماء وعبادة الله الواحد الأحد بصلة مطلقاً. أجل كانت وما برحت عبارة عن كفر وإشراك.

أما في أفريقيا فلا تسل عن تعدد الأديان الباطلة فيها، والتي ليست لها شرائع أو قواعد تشابه ما يقابلهما في بعض الأحيان الديانات المنتشرة في آسيا

فلا نظام ولا معابد ولا تنسك ولا صلوات... وكل ما في الأمر أنها عبارة عن ضلال حافل بالعربدة والسخافات والهرج والمرج. ومعظمها باق إلى اليوم في مقاطعات غير قليلة من هذه القارة، ولاسيما المأهولة بالشعوب السوداء المتوحشة.

ففي هذه الغمرة من فوضى الأديان المضلة المخدرة، قامت الديانة اليهودية التي ظهرت في أطراف آسيا الغربية تحاول نشر نفوذها وتعاليمها في الشرقين الأدنى والأوسط أي في جزيرة العرب والنهد والصين وحتى في أوربا نفسها ولكنها فشلت من أول الطريق. لأن الإسرائيليين الذين قاموا يبشرون باليهودية كانوا عبارة عن جمهرة من البشر تعيش عيشة البداوة والانحطاط، ليست لهم حضارة تطبع دعوتهم الدينية بطابع يجمع بين الدين والدنيا، أو بين العبادة والعلم والشئون الروحانية ومتطلبات التمدن كالرفاه والثروة والتنظيم والعمران وما إلى ذلك من المرافق التي لابد منها لتدعيم بنيان الحياة الراقية المتكاملة، بينما كانت الحضارات في كل من إيران والهند والصين فضلاً عن الحضارة الرومانية الأوربية تحلق في أجواء حافزة بما يقرب من التكامل. ومعلوم أن طلب الانصياع من قوم متمدن إلى قبول دعوة قوم يعيشون في عالم من الجهل والبداوة – مما كانت دعوتهم هذه منصرفة إلى أغراض دينية سماوية – لا تلقى طبعاً غير الإعراض والسخرية وهز الأكتاف. لأن من البديهي جداً أن تقابل تلك الرسالة التي يحملها ذلك الإسرائيلي الربع المتمدن بمثل هذا الإعراض من الهندي والصيني والإيراني والروماني الذين كانوا يرون أنفسهم أعظم رقياً وحضارة وثقافة ونظاماً حتى ونظافة منه ولا ينقصهم في نفس الوقت دين يلجئون إلى عبادته. فلديهم آلهة كثيرة يعبدون من يشاؤا منها، ولا يرون في أنفسهم حاجة إلى تبديلها طالما أنها تغمرهم بكل ما ترنوا إليه ميولهم الدينية

والدنيوية من شهوات وتمنيات ومتممات لحياتهم الرافلة بالحضارة.

وفضلاً عن ذلك فإن الدين اليهودي دين (تشبيهي) أي أنه يعتبر التنزيه المطلق للوحدة الإلهية تشبيهية وذلك فضلاً عن بعض التخيلات الصوفية الغمضة والمبهمة. ولأجل التوسع في تفسير ذلك نقول أن اليهود ينقسمون إلى شيعتين وهما (الغاريزييون) – Ghariziste – وهؤلاء يعتنقون المذهب الإسرائيلي القائم على الظواهر. و(الكباليون) – Kappaliste – وهم طبقة المتصوفين من حاخامين وسواهم ممن أدخلوا السحر والتنجيم وكل أسطورة غريبة على كتب العبادة التي وضعوا أركانها...

فالأولون لا يقام لهم وزن، فهم كالأنعام يسيرون وراء الرعاة وهم زمرة المتصوفين حيث تراهم الكل في الكل بالتوجيهات الدينية يرسمونها للدهماء كما تشاء مراميهم المادية.

أما الكباليون، وهم بيت القصيد من بحثنا، فإنهم يتنكرون لكل ما هو روحي ومعنوي في الحياة. ومذهبهم يجاري مبادئ الماديين والقوميين الأنانيين الأشداء. ومعنى ذلك أن المكافأة والمجازاة والسعادة والمحبة والفضيلة والحسنة عند هذه الطغمة ليست إلا عبارة عن مآخذ مادية. وأن الشخص الذي يطيع أوامر الله لا يفقر ولا يقع في أزمة الضيق والعوز ولا يمرض وتكثر ذريته ويعمّر طويلاً. والذي يعصي الله يقع في مصائب كثيرة... أما عقيدتهم بالحياة الأخروية فإنهم يحصرونها بقولهم أن الإنسان سوف يلاقيها بروحه فقط. وأن هذه الروح سوف تكون في حالة تتراوح بين النوم واليقظة. ولا تفريق في تجلي هذه الحالة بين العاصي والطائع. ويتطرف أرباب هذا المذهب إلى أبعد من ذلك ويقولون بأنه ليس بعد هذا الحشر على الوجه المتقدم من جنة لطائع أو جهنم لعاصي...

ومن جملة معتقداتهم أن الله فضل بني إسرائيل على كافة الخلق. وهو سريع الغضبة على من عصاه، ينتقم منه وحتى من ذريته بشدة وعدم تسامح. فلأجل هذا يخشاه الإسرائيليون ويتملقونه بشتى الترضيات الصوفية النفعية. أي أنهم لا ينصرفون إلى عبادته بإيمان مجرد أو استسلام ودعة. ولهذا نجد أن نوع العبادة لدى هذه الفرقة تشبيهية تتمشى على الوجهات التي تتشبه لهم بكونها الأصلح لمنافعهم، فهي والحالة هذه عبادة استنتاجيه مادية تتحرى وجوه النفع للعبد وتفرض بأن المعبود يتمشى على أهواء المخاليق. فلا تنزيه ولا توحيد لربوبيته.

ولهذا فقد تمكن الإسرائيليون أن يتكتلوا ويكونوا وحدات اجتماعية ذات حيوية وتضامن وثراء لا تشاهدها لدى بقية شعوب العالم، وذلك رغماً عن التشتت والاضطهاد الذين صادفوهما في فترات كثيرة من حياتهم القديمة والحديثة.

ومما يلاحظ في نفس الوقت أنه ليس لليهود فلسفة شعرية أو علمية أو آثار فنية، وكل ما في الأمر أنهم خصصوا أنفسهم للعبادة القائمة على المتاجرة والانتفاع. فلا يوجد بينهم ولاسيما قديماً من كرَّس نفسه للفن والعلم والفلسفة وإذا كانت لهم هنالك فكرة فلسفية خاصة فإنك لتجدها محصورة في قولهم أن بينهم وبين الله عقداً مبرماً زبدته بأن الله خلق هذا الكون لأجل اليهود فقط!! أما بقية الشعوب فلا محل عند (يهوذا) أي عند الله للتفكير فيها سواء أعبدوه أم لم يعبدوه إلا فيما يتعلق بأمور عرضية جداً...

هذه هي زبدة الديانة التي قام اليهود يبشرون بها في جهات آسيا فلم تجد من يصغي إليها لأنها مجردة من المنطق والحقيقة وحشوها الكفر والإثم والأنانية، حتى ومن العبادة الروحية الخالصة كما مرّ معنا تفصيله، بينما كانت شعوب الفرس

والهند والصين الملحدة مثلاً في أرقى ذروات التحضر والتمدن.

ولشد ما عجب الفرس وبقية الشعوب الأسيوية لدعوى اليهود القائلة بأن الله لم يخلق هذا العالم إلا لأجلهم فاستقبحوا هذه الأنانية الكامنة في صلب الديانة اليهودية، ولاسيما عندما التفتوا إلى الدعاة القائمين بمهمة التبشير بهذه الديانة فوجدوهم مجردتين من مواهب العلم والحضارة، وأنهم بحالتهم الهزيلة تلك أشبه بالبدو وسكان الكهوف فعافوهم ونبذوا دعوتهم باستكراه وتقزز!!

فأنت ترى مما تقدم أن اليهودية لم تكن إلا عبارة عن شرعة دنيوية مادية لا تمت إلى تعاليم سيدنا موسى عليه السلام إلى بصلة الاسم فقط. فالأنانية وحب الثراء وصنعة التنجيم والسحر وإكبار شأن الروح والمادة وإرسال الغموض على يوم الحشر والدينونة تبعد بعد السماء عن الوصايا العشر التي أتى بها موسى الكليم صاحب الرسالة الموسوية الأصلية وناقل التوراة وتعاليمه الربانية إلى أهل الضلال.

وما هذه الصهيونية التي قامت جماعة اليهود إلى المناداة بها في العصور المتأخرة، أو بالأحرى في عصر العلم والنور والوعي المنتشر بين جميع طبقات البشر؟ أليست وجهتها كما رأينا إضرام ثائرة الشقاق والنزاع بين الأمم والدول للعمل على تهديم الكيان الإنساني وتحويله إلى أتون من الجحيم المستعر ليتسنى لها اجتناء المنافع وجر المغانم من وراء هذه البوادر الماحقة اللاهية كما سبق لأجدادهم أن فعلوا ما هو مماثل لهذه الأجرام التي أضرموا سعيرها في مصر وبيت المقدس على عهد الفراعنة وقياصرة الرومان، ومن ثم على عهد سيدنا المسيح عليه السلام، وكما توقع لهم في أسبانيا يوم طردوا منها ولم يجدوا لأنفسهم من ملجأ إلا كتف الأتراك الذين أنزلوهم في مقاطعة (سلانيك) بعد أن

تظاهروا بالإسلامية، وعرفوا بعد ذلك بـ (الدونمة) أي المرتجعين أو المرتدين.. وكان طردهم هذا من أسبانيا قائماً على أسباب مشينة لليهود مثل تمسكهم بالقومية والعنصرية في أوساط كاثوليكية بحتة، ومثل مواصلتهم الأعمال المشينة كدس الدسائس في الأوساط الاجتماعية والمالية في بلاد الناس؟؟

فلعمري ألا يحق لنا أن نتساءل اليوم ولاسيما بعد هذه الآثام عن الفرق بين الصهيونية الظالمة الشديدة الثائرة وبين النازية التي سببت لهم بالأمس نكبة التشرد والتقتيل والإبادة؟ هذه كانت شديدة التورط في التمسك بالمبدأ العنصري، وتلك جاءت في آخر الزمن تمشي على غرار خطوة إثر خطوة.

وعليه يمكننا أن نقول أن اليهودية قد فشلت في الماضي بنشر تعاليمها الدينية والعنصرية ولم تحتضمها حوصلة أمة من الأمم التي كانت تتحرى عن دين صحيح لتعبد الله. وستفشل في الحاضر والمستقبل أيضاً في انتهاجها المبادئ العرقية القائمة على روح الغلو والتحدي والخيلاء لأن هذه الصفات تنابذ المبادئ الديمقراطية والشواعر الإنسانية اللتين تعمل طبقات البشر بأجمعها على التمسك بأهدابها. أجل ستعود هذه الأمة إلى التشرد والمسكنة اللتين طبع الله بهما حياتها من يوم عصت وتمردت على ربوبيته إلى اليوم الذي تعود فيه صاغرة لتأخذ مقعدها المنكمش الصغير الذي خلق لها، وذلك جزاء بما كسبوا وما ربك بظلام للعبيد.

الباب الثاني

ظهور المسيحية وتعاليمها الإنسانية

بجانب فشل اليهودية المريع في دعوتها الدينية التي حاولت أن تبثها في أرجاء أوربا وآسيا حتى وأفريقيا، أصبح لابد من انبعاث رسالة دينية جديدة تنتظم في الآفاق المبلبلة الضليلة لتقود الناس إلى الهداية والإيمان. لأن الروح الوثنية ونزعات الإلحاد ما كانتا إلا عبارة عن ظلمات يتيه في حلكها الحسير المجموع الكثيف من سكان الكرة الأرضية.

فظهرت المسيحية في بادئ الأمر بأحضان البيئات الإسرائيلية، ولكن التعاليم التي قامت بموجبها تدعو الناس إلى إتباعها كانت تخالف التعاليم اليهودية المحرفة على خط مستقيم، لأن القواعد الدينية عند هؤلاء ترتكز على المادة، أما الديانة العيسوية فقد خالفتها في ذلك لأنها تنظر إلى معنويات الحياة المتعلقة مثلاً بالعبادة والزهد وفعل الخير نظرة احترام وتهالك. أي أنها تؤيد مباشرة المبادئ الرئيسية التالية:

١- الإعراض عن الدنيا والاعتراف بالآخرة والعذاب والثواب. [اليهود يرسلون الشك في هذه الناحية]

٢- الترفق بالإنسانية. [واليهود دأبهم الشره والطمع ولو هلك الناس طراً]

٣- التواضع والمحاسنة للمجتمع البشري. [واليهود لا يحسنون إلا لأنفسهم]

٤- أن الله هو رب العالمين، لا رب المسحيين فقط. [واليهود يعتقدون

بأن (ياهوزا) أي الله هو إلههم وحدهم وليس له علاقة ببقية المخلوقات]

٥- العفو عند المقدرة. [واليهود يسعون إلى العفو عن طريق المقايضة والارتشاء]

٦- احترام الحق العام بترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله. [واليهود لا يحترمون إلا حقوق طائفتهم فقط]

فهذه التعاليم النبيلة والمخالفة كل المخالفة للدعوة لتي قام اليهود من قبل يبشرون بها جعلت انتشار الديانة المسيحية في المحيط الذي نشأت فيه صعباً جداً لمنابذة اليهود لها ومكافحتهم أنصار المسيح ومنعهم بشتى الأساليب الوحشية عن التبشير بها. فكانت نتيجة هذا الاضطهاد للمذهب المسيحي في البيئات الشرقية أن أخذ ينتشر ويتوسع في المحيط الغربي وخاصة في (روما) و(أثينا).

ولا نكران بأن المسيحية اقتبست الشيء الكثير من شرائعها عن التوراة كالوصايا العشر وما إليها من شئون دنيوية ولكن الإنجيل الشريف أيضاً هداها إلى نواحٍ روحية جليلة الأثر. وهي كثيرة تلقي على هذا الدين المحترم روعة الزهد وعمل الخير ونبالة الشواعر الإنسانية. ولهذا أقدم سكان أوربا قبل غيرهم على الدخول فيه. وكان أول من قبل به واتخذه ديناً رسمياً (قسطيطين) إمبراطور دولة (البيزانس). ثم راح يتوسع رويداً رويداً حتى عم بلاد اليونان والرومان وبالتالي معظم المقاطعات الأوربية.

وإذا رجعنا إلى الأسباب الرئيسية التي ساعدت على التوسع وسرعة الانتشار تراها منحصرة في ثلاثة عوامل:

العامل الأول: يرجع إلى الضجر والنفرة العامتين اللتين كانتا تسودان

شعوب أوربا المتبرمة من عبادة الأشخاص والشعوذة والسحر والأصنام حيث أثبتت لهم الأيام والقرون المديدة التي مرّت على هذا الضلال، أن الباطل والطغيان والجهل والإلحاد والإباحية وغير ذلك من النوازل الجائمة فوق بطاح قارتهم ستقود شعوبها إلى الانقراض والاضمحلال أو على الأقل إلى البقاء في عداد الأمم المتوحشة التي عاشت في أوائل بدء الخليقة وظهور الإنسان على وجه الأرض. ولهذه الأسباب فإن فكرة تركيز الحياة الاجتماعية المنبثقة عن إصلاح المعتقدات الدينية أخذت تجول في دماغ المفكرين في أنحاء أوربا الشمالية التي كان لها نصيب لا بأس به من التقشف من [مصر وفارس] حيث كانت هذه البلاد على نصيب وافر من البقية الباقية من الحضارة اليونانية والفرعونية والإيرانية.

وقد صادف عند قيام هؤلاء المفكرين في ثورتهم الاجتماعية هذه أن ظهرت المسيحية وتناول [بولص الرسول] وأقرانه الدعاية لها وجعل الأول مركزه (روما). فخطا في سبيل هذه الغاية خطوات واسعة كلل معظمها بالنجاح وأدَّت مساعيه إلى سرعة انتشار هذه الديانة الشريفة في كل صقع من أصقاع أوربا.

العامل الثاني: فشل الديانة اليهودية في تعاليمها الغامضة بين الشعوب الغربية – حتى والشرقية أيضاً – كما وصفنا ذلك فيما تقدم. وكيف لا تفشل وقد جعلت من الله جل شأنه آلة لمنافعها وجرّ الملكوت الواسع إلى أحضان أنانيتها الخسيسة بعد أن ناهضت المسيح عليه السلام وحاولت صلبه وقتل أنصاره؟

العامل الثالث: كان يرجع إلى خوارق المعجزات التي أظهرها السيد المسيح عليه السلام مما لا حاجة إلى التبسط به هنا، لأن أمر هذه الخوارق

كإحياء الموتى على الأخص معلوم. وكان للتعاليم الشريفة التي بشر بها السيد المسيح أيضاً كحب السلام وعمل الخير وعبادة الإله الواحد الذي خلق هذه الأكوان أثر الكهرباء في سرعة انتشارها بين الناس وخاصة في الأصقاع الأوربية.

وإنا لنشعر هنا باضطرار كلي إلى عدم البحث فيما طرأ بعد ذلك على المسيحية من عقيدة التثليث والبحوث المتعلقة بقضايا الناسوت واللاهوت والمادة والقدرة والوحدة الإلهية والتوازن بين الخلق والخالق، لأن ذلك خارج عن نطاق أبحاث هذا الكتاب. وإنما كل ما يمكننا أن نقوله هو أن العوالم التي تناولتها الدعاية بادئ ذي بدء إلى تقبل المسيحية والتمذهب بطقوسها المحتشمة دخلت في أطوار من الهداية المهذبة، طابعها الخشوع والورع لتتولى تسيير دفة أمورها الاجتماعية والدينية عقيدة سماوية تبرز في معظم تعاليمها روح إنسانية وتصوفية وتلقي نوراً على الطرق السليمة التي يجب أن ينتهجها الإنسان لتكوين حياة ذات وجوه عقلية ومنطقية.

ويدلي إلينا التاريخ عند بدء انتشار الديار العيسوية في أوربا بالتفاصيل والشروحات الكثيرة عن الأثر الذي ترك هذا الانقلاب الديني لدى الشعوب التي شملها تياره، لا ترى بداً من الإلماع إلى بعضها هنا مثل:

١- تحريم قتل النفس البريئة.

٢- تحريم الإباحية.

٣- ترتيب طقوس العبادة على أوجه وقواعد معقولة وقورة.

٤- معرفة الله وكيف أن جميع المخلوقات مرجعها إليه.

٥- النهي عن الفسق والكذب والسرقة وكل موبقة.

٦- الإكثار من الصدقات والعطف على المثقل والمريض.

٧- تشييد الملاجئ الخيرية والصحية ومواساة المعدم والعاجز.

٨- الإطاعة المطلقة للحكام والأحكام.

٩- الترهب نساءً ورجالاً والإفراط في الزهد.

١٠- التعليم والإرشاد لمعرفة كل إنسان حقوقه وواجباته.

وظل إقبال الأوربيين على التنصر ممتداً عدة عصور، ثم بدأ رد الفعل في اتخاذ بعض الأمراء والملوك والمتنفذين هذا الدين الجديد مطية لدعم تيجانهم وتقوية مراكزهم ونشر سيطرتهم على العباد، فاتسع من جراء ذلك نطاق الفتن وانتشرت الحروب والأهوال في المقاطعات الأوربية وبين دولها وتأسست الجمعيات الثورية باسم الدين. وكان أشهرها جمعية (الصليب المقدس) في (تورينو) التي أخذت على عاتقها استئصال شأفة الملحدين من بقايا الرومانيين. وحدث بعد ذلك ولا حرج عن الدماء التي سفكت وفي مقاطعة (توسكانا) خاصة في سبيل هذا الجهاد الديني حيث وصفها (هارتمان) بأنها أفظع المجازر البشرية التي سجلها التاريخ القديم.

وأنت خبير بأن الحروب بعد أن تضع أوزارها تنكشف عن ويلات ومصائب لا حدَّ لها ولا نهاية كالفقر وخراب المدن وفقدان الزاد وتفشي الأمراض وانتشار العصابات التي تتوغل في غمائر اللصوصية ومغارم الغصب وقتل النفوس البريئة وشن الغارات على المدن الآمنة والقرى المنعزلة وسلب السابلة، وما ينجم عن كل ذلك اضطراب حبل الأمان والسلام. وهذا ما توقع لأوربا في الماضي عندما فكر ملوكها وأمراؤها وكهنتها في اتخاذ الدين متكأ ينفذون منه إلى خضم السياسة المتضاربة الألوان والنزعات السياسية التي ما نبذ

قرونها على مختلف أشكالها في أية غمرة تتعلق بشئون دينية واجتماعية لمختلف طبقات البشر إلا وكانت سبباً أولياً في اضطرام نيران العداوات والانقسامات وبالتالي الحروب الطاحنة والشرور المقيمة المقعدة. ولا تستبعد هذا أو تشك في صحته. فها أنت ترى بأم عينك اليوم هذه الحقيقة بادية للعيان، بكل فظائعها وعواملها المخزية، فالحربان الكبيران، حرب سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ وما تلاها ونعني بها الحرب المديدة الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ هما أكبر شاهد على صحة ما نقول. فهل ترى اليوم ماثلاً أمام نظرك غير البؤس والشقاء والدمار والفقر والأمراض والغلاء والحرمان تعم ويلاتها كل سكان الكرة الأرضية وتهدد المجتمع البشري بالانقراض والزوال؟؟!!

وهذا أيضاً كان شأن الحروب والثورات التي عمت أوربا في أواسط القرن الثالث الميلادي وما تلاه حتى القرن الرابع عشر أي بعد أن استتب لشعوبها الاهتداء إلى دين سماوي فرض فيه أنه سيكون مصدر الأمان والسلام، وإحقاق الحق وإزالة الفوضى من الأوساط المنغمسة في عالم مظلم من الجهل والإباحية.

وليت الأمر انتهى عند هذا الحد من الأمواج في عالم من الاضطراب الصاخب. فإن روحاً خبيثة تفشت أيضاً في مجامعهم ومعسكراتهم وقصور ملوكهم وصوامع كهنتهم زادت في طنبور هذه الغوائل نغمة أخرى، وكانت نذير شرور فارعة تعمل على تحطيم عقلية الخلود إلى العبادة والتجدد في ظل الوعي الديني الجديد، ألا وهي روح التعصب الممقوت الذي بدأ في المعابد وتفشى إلى مخادع الملوك ومكامن الوجهاء والمتزعمين حتى وصل إلى صفوف عامة الشعب واستقر بين ظهراني الغلمان الصغار. وتقص عليك الأسفار القديمة الشيء الكثير من مغارم هذه الثورة الآكلة أو الرِّدة التي أغرقت العالم الأوربي في أغوار سحيقة من الضلال الأخلاقي تسربت إلى الشيوخ والنساء وجميع طبقات

المجتمع حتى وصلت إلى الغلمان الذين هم بين سن العاشرة والخامسة عشرة من العمر فأطلق عليها الفيلسوف الألماني (كنت) جنون التعصب أو (عصر الغلمان) وكان لهؤلاء الفتيان الصغار معسكران كبيران الأول في (مرسيليا) والثاني في منطقة (ارفورد) بألمانيا. تزحف إلى الأول منهما فتيان أقوياء تجمعوا من كل بلد ومقاطعة كائنة في شرق ووسط أوربا. أما فتيان الشمال والغرب فكانوا يتجهون إلى منطقة (بروتان) ويعقدون فيها الاجتماعات الثورية الصاخبة ويعملون على فرض الجزية على الأغنياء بالطرق الشديدة القائمة على التهديد والإكراه لجمع المال وشراء الأسلحة لأجل نشر سيطرتهم على العالم الأوربي كله وإقامة دولة موحدة تحت اسم جمهورية (الفتيان الكبرى). وقد ذكر (كنت) بعض المواد السخيفة التي تضمنها برنامج هؤلاء السياسيين الصغار نثبتها هنا رغماً عما تضمنته من ترهات ومهازل:

أولاً – انتخاب رئيس لأوربا المتحدة من صفوف الفتيان.

ثانياً – إعداد حملات عسكرية للاستيلاء على كافة بلدان العالم.

ثالثاً – يجب أن تكون شارة الصليب هي العلامة الفارقة لكل مقاطعة تستولي عليها دولة الفتيان سواء في أوربا أو خارجها.

رابعاً – يجب مصادرة جميع أموال الأغنياء لتحقيق أهداف هذه الدولة (العتيدة)!

وهنالك بند خامس وهو أسخف ما جاء في هذا البرنامج العجيب يقول بأن كل أم تخفي أولادها ولا تقدمهم إلى زمرة معسكرات الفتيان ليكونوا أعضاء عاملين فيها تشنق أو تصلب... وبالفعل اجتمع في عام ١٠٣٧م ألوف من هؤلاء الفتيان واجتازوا نهر (أيستي جوروالد) ودخلوا بلدة (أرنستاد) وألفوا

حكومة دامت سبعة أشهر ثم انقرضت لتفشي الطاعون في أوربا بسبب قلة النظافة وعدم الاعتناء بالشئون الصحية.

وهذا بعض ما كان يحيق بأوربا من لوافح الجهل والفوضى في القرون التي نوهنا بها آنفاً. ولولا أن قام رهبان الكنائس وزعماء المقاطعات وأمراؤها على مكافحة هذه الروح الفتية والمتمردة واعتقال البارزين من أولئك الغلمان المتهوسين وتشريدهم ورد المغفلين منهم الذين لم تتملكهم غواية هذه الثورة إلى أهلهم لكنت ترى الطرق الكائنة بين المدن والقرى والحقول والوهاد مليئة بعصابات هؤلاء الأطفال يعيثون في الأرض فساداً ويقطعون الطرق على السابلة وينهبون جميع ما تصل إليه أيديهم، ولظلوا يواصلون هذه المغامرات التي عم أذاها وبلاها إلى أن تبيدهم الآفات العديدة كالجوع والبرد والعري والأمراض بعد أن يتركوا وراءهم فواجع كثيرة تصيب الشعوب الأوربية من ورائها كوارث لا تحصى...

ونعود إلى وصف حالة الانحطاط والجهالة اللتين سادتا أوربا بعد أن انتشر فيها داء التعصب الذميم هذا في جميع مقاطعاتها من جراء انقسام رجال الكنيسة إلى مذاهب مختلفة كالأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية حيث ظهرت الأولى في أطراف أوربا الشرقية والجنوبية، والثانية تمركزت بأواسطها. والثالثة انتشرت في شماليها. ومن البديهي أن تنجم عن هذه الانقسامات والمنابذات في العقيدة والطقوس والتشريع اختلافات واسعة حادة تعقبها حروب وأهوال تسيل فيها الدماء أنهاراً وينخرط في شروها الملوك والأمراء وزعماء الكنائس وملايين لا تحصى من الدهماء. وكلما انتهى حرب اشتعل آخر وتلاه الفقر والعوز والأمراض والمجاعة واستبداد الظافرين بالطبقات المغلوبة والضغط عليها والتحكم بمقدراتها. وما جاء القرن السادس الميلادي حتى كانت أوربا في أسوأ حال وأحط مستوى وصل إليه مجتمع بشري.

ثم تعاقبت العصور على شعوب هذه القارة وهم يهيمون في ديجور هذه الكوارث التي لا يحدها وصف ولا تماثلها فوضى عرفت في بقعة ما من بقاع الكرة الأرضية حتى داهم (الفتح الإسلامي) هذا الانقسام المميت وراحت جيوش الأبطال الفاتحين العرب تتسرب من الغرب إلى المحيط الأوربي عن طريق الأندلس بحيث تسنى لها اكتساح قسم من فرنسا وجنوب إيطاليا، كما أخذت تترعرع الدولة التركية العثمانية الإسلامية أيضاً في الشرق وفتحت (القسطنطينية) ومشت إلى البلقان وروسيا حتى وصلت إلى أواسط أوربا أي إلى بلاد النمسا والمجر وسخرت شعوبها لقبضات سيوف سلاطينها. وقد فصلنا جميع هذا في بعض أبواب هذا الكتاب كما سيطلع على ذلك القارئ الكريم.

الفصل الثالث

الحروب الصليبية

الباب الأول

كان من جراء الفتوحات الإسلامية لقسم غير قليل من المقاطعات الأوربية أن تفتحت أذهان شعوبها إلى وجوب نبذ الاختلافات والحروب الدينية القائمة فيما بينهم وطرحها جانباً للعمل على جمع صفوفهم لمقاومة تيار الخطر الإسلامي الذي داهمهم بفتوحاته وهم في غفلة عن ذلك، لا همَّ لهم إلا مناضلة بعضهم بعضاً ومواصلة الحروب المبيدة المتلاحقة. وراح القوم يتنادون تحت زعامة البابا (أورين الثاني) وكان ذلك عام ١٠٩٦ إلى إعلان حرب صليبية لا هوادة فيها على [غير الصادقين] وكان هذا هو اسم المسلمين في أوربا بتلك العصور وتخليص بيت المقدس من أيدي هؤلاء... ومما ساعد بالدرجة القصوى على انخراط البابا في عداد القائمين بهذه الدعاية وتوليه زعامة توجيهها وإدارتها ذلك الانتصار الباهر الذي أحرزه العرب المسلمون بموقعة زلانقة أو (ذلاقَّه) على جيوش الأسبانيين الذين كان على رأسهم الملك ألفونس الخامس في الأندلس عام ٤٨٠ هـ.

وكان أول عمل لجأ إليه البابا أن جمع المجلس الروحاني المسمى (كليرمون) أو في بلدة تدعى بهذا الاسم. ثم انضم إليه جمع لا يحصى من أمراء وقادة الجيوش في أوربا وأطلق عليهم لقب [فرسان الصليب = **Croisés**] وراح هؤلاء وعناصر الجهالة مطبقة عليهم من كل ناحية يتدارسون الطرق الواجب اتخاذها لإعداد وسائل الحملة على الشرق وتوفير جميع لوازمها من مال وعتاد وذخيرة وخيل ورجال ومؤن. ولكن فورة التعصب الأعمى ودعاية رجال الكنائس كانتا قد بلغتا حداً عجيباً في أدمغة هؤلاء المساكين مما دعا فريقاً كبيراً

من المتهوسين أمثالهم في معظم بلدان أوربا إلى المسارعة للاشتراك في هذه الحملة النكراء والسفر إلى الشرق تحت قيادة راهب يدعى (بييرلرميت) ومعظمهم لم يكن يحمل سلاحاً أو زاداً، الأمر الذي يدلك على مبلغ تأثير الدعاية الخبيثة التي فشت في صفوف هذه الأرواح الشاردة التي لقيت حتفها وأبيدت عن آخرها عقب حروب طاحنة على أبواب الشرق في أواخر عام ١٠٩٦ م.

وقد سمي هذا الجموح المشلول (بالحملة الصليبية الأولى)... ولما ترامت أخبار فشلها وانكسارها ثم تشتيت شمل جحافلها إلى مسامع الناس في أوربا هاجوا وماجوا وراح المجلس الروحاني وعلى رأسه البابا يعدون (الحملة الثانية). وبعد جهود جبارة ودعايات طويلة تكونت أربعة فيالق كبيرة وزحفت عن طريق البلقان حتى وصلت إلى أبواب (القسطنطينية). ولما كان لا يوجد قائد بارز يدير شئونها انبرى إمبراطور بيزانسيا المدعو (الكسندر كومنن) إلى تسلم قيادتها. فأدى الأمر بعد قليل من انتخابه لهذه الزعامة إلى قيام النزاع بين الروم ورجال الحملة الأوربيين وكلهم من الكاثوليك دام ما يقرب من الثلاث سنوات ثم انتهى بأن زحف هذا الجيش اللجب على البلدان الإسلامية واستولى عام ١٠٩٩ على أنطاكية والشام وبيت المقدس. وقد بلغت الضحايا والتلفيات بين رجال هذه الحملة ٥٠٠ ألف شخص، مما اضطر دعاة الحرب الصليبية في أوربا إلى تجهيز (حملة ثالثة) عام ١١٠١ م مكونة من ثلاث فيالق ألحقت بالباقية من رجال الحملة الثانية فكانت نتيجتها نفس ما أصاب سابقاتها من الفشل والتضعضع والبوار!!

وفي عام ١١٤٧ أعلن كل من (لويس السابع) ملك فرنسا و(كونراد) ملك جرمانيا عزمهما على تشكيل حملة صليبية جديدة وكانت (الحملة الرابعة). وبالفعل تكونت هذه الحملة وزحفت على سورية تحت قيادة هذين

الملكين لاسترداد دمشق التي كان المسلمون قد استعادوا فتحها وطردوا الصليبيين منها. فانهزم لويس وكونراد المذكوران على أبواب سورية شر هزيمة وعادوا بخفي حنين. وفي الوقت ذاته كان البطل المغوار المرحوم السلطان صلاح الدين الأيوبي قد هاجم بيت المقدس واستردها من أهل الصليب الذين وصفناهم بجماعة (الحملة الثانية).

فما وصل نبأ هذا الانكسار الرابع أيضاً إلى أوربا الثاكلة، وفوز المسلمين على الجيوش الصليبية حتى ثار ثائرتهم وراحوا يبثون الدعايات في كل بلد ومقاطعة. وأخذ البابا (أورين الثالث) يخص ملك فرنسا آنئذٍ المدعو (فيليب أوكرست) و(إمبراطور ألمانيا فردريك...) وملك إنجلترا (ريتشارد) الذي لقب بعد ذلك بـ (قلب الأسد) على تجهيز (حملة خامسة) لإخضاع البلدان الإسلامية إلى جيوش الصليبيين وفتحها نهائياً. وبعد عناء طويل ومحن تمكنت هذه الحملة من السفر إلى الشرق وفتحت عكا واستولت على الجزيرة الخضراء (قبرص) بعد حروب مبيدة طاحنة. ولكن الأهداف التي كان الصليبيون يرمون إليها لم تتحقق. نعم إنهم فتحوا ما حول القسطنطينية مما كان واقعاً في أيدي العرب واستولوا على بعض المدن الإسلامية، ولكن انتصاراتهم لم تتعد هذا الحد وظلوا بعيدين عن الوصول إلى مآربهم عن طريق هذه المغامرات المعيبة.

أما (الحملة الصليبية السادسة) فقد وُجهت بعد أن ظلت أوربا تعد عدتها ١٤ عاماً إلى مصر وهاجمتها بكل شدة وحماس واستماتة. فقابلتهم جيوش (الملك العادل) رحمه الله بقلوب قُدت من الصخر وشتت شمل فيالق الأعداء وأسرت بعض ملوك وأمراء إنجلترا وألمانيا وفرنسا واستبقتهم لديها رهينة. فأخذ هؤلاء يعرضون على السلطان العادل شروطاً ملائمة للمصالحة وإطلاق سراحهم من الأسر أهمها عقد معاهدة تجارية وثقافية بين الشرق والغرب تكون

الصفقة الرابحة فيها للمسلمين. فقبل السلطان بهذا الحل وخرج المسلمون من هذا الاستسلام الذي عرضه عليهم الصليبيون بأفضل النتائج وأعم الفوائد وهذه هي أهم الشروط الواردة في المعاهدة المذكورة[٥]:

أولاً – يسلم الصليبيون جميع أسلحتهم لملك مصر.

ثانياً – يدفعون ١٠٠ كيس من الذهب و٤٠٠ كيس من الفضة غرامة حربية.

ثالثاً – يعودون إلى بلادهم بطريق البحر ويمنعون من السفر براً.

رابعاً – يدفع إمبراطور ألمانيا فردريك مبلغ ٢٠٠ كيس من ذهب لقاء استئجاره بلدتي القدس وبيت لحم لمدة عشر سنوات. وبعد انتهاء هذه المدة لا يجدد عقد الإيجار وترد المدينتان إلى المسلمين.

خامساً – تترك الحرية الكاملة لكل فرد من أفراد الحملة الصليبية في اعتناق الدين الإسلامي[٦] فيما إذا رغبوا بذلك.

سادساً – تضاعف هذه الغرامات أمثال أمثالها وينال الصليبيين أشد انتقام من المسلمين فيما إذا جددوا الحملة على ديارهم.

وبعد أن وقع الطرفان صك هذه العهدة رحل رجال الحملة بحراً إلى ديارهم منهوكي العزم مهدمي القوى ومعظمهم قد فتكت الأمراض بأرواحهم وتوفى منهم في أثناء عودتهم خلق كثير ذهبوا طعاماً لحيتان البحر ووحوشه.

---

٥ راجع كتاب (نتائج الحروب الصليبية) للمرحوم العلامة سليمان البستاني ص ١١٤ و١١٥

٦ وقد روى المرحوم البستاني في كتابه الآنف الذكر أن الذين اعتنقوا الإسلام من جماعات الصليبيين بلغ ٤٠٠,٠٠٠ شخص في مجموع الحملات الثماني.

وبالفعل نفذ الصليبيون جميع شروط المعاهدة وردوا القدس وبيت لحم إلى المسلمين بعد عشر سنوات. ولكن الذل والانكسار الذي لحق بهم تجاه بطولة المسلمين وشدة بأسهم خلال الحملات الست التي وجهوها إلى ديار الشرق، زادتهم حرقة ولوعة.. وأخذ ملك فرنسا المدعو (لويس القديس) يحرض ملوك أوربا وزعماءها تحت ضغط وإكراه رجال الكنائس على إعداد (حملة سابعة) لأخذ الثأر والانتقام من (غير الصادقين) وتخريب بلدانهم وأمصارهم ليتسنى لهم التشفي من المسلمين الذين نكبوا رجال الحملات السابقة بأفظع الأهوال وأشدها فتكاً، وألبسوا نساء أوربا السواد عهداً طويلاً بعد أن أمحلت معظم المدن فيها من الرجال الأشداء. وظل هذا الملك يواصل التحريض والمساعي الخبيثة مدة ٧ سنوات تمكن بعدها من إرسال (الحملة السابعة) إلى مصر. فكان نصيبها بعد حرب ضروس أمام بلدة (المنصورة) – وهذا هو سر تسمية هذه البلدة باسم المنصورة – الخزي والفرار واستولى المسلمون على غنائم لا حصر لها مع الألوف المؤلفة من الأسرى الذين افتدوا أنفسهم فيما بعد بقناطير من المال.

أما (الحملة الثامنة) فقد وجهت إلى شمال أفريقيا، وكانت سبباً لموت (لويس القديس) في تونس بالطاعون وتشتيت شمل حملته وعادت إلى فرنسا مهيضة الجناح مدحورة بدون أن تصل إلى أية نتيجة من رحلتها. وكان القائد (أبو الحسين بن عون) التونسي هو بطل المجامع، والقاهر لجيوش الملك (لويس) الفرنسي وأسر الألوف منها.

ويقول المؤرخون أمثال (بورجيه **Borgier**) و(سينه بوس **synie Bos**) أن هذه الحملات كلفت أوربا خلال ٣٠ عاماً ٥ ملايين رجل و٥٧٠ مليون دينار ذهب، ولا غرو فعلى الباغي تدور الدوائر في كل زمان ومكان كما ستدور هذه المرة على الصهيونيين إن شاء الله.

الباب الثاني

أسباب فشل الحملات الصليبية الثماني

يرجع فشل الحملات الصليبية على بلاد الشرق إلى عدة أسباب رئيسية، وفي مقدمتها انعدام روح الوفاق بين عناصر دعاتها وتفكك عري وحدة الصفوف وتشتت الأهداف فيما بينهم كالتنازع على التزعم والسيادة والقيادة. وقد تسرب هذا الخلاف والشقاق إلى صفوف أفراد الجيش أو الجيوش المعدة للغزو، لأنهم كانوا عبارة عن خليط عجيب من الخلق تباينت في سرائرهم الميول والمواهب الأخلاقية والطبائع المختلفة واللغات والمذاهب[٧] ثم يأتي بعد ذلك اتكاء ارهاط هذه الحملات على رجال الكنائس ودعاياتهم وفي مقدمتهم الكرسي البابوية وأعوانها الكرادلة فكانت دعايات مجردة من روح التبصر والتعقل، كما أنه ليس لها هدف يستند على نتائج ذات فائدة سياسية أو مدنية أو تجارية على الأقل. بل كانت لمحض إرضاء الشهوات الدينية الصادرة من أعماق الخصال الذميمة كالتعصب الممقوت الذي كان يسود يومئذ أجواء أوربا ومحافلها الغارقة في خضم من الجهالة أو الضلالة سحيق الأغوار...

وبعد فقد كانت أوربا في أزمنة هذه الحملات خالية من معاهد العلم، ومن القادة الحكماء الذين يستطيعون بفضل حسن تفكيرهم وبعد نظرهم كبح

---

[٧] لقد جاء في كتاب (تاريخ الحروب الصليبية) لـ (بورجيه) عند تكلمه عن أسباب فشل هذه الحملات أن عدد أجناس رجالها بلغ في الحملة السادسة ٢٠ جنساً و١٧ لغة، وقد عدّدها بين غالي وفرنسي وإيطالي وجرمني وبولوني وإنجليزي وصقلي ثم قال:
(كيف يمكن أن يتم النصر لمثل هذا الـ (Muzayeque) والانسجام وغنية بمالها ورجالها وحضارتها؟؟) أ هـ.

جماع دعاة روح الجاهلية هذه وردها إلى التؤدة والحكمة، مع أن الأمر كان على خلاف ذلك باطراد غريب. فإن رجال الدين الذين كانوا أرقى العناصر القاطنة في أوربا هم الذين عملوا على تحريض الخلق وحمل الكبير والصغير على مهاجمة الشرق بدون وعي أو استعداد، وهكذا تسنى لهم سوق الملايين إلى ساحات الموت سوق النعاج، تلك الساحات التي كانت تبعد عن بلادهم ألوف الفراسخ والتي لا يمت ساكنوها إلى أوربا بصلة ما دينية كانت أو قومية أو أية وشاجة أخرى تبرر وقوع هذا التلاحم أو الاتصال.

ثم يجب أن نضع في جملة العوامل التي أغرقت أوربا في بحر من الدماء والتيتم والأحزان والأمراض والفقر عقب انتهاء الحملات الثماني بالفشل المريع، جهل أوربا للقوى المدنية والعسكرية الرابضة فوق أجواء الشرق الإسلامي وفي مختلف مدنه ودساكره حينذاك. حيث كان يتمتع أبناؤه بحضارة عامرة موروثة ونظام عسكري بارع، ووفرة في الرجال والأموال والعلوم، ووسعة في المرافق التجارية الغنية والصناعات المشهورة وفي مقدمتها الصناعات الحربية. فقام الأوربيون إزاء هذه الميزات الرفيعة القوية التي يتنعم بها المسلمون وعدّتهم الجهل ودليلهم الفوضى وتفرق الكلمة يحلمون بفتح أمصار أولئك الأقوياء في مدينتهم وعقيدتهم وفي قلاعهم الحصينة ومواقعهم العسكرية العتيدة التي يعرف قادتهم كيف يتخذونها معاقل منيعة للدفاع عن بلداتهم عند الحاجة ورد المغيرين عليها على أعقابهم، ولاسيما وأن ذلك العدد المغير على ديارهم لم يصل إليهم إلا بعد أن اجتاز ألوف الأميال. ولم تطأ أقدام رجاله أرض المشرق إلا وقد أنهكهم الجوع والتعب والنصب ومختلف الآفات والأمراض وقد صح في هؤلاء المتهوسين المخاليع قول من قال:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ويلفت أنظارنا عندما استحكمت روح هذه الفوضى في جميع أرجاء أوربا، وراحت عوامل الطيش والغرور تعمي الأبصار وتلقي عليها الغشاوة الضريرة، أن هذا الفوران المقيت الذي شمل الخواص والعوام ورجال القصور والكنائس وأبناء الأزقة والحقول والمصانع حتى النساء والأطفال لم يحرم هذه المجامع الهائجة الصاخبة من بعض الحصفاء الذين أوتوا شيئاً من صحة التفكير والوعي السليم وبعد النظر. فقد انبرى عدد غير قليل منهم[٨] يجوبون أنحاء أوربا وكل قطر من أقطارها، يخطبون في الناس ويصورون لهم هول الغائلة وعظم الكارثة التي تصيب الشعوب الأوربية من جراء هذه النعرة يثيرها الجهلاء المتزعمون من رجال القصور والكنائس على بلاد الشرق ويعددون لهم الأضرار والمصائب التي سوف تنالهم والخطوب التي تكتسح ديارهم فيما إذا انصاعوا لدعايات المضللين... ولكن ما الحيلة وقد تفشت جرثومة التعصب في كل جارحة وخلجة ونادٍ ومجتمع تزدحم فيه هذه البهائم التي كانت تساق إلى حتفها بكامل رضاها، أجل ما الحيلة في إيجاد إذن تسمع لأولئك الأفاضل كيف كانوا يقررون الحقائق جلية والأرقام واضحة عما سيعقب هذه المغامرات من تنكيل في صفوفهم وانهيار جارف في أرواحهم وخسائر في أموالهم. فالخلق بأجمعه كان أشبه ببركان ثائر يقذف الحمم عن اليمين والشمال حتى أصاب سعيرها أولئك المتطوعين لدفع غوائل الموت عن أبناء دينهم وأوطانهم. فصلب المدعو (داف ليج) في ساحة من ساحات (مونيخ) وأحرق سوند وهو زميل له أيضاً في بلدة (إكس

[٨] في كتاب الحروب الصليبية ذاته للمؤرخ الفرنسي الشهير (بورجيه) ذكر لأسماء بعض هؤلاء البارزي الفهم والتفكير بينهم هولندي اسمه (نيقولاي سوند) وكان يحترف بيع الكتب ويعتبر من أفضل ذلك العصر. وآخر من بلغاريا صاحب مدرسة لتعليم الأطفال ويدعى (دينز راب هوستاف)

لاشابل) أمام أنظار الألوف من الخلق وهم فرحون بما جنت أيديهم على من كان لا يريد للبشر إلا الخير ولا لبلداته وأهلها إلا النجاة من الكوارث التي كانت تهددهم من وراء الزحف على الشرق. أما بقية هؤلاء الأماثل فقد اختفت شخصياتهم ولم يعثر المؤرخون على أثر لهم وعما أصابهم من غضب الشعب ونقمته، ويقدرون أنهم قطعوا وصلبوا واحرقوا أسوة بأمثالهم لأن هذا المصير كان يتنظرهم حتماً. وكيف لا والمطاردون لهم هم الجمع الزاخر من عناصر الضلال ورجال الحكومة وطبيعة البيئة يومئذ...

واسمع بعد ذلك ماذا جرى في أوربا بعد فشل هذه الحملات الصليبية الطائشة من تمجيد لذكرى هؤلاء الشهداء الذين انبروا قبل أن تبدأ هذه الحملات يعددون بكل شجاعة وجرأة أضرارها وويلاتها. فقد أقيمت الأنصاب والتماثيل الضخمة لهؤلاء العباقرة في أكثر من ميدان بكل مدينة كبيرة بألمانيا وهولندا وفرنسا والدنمرك، وإلى اليوم يوجد في بلدة (سوفن) الهولندية نصب للمدعو (نيقولاي سوند) تحج إليه النساء اللواتي ينحدرن من أصلاب المغامرين الذين سبق أن ذهبوا ضحايا المغامرات الصليبية. وفوق ذلك فقد راحت الأمهات تسمي المواليد التي ينجبنها بعد أن هدأت ثورة هذه الحملات بأسماء (نيقولاي) و(دينج) و(داف ليج) الذين كانوا أبطال تلك الحملة السلبية النبيلة ضد الفورة الصليبية تبركاً وإحياءً لذكراهم.

الباب الثالث

ظهور الدعوى في آسيا للتبشير بالمسيحية

قلنا فيما سبق أن بعض هؤلاء الذين قاوموا الحملات الصليبية اختفت شخصياتهم ولم يعثر المؤرخون لهم على أثر. ولكن ظهر بعد ذلك أن فريقاً منهم فرّوا من وجه الصخب المثار من حولهم في معظم أرجاء أوربا ورحلوا إلى آسيا ونزلوا في بلاد (المغول) – أي الأتراك القدماء – طمعاً في التبشير بالطرق السليمة اللينة وإدخال الديانة المسيحية على هذه البلاد التي كانت شعوبها آنيذٍ تعبد الأوثان والحيوانات والأنهر والشمس والقمر. وها نحن نأتي على تفاصيل مساعيهم في تلك الأمصار النائية وكيف انتهت جهودهم في هذا السبيل أيضاً بالفشل المريع نقلاً عن المؤرخ الإيطالي (مار كوبولو) في كتابه المدعو (Uberture del pére Acant**a**) أي (فتوحات الأب أجانتا) في بلاد المغول وقد استهل البحث في وصف هذه العشيرة التركية القديمة مع نبذة عن تاريخ ظهورها وبيان أصلها وزعمائها وطراز حياتها وما إلى ذلك من دقيق الوصف المفيد والمجهول لدى الكثيرين فقال:

[إن عشيرة المغول هي فرع من القبائل التركية السارحة في صحاري آسيا الفسيحة، ومن السلالة الصفراء التي تنتمي إليها معظم شعوب آسيا كالصين واليابان والملايو وجزر الهند وكوريا وشمال الهند. ولم يكن لهذه العشيرة أقل شهرة و أدنى مكانة سياسية قبل ظهور أحد أبطالها المشهورين (جنكيز خان) الذي ترعرع بين أحضان قبائل الـ (جونغار) التركية حيث تمكن بعد ذلك من لمّ أطرافها وجمع رجالها وتكوين جيش لجب منهم وكلهم من المحاربين الأشداء، ثم

أخذ يكتسح البلاد ويفتح الأمصار ويخضعها لسلطان حكمه الجبار وكان هدفه الرئيسي الممالك التي دخلت تحت نفوذ الدول الإسلامية. وصادف من حسن حظ هذا الفاتح المغامر أن كانت تلك الدول تعاني وقتئذٍ أزمات داخلية شديدة وفي طليعتها التفكك والخلاف السائد بين ملوكها وزعمائها. وكان أدهى هذه الأزمات النزاع الشديد القائم بين الخليفة العباسي المتوكل ونائبه في الديار الأسيوية (محمد خوارزم شاه). وقد أيدت بعض المستندات التاريخية (وهذه الرواية ضعيفة على ما نعتقد) أن الخليفة كان عاجزاً عن تأديب السلطان (خوارزم) فاستعان عليه (بجنكيز خان) الزعيم المغولي المشهور الذي أخذ نفوذه يتسع ونجمه يلمع في آفاق الشرق. فهاجم هذا بلاد محمد خوارزم شاه، وجرت على أثر ذلك معارك دامية انتهت بفوز جنكيز الذي أزهق أرواح الألوف المؤلفة من أتباع خوارزم وهدم المدن ودك الأمصار بدون رحمة حتى أن الذين كانوا يستسلمون إليه لا ينجو معظمهم من القتل والتشويه!! وهكذا داهمت بلاد أواسط آسيا الإسلامية العامرة المتمدنة وقتئذٍ كالهند وإيران وأفغانستان موجة من التهديم والتخريب على أيدي هؤلاء المغوليين المتوحشين لم يذكر التاريخ لها مثيلاً...] وبعد هذا يتابع المؤرخ (ماركو بولو) أبحاثه ودراساته المتعلقة بأعمال جنكيز خان وفظائعه فيقول:

[إن هذا الجبار الداهية كان بجانب ما عرف عنه من جبروت وظلم وعبقرية في الفضون العسكرية ذا دهاء واسع في الشئون الإدارية والسياسية مما لا يضارعه فيهما مضارع. فنزع إلى ابتداع فكرة قومية بارعة وقام يدعو العناصر والعشائر التركية في جميع أرجاء آسيا إلى الانضمام تحت لوائه لتأسيس إمبراطورية تركية واسعة الأطراف قوية البنيان ناصباً نفسه زعيماً وسلطاناً لا يقهر على هذه العناصر القوية الشديدة. فصادفت دعواته آذاناً صاغية

وانضمت تحت لوائه الملايين الغفيرة من الشعوب الصفراء من تركية وغير تركية وراح يهاجم بها بلاد العرب من الجنوب وبعض أطراف أوربا من الشمال ويستولي على العروش ويدكها دكاً ويفتك بالأرواح مما يعرفه كل مطلع على تاريخ هذا الطاغية العظيم] ثم يقول:

[وصادف أن معظم الأتراك الذين انضموا إلى صفوف هذا الرجل كانوا يدينون بالإسلام ويرتبطون بهذا الدين ارتباطاً وثيقاً، فابتعد جنكيز خان بدهاء غريب عن مس عقيدة هؤلاء، ولم يجعل لسلطانه أية صبغة دينية كما أنه لم يظهر أقل بادرة تنم عن ميله إلى الإسلام والتحامل عليه... حتى ولم يبدر منه أقل عطف على دين من الأديان. فرغب أن يظل قومياً وملحداً على أن يدخل جرثومة النعرات الدينية الممضة مشاريعه الإدارية والسياسية البارعة، تاركاً لكل فرد أن يتمذهب بالدين الذي يرغب فيه. ولهذا كان بين قواده المعروفين عدد كبير من المسلمين حتى والمسيحيين أيضاً بجانب فريق آخر من القادة والوزراء البوذيين والبرهميين] أ هـ.

فبجانب هذا الطبع الحيادي القوي الذي كان يتحلى به (جنكيز خان) يبدأ دور المبشرين بالمسيحية الذين أطلعوا على ميول جنكيز هذه وما تلاها من الغارات التي قام بها على البلدان الإسلامية والفظائع التي ارتكبها فيها فسولت لهم النفس أن يستجروا هذا الجبار، وبالتالي عشائر المغول كلها إلى الدخول في الدين المسيحي عقيدة منهم أنه ما شن حملته المريعة على الديار العربية إلا لأنه ينفر من الدين الإسلامي ومن الشعوب المنتمية إليه. فقام بادئ ذي بدء البابا (غريغوار التاسع) بإرسال هيئة من رجال الدين ومعظمهم من الزمر التي كانت هي وأسلافها تناهض الحروب الصليبية والتي لجأت إلى حمى البابا من تهجم واضطهاد الشعوب الأوربية (كما أوضحنا في ذلك في مطلع هذا الكتاب)

وأشهر هؤلاء الرهبان (جان ده يلان) و(دوقارين) و(بنوا) البولوني، فوصلوا إلى مقر (جنكيز خان) الذي كان آنئذٍ مريضاً وشيخاً هرماً وتظاهروا بأنهم جاءوا ليحضروا تتويج الإمبراطور (أرغون) الذي سيخلفه بسبب تنازله له عن الملك.

وكانت (الشومانية Chamanizme) هي العقيدة السائدة وقتئذٍ بين الأقوام المغولية وتنقسم إلى فرعين علوية وسفلية. فالعلوية هي الاعتقاد بوجود رب وهو السماء بما فيها من شموس وأقمار ونجوم. أما السفلية فترمي إلى تأليه الأشجار والأنهار واصطناع صنم من تلكم الأشجار وإلباسه ثوباً مصنوعاً من صوف الذئب الأبيض يعلقونه في صدر بيوتهم، فيسجدون له ويركعون ويمسحون على فمه بالحليب كل صباح ومساء إشارة إلى إطعامه حتى لا يجوع على حد زعمهم!! والغريب أنهم يعتقدون بجانب هذا الضلال بالبعث بعد الموت. وكانت طبقة الرهبان عندهم تسمى (قامس Cames) تعني بالسحر والطبابة القائمة على كل غريب من ضروب الشعوذة فيرجع إليهم المرضى والمشوهون للتداوي وحمل التعاويذ الغريبة الطلاسم والرموز. ويحمل كل راهب طبلاً ليدق عليه ويعربد بأصوات متوحشة مدعياً بأنه يستجلب بهذا القرع المخيف ملوك الجن لأجل أن تعاونه على شفاء المريض وكشف الأسرار واستخراج الكنوز ومعرفة الغيب وما إلى ذلك من الخرافات العجيبة. ويظل (القامس) يقرع في الطبل حتى يتولاه نوع من التهيج ويتظاهر بالغيبوبة الكاذبة ثم يأخذ بقضاء الحاجات حسب الطلب المساق إليه من المراجعين الذين يعتقدون في هؤلاء الصدق والولاية والتنزه عن الخطأ...

ومن البديهي أن هذه الخرافات التي كانت منتشرة بين المغوليين لن تدوم تجاه ضغط دعاة التبشير بالأديان السماوية. وهذا ما حمل البابا (غريغوريوس) على إرسال الوفد الملمع إليه آنفاً من الرهبان لحمل هذه العشائر الضليلة على

الدخول في الدين المسيحي. ولكن وفود المبشرين لم تكن منحصرة بهؤلاء الرهبان فقط، فقد كانت الوفود تترى من الهند ومن جزيرة العرب حيث تمثل كل منهما الدعوة للبوذية والإسلام، وحتى اليهود أنفسهم أرادوا القيام بقسط وافر للدعاية إلى المذهب الإسرائيلي، وكان يمثلهم طبيب ماهر يدعى (إبراهام) وهو على جانب كبير من الدهاء والظرف والكياسة فتوصل بفضل مواهبه هذه إلى اعتلاء كرسي رئاسة الوزراء في عهد الإمبراطور (أرغون) وذلك عام ١٢٨٤ م. وكان يطلق على الذين يرتفعون إلى هذه المقام لقب (سعد الدولة) – بلفظه العربي – كلقب الصدر الأعظم مثلاً على عهد ملوك بني عثمان. وبقي هذا الداهية متربعاً على كرسي الرئاسة إلى عام ١٢٩٠ م أي سبع سنوات متواصلة قضى اليهود الذين زحفوا إلى بلاد المغول خلالها عهداً مشبعاً بالرفاء ونفوذ الكلمة وجمع الثروات الطائلة، إذ كانوا يستمدون الحماية والزلفى في جميع أعمالهم النفعية الخسيسة كالصيرفة والسمسرة والاتصالات السفلية من هذا الرئيس اليهودي (سعد الدولة) الذي كان حائزاً على رضا الإمبراطور أرغون وثقته العمياء، لأنه كان كما روى المؤرخ (مار كوبولو Marcopolo) متحلياً بصفات ممتازة وخصال طيبة كالذكاء المفرط ولين العريكة وسعة المدارك. فنظم شئون الدولة المالية والإدارية وطهر الدواوين من نصوص الموظفين، ومالأ رجال الجيش وأحسن علاقته معهم ونضد صفوفهم ورفه أحوالهم المادية حيث أغدق عليهم الجرايات والرواتب الضخمة. وكان يجمع إليه حيناً بعد آخر العلماء والشعراء ويجيزهم بالهدايا والعطايا، وهكذا اتسع نفوذ هذا الرجل الفذ وأصبح موضع احترام جميع الطبقات ومحبتهم.

ولما كان لكل جوادٍ كبوة، فقد أصاب هذا الوزير ما أصاب غيره من دهاة الرجال الذين كثيراً ما يصطدمون بعثرة تلفظ معها رواحلهم في أحافيرها،

أو هفوة يستشري معها الخطب فتحيق بهم من جرائها الحاقة وينهار عزهم وسلطانهم بين عشية وضحاها. وهذا ما توقع للوزير (إبراهام) يوم فكر في بث الدعوة لنشر الديانة الإسرائيلية في ديار المغول وجعلها دين الدولة الرسمي أسوة بالدعايات الكثيرة التي كان يقوم بها المسلمون والمسيحيون والبوذيون. فكان أن استرعت هذه الدعاية أنظار بقية وفود المذاهب التبشيرية المختلفة.

فبدأت في أول الأمر حملة المسلمين على (سعد الدولة) وأتباعه، وذلك إثر شائعة شاعت في أوساط بلاد المغول بأن هذا الوزير اليهودي أشار على الإمبراطور أرغون بأن يهاجم الكعبة المطهرة ويهدمها ويبني مكانها داراً للصناعة. ورغماً عن ضعف السند الذي عُزيت إليه هذه الشائعة فقد كان لها تأثير النار في الهشيم. فقام أحد قواد (أرغون) المسلمين ويدعى (نواز) وترأس جيشاً لجباً من الجنود الأقوياء وهاجم بهم سراي الإمبراطور الذي كان آنئذٍ مريضاً وطلب إليه بإنذار قاطع أن يسلمه (سعد الدولة) ومن التف حوله من الموظفين اليهود الذين عمّت رشواتهم وموبقاتهم ديار المغول بأسرها. وكان سعد المذكور يدرك بثاقب تفكيره وبعد نظره أنه هالك لا محالة. فحاول أن يفر بطريقة خفية من السراي، ولكن القائد (نواز) احتاط للأمر وتمكن من القبض عليه وصلبه في إحدى ساحات البلدة، وراح يعمل بعدها على استئصال شأفة اليهود الطغاة ويمحو أثرهم من جميع بلاد المغول ويطهرها من شرورهم. وهكذا ذهبت مع الريح جميع المساعي التي بذلها سعد الدولة وأتباعه في سبيل تهويد المغوليين مدة سبع سنوات متواصلة.

وكان من جراء هذا الفوز الذي أحرزه القائد (نواز) المسلم أن أخذت العناصر البارزة من المغوليين ولاسيما زعماء القبائل التي لم تصل إليها فضائح اليهود ونفوذ زعيمهم سعد الدولة تظهر ميلاً ملحاً نحو اعتناق الدين الإسلامي

نظراً للمبادئ والتعاليم السامية التي يتحلى بها. وصادف أن الإمبراطور كان يرغب في نفس الوقت بإقامة أحد الطقوس الدينية في الأعياد والاستقبالات الرسمية أسوة بما كان يجري لدى بلاط كل من إمبراطور الصين وملوك الهند وأمرائها. وكانت الوفود المسيحية والبوذية تبذل بجانبه الإسلام كل ما في وسعها لدى البلاط المغولي ورؤساء العشائر النافذة الكلمة لتحويل اتجاه الرأي العام إلى الدين الذي يناضل كل منهما في سبيله. وكان هناك ميل واسع أيضاً إلى اعتناق المسيحية واتخاذها ديناً رسمياً للدولة المغولية، سببه أن جنكيز خان عندما هاجم الشرق واقتحم البلدان الإسلامية قام المسيحيون المقيمون في تلكم البلاد يظهرون حفاوة كبرى بجنكيز خان وقواده لاعتقادهم بأنه كان عدواً للإسلام. ولما بدأت الوفود المسيحية تصل إلى ديار المغول تباعاً أي بعد أن انتهت غارات جنكيز وعودته إلى بلاده احتفى المغوليون بهم وقربوهم إليهم. فأخذت الدعوة إلى المسيحية تنتشر وتتسع إلى أن جلس على العرش المغولي (قويوق خان الكبير) وكان سكيراً وشهوانياً فلم يلتفت إلى شئون الدولة، بل تركها بين يدي وزيرين مسيحيين من وزرائه أحدهما يدعى (مارتل) وهو فرنسي والثاني (اسكندر) – وكان عربياً من رهبان بيت لحم – أما أطباؤه فكانوا أيضاً أربعة من المسيحيين أحدهم من الأناضول ويدعى (شان) وهو أرمني والثاني من سوريا واسمه (الكاملي) والثالث من بغداد ويدعى (عبد الله) والرابع من روسيا ويكنى بـ (كشيش) فأجمع هؤلاء على تقوية الدعاية المسيحية ودعم أركانها ومقوماتها بالوسائل العملية. فأقاموا في أول الأمر كنيسة بالقرب من سراي الخان وراح الرهبان يرتلون الصلوات ويقيمون المراسيم الدينية على مسمع منه ليلاً ونهاراً حتى تؤثر هذه الترانيم الروحية في شواعره الضالة في عالم الشهوات وتتسرب منه إلى بقية أفراد الشعب. ومما يلفت النظر هنا أن رواتب هؤلاء الرهبان الذين

نصبوا لخدمة هذه الكنيسة كانت تدفع من خزينة (قويوق خان) الخاصة. وقد ساد الاعتقاد وقتئذ بأن هذا الإمبراطور سوف يعتنق المسيحية لا محالة. حتى أن الكثيرين استغربوا من التمهل الذي يظهره هذا الطود نحو البت في إقرار العقيدة العامة للبلاد وإعلانه الديانة المسيحية المذهب الرسمي له ولشعبه.

وقد حاولت الكثيرات من النساء النافذات الكلمة التأثير والضغط على (قويوق خان) لاتخاذ النصرانية مذهباً رسمياً للمغوليين، لأن أكثرهن كان قد تنصر على أيدي الرهبان الذين اتسع نفوذهم في القصور ودور زعماء العشائر وفي مقدمتهن الإمبراطورة (شان) زوجة جنكيز خان التي أسست كنيسة خاصة لها في قصرها العظيم، وأخذت تقيم فيه الشعائر الدينية كل يوم بحضور الكثيرات من نساء الأشراف والزعماء، الأمر الذي جعل العالم الأوربي المسيحي وقتئذ يعتقد بأن دولة المغول الواسعة القوية والمتحكمة في معظم بلدان آسيا كالصين والهند وإيران والأفغان وغيرها ستعتنق الديانة النصرانية لا محالة.

وعندما اجتمع مجلس الكرادلة في مدينة (ليون) عام ١٣٤٥ م تحت رئاسة البابا (إينوسان الرابع) قرر تقوية البعثات الدينية إلى بلاد المغول. وبالفعل انتخب البابا المشار إليه الراهبين (سازار) و(غوليس) وأرفقهما برسالة دينية إلى الإمبراطور قويوق خان. ولما وصلوا إلى إيران قابلهما رجال الدولة والقواد ببرود ظاهر. حتى أن الطعام الذي كان يقدم إليهما بلغ من القلة جداً جعلهما على طول الزمن يتضوران جوعاً والسبب الرئيسي لهذا الجفاء يرجع إلى مظاهر الغطرسة والكبرياء اللتين كان يتظاهر بهما ذانك الراهبان تجاه الأهالي حتى أن أحد القواد المغوليين الذين كانوا يتحكمون بمقدرات إيران استدعى إليه في إحدى الليالي أحد هذين الراهبين وهو (غوليس) وكان كثير العجرفة ويعتقد في نفسه أنه مبعوث من عند الله وتفل في وجهه عقب مشادة عنيفة لم يستطع أن

يستعمل الراهب فيها آداب المخاطبة وحسن المعاشرة ثم خاطبه قائلاً:

– أيها الكلب، أبهذه الطرق المعوجة والمملوءة كبرياءً وغروراً فارغين جئت تنشر بيننا دينك أهكذا أمرك المسيح أن تفعل أم هي تعليمات البابا إليك بأن تنظر إلينا كنعاج تساق بالسوط؟؟

ثم أمر بتحري جيوبه فوجد فيها تعليمات وأوامر شديدة اللهجة من البابا أينوسان كتبت على طراز الأساليب التي كان أسلافه من باباوات القرون الغابرة يستعملونها تجاه الشعوب الأوربية الجاهلة حيث تنم عن روح التأمر والتسلط يحاول أن يسوقهما قداسته إلى الشعوب الأسيوية الوثنية القوية الشكيمة. فأمر بطرده مع رفيقه (سازار) من البلاد، ولم يعد يعثر لهما بعد ذلك على أثر.

وقد تكرر إرسال البعثات الدينية المسيحية من أوربا إلى آسيا عدة مرار. ولكن معظم المغوليين كانوا يظهرون الشيء الكثير من التردد في الدخول بالنصرانية. ويُروى عن لسان أحد الرهبان أنه قال في حضور البابا:

– [إنني لم أر قوماً أشد ذكاءً ودهاءً من الشعوب المغولية. وما لم يهبني الله معجزات (موسى) و(عيسى) لن أستطيع تنصير إمبراطور المغول والعناصر التابعة له، حتى أن البعثات الدينية الإسلامية والبوذية تعتقد مثلي نفس هذا الاعتقاد. والسبب الرئيسي في هذا كله أن عقيدة (الشامانيزم) أي الاعتقاد بالسحر والخرافات كانت منتشرة بين الأقوام المغولية انتشاراً هائلاً. لهذا يتعذر اقتلاع هذه المعتقدات السخيفة من عقولهم بسبب انتقالها إليهم أباً عن جد منذ عهد بعيد وأدوار عريقة في القدم. يضاف إلى هذا أن روح السخرية من الأديان السماوية كانت تسيطر على عقلية الأباطرة والكهنة والقواد وزعماء العشائر المغولية].

وبالفعل فقد اختلط على هذا القوم معرفة الحقيقة أو الدين الحقيقي من بين الدعايات الدينية الكثيرة التي كانت تنتشر في أوساطهم. وقد خرج عن طوقهم الركون إلى صحة دين من هذه الأديان فعمّت روح الاستهزاء وفوضى العقيدة في كل مكان. ورغماً عن ذلك فقد كان المغوليون يعملون دائماً بوصية (جنكيز خان) الذي أمر قبل وفاته بلزوم احترام كافة الأديان. حتى أن أحد ملوكهم المدعو (مانغو خان) كان يحضر الطقوس الدينية التي يقيمها المسيحيون في كنائسهم والمسلمون في مساجدهم والبوذيون في معابدهم الخاصة، ويغدق على هذه البيوت الدينية والقائمين على خدمتها بالكثير من الهدايا والأموال، وكان يبعث بأوامره إلى وزرائه ورجال حاشيته بأنهم أحرار في أن يعبدوا الله كما يرغبون وحسبما يشتهون.

وظل الحال على هذه الشاكلة، أي أن روح الفوضى من وجهة العقيدة بقيت مسيطرة على أرجاء آسيا التي كان المغوليون يتحكمون بمقدرات شعوبها رغماً عن وسعة انتشار الديانة المسيحية فيها حتى جلس على كرسي العرش المغولي الإمبراطور (قبلاي). فكان أول عمل قام به بعد توليته أن أخذ يدرس تعاليم الأديان الثلاثة الإسلامية والمسيحية والبوذية. وبعد تدقيق ومشاورات عميقة مديدة مع أركان دولته اختار الديانة البوذية ديناً رسمياً له ولرجال حاشيته وأتباعه. وكانت وجهة هذا الرهط الجبار سياسية أكثر منها روحية أو اعتقاديه لأنه وجد جميع الأوساط والدول المجاورة له تدين بالبوذية. فاضطر إن ينسج على منوالها استجلاباً لمودتها وارتباطها بعرشه من جهة، وتوطيداً من جهة أخرى لحسن الحلاقات بينه وبين الشعوب الأسيوية الوثنية المذهب ومع ذلك فقد نهج على طريقة أسلافه في منح كل فرد من أفراد شعبه أن يتقلد العقيدة التي يريدها ويعبد الله كما يشاء. ولذلك وجد بين وزرائه ورجال حاشيته وعمال الدواوين في

عاصمة ملكه عدد غير قليل ممن كانوا يدينون بالإسلامية والنصرانية. وكان معروفاً عنه أنه كلما قُدم إليه القرآن أو الإنجيل قبلهما وأمر بحرق البخور لتكريمهما [وهذه طريقة خاصة بالبوذيين في تعظيم كتبهم الدينية]. ويعتقد فوق هذا كله أن هنالك أربعة أنبياء لا غير وهم موسى وعيسى ومحمد و(سومونيقار كودوم سكياموني Sommunicar Codum Secuamoni) وهو أحد آلهة للبوذيين.

ولا تذكر التواريخ أن أمة من الأمم بلبلتها النزعات الدينية مثلما بلبلت الشعب المغولي وشوشت أموره السياسية والدينية وأن كثرة العناصر والأقوام الداخلة تحت سيطرته وسلطانه جعلت هذه الإمبراطورية عبارة عن خليط عجيب من الأقوام البشرية (Cozmopolite) المختلفة الأديان والأهواء والعادات، مما اضطر معه حكام الدولة أن يتخذوا السياسة منجعاً ووسيلة لمداراة العقائد العامة. وكيف لا يفعلون ذلك وقد رأينا سلطانهم يمتد من أقاصي بلاد الصين إلى أن يشمل أطراف آسيا الشرقية والوسطى بما في ذلك الهند ومنشوريا وإيران والأفغان حتى يتصل بآسيا الغربية فيتكئ على بلاد دجلة والفرات. وقد أحصى المؤرخ (ده غوات) عدد هذه الملل والدول والأقوام التي تخفق فوق ديارها راية المغوليين بـ (٣٢) دولة أو ملة...!!

ويقول (ابن بطوطة) الشهير أنه في ارتياده معظم بلدان آسيا شاهد عظمة دولة المغول بأم عينه ورأى كيف أن الكثيرين من القواد والوزراء كانوا خليطاً من المسلمين والمسيحيين والبوذيين. ولكنه نفى وجود المسيحية في الصين. وقدر عدد المسلمين في مملكة ابن السماء بأربعين مليوناً، وأن مساجدهم يربو عددها على الأربعين ألفاً. [وأن جاههم موفور، وجانبهم موقور وحالهم ميسور..] ومما قاله أيضاً أن لانتشار الدين الإسلامي في هذه البلاد سبباً آخر وهو أنهم كانوا

يجمعون الأطفال واليتامى من أبناء الأزقة وينشئونهم على التربية والعقيدة الإسلاميتين.

وعندما جلس الإمبراطور (ناجدار أوغل) على العرش المغولي عام ١٢٨٢ م اعتقد القوم بأنه سيستبدل الديانة البوذية بالمسيحية لأنه عندما كان ولياً للعهد عمده أحد الرهبان المقربين من والدته (سهاخان) المسيحية وسمي (نقولا). ولكن هذا الاعتقاد بطل عندما اطلع الناس على المنشور الإمبراطوري الذي بعث به إلى وكيله في بغداد وهذا نصه:

يا أهل بغداد

[لقد جلست على عرش أجدادي فخذوا علماً أننا معاشر المغوليين مسلمون، وأن حقوقكم الموروثة من عهد العباسيين ستظل محترمة مقدسة. وقد أمرت بأن ترد إلى الشعب العراقي جميع التكايا والمدارس والمؤسسات الدينية والشخصية التي كانت ملكاً لهم واغتصبها عمال ووكلاء أجدادي. وبلغت نائبي لديكم أن يمشي في جميع أحكامه على مقتضى تعاليم الشرع الإسلامي، لأن محمداً صلى الله عليه وسلم بشرنا بالقرآن الكريم أن الدين الإسلامي سيظل قائماً وسائداً إلى يوم القيامة، ولنا ملء الاعتقاد بذلك. فالحمد الله الواحد الأبدي الذي هدانا لهذا والسلام عليكم.]

الخان الأعظم ملك ملوك آسيا

تاجدار أوغل

ووزع منشوراً ثانياً على المقاطعات الأربع التي تتكون منها إمبراطوريته، وهي: عربستان وعجمستان وهندستان وتركستان أعلن فيه أنه قد جعل اسمه (السلطان أحمد الأول). فكان هذا التطور المفاجئ سبباً رئيسياً في إقبال الأهالي

على اعتناق الدين الإسلامي. ومن هنا يبدأ تمركز الإسلام تمركزاً نهائياً في بلاد المغول، والإعراض عن باقي الأديان التي أخذ ظلها يتقلص رويداً رويداً عن هذه الديار.

وقد اختلف المؤرخون بمصير النصرانية في هذه البلاد. فالعالم البلجيكي (دوزي Duzis) يقول بأن عدداً وفيراً من أقرباء السلطان ووزرائه بقوا يحتفظون بدينهم المسيحي ومن ورائهم أتباع وأنصار لا يستهان بهم وبمركزهم السياسي والمالي. ولكن مؤرخاً أرمنياً يدعى (جادروان) يقول بأن السلطان أحمد أمر بهدم المعابد الوثنية والمسيحية وإقامة المساجد الإسلامية مكانها.

وعندما تولى ابنه العرش ويدعى (غازان) كان المغوليون قد انقسموا إلى جبهتين. فالجبهة الشرقية وتشمل مغولي الصين راحت تتمسك بالعقيدة الصنمية كالشامانية والبوذية والكنفوشيوسية رغم كل الوسائل التي لجأ إليها السلطان. أما الجبهة الغربية وهي مكونة من بلاد إيران ومعظم بلاد العرب فكانت تدين بالإسلام. ثم هاجم (غازان) المشار إليه بلاد الجبهة الأولى وحملهم على قبول الديانة المحمدية، فأصبح المغوليون بأجمعهم والتابعون لهم يدينون بدين الإسلام. وإنما كانت ميولهم تتراوح بين السنة والشيعية. وما برحت كذلك حتى تمركزت الشيعية ببلاد إيران والهند وبعض جهات العراق وانتشر المذهب السني في بقية الممالك الأسيوية التي أصبحت بعد ذلك من مخلفات العهد المغولي العظيم أي بعد مرور ٧٢ عاماً من وفاة الإمبراطور (غازان) عام ٧١٤ هـ. وهذا هو سبب وجود ٥٠ مليون صيني مغولي يدينون اليوم بالإسلام بينما لم يكن عددهم في أوائل الفتح الإسلامي يتجاوز البضعة آلاف فرحم الله غازان وغمر ثراه بوابل رحمته وغفرانه.

الفصل الرابع

تطور الحالة الذهنية والاجتماعية في أوربا بعد الحروب الصليبية

ظهر من سياق الوقائع التي أوردناها في الفصل السابق أن الديانة المسيحية لم يسعفها الحظ في آسيا وينالها ذلك النصيب العظيم في الانتشار الذي أحرزته في أوربا، لأن الرسل الذين قاموا بهذه المهمة في القارة الأسيوية لم يكونوا على شيء من العلم والحصافة وفوق ذلك كانوا يجهلون عادات ولغات الأقوام الهندية والمغولية والفارسية وما يلحق بها من العناصر الصفراء التي تقطن صحاري الصين ومنشوريا وجزر الهند. فأصابهم ذلك الفشل الذي كانوا معرضين حتماً للوقوع فيه للأسباب المتقدمة أولاً ولقوة وحسن تنظيم الدعاية الإسلامية ثانياً في تلكم الأصقاع النائية. وأنت تدري بأن أوربا لم تستطع أن تقدم للأسيويين في ذلك الحين القصي شيئاً من روح الفلسفة العملية والإقناع العلمي لتقوية روح العقيدة المسيحية في الأقوام الأسيوية كما فعل الدعاة في أوربا عندما جاؤا إليها بتعاليم الإنجيل الدينية والتزهدية مما أدى إلى انتشار المسيحية فيها بسرعة البرق وشملت المقاطعات والعناصر الأوربية. وسبب ذلك جهل رجال البعثات ما تطلبه الدعاية التي كانوا يقومون بها من الاضطلاع بالعلوم اللاهوتية العالية وفلسفتها المعقدة العميقة. فوفود البابا الذين رحلوا في مهمة التبشير إلى آسيا كانوا من جهة على جانب غير قليل من الجهل والفظاظة التي كانت طبعاً غير مفارق للأخلاق العامة آنئذٍ في أوربا. ثم لم يتزودوا فوق هذا بترجمة الإنجيل الشريف إلى لغات الأقوام التي هبطوا في ديارها. ولم يتدارسوا مختلف الأديان البوذية والبرهمية والإسلامية ليناظروا عند مسيس الحاجة

ارهاطها بما يعتقدون أن في ديانتهم ما هو أصلح وأقوم، بل كانوا يجهلون كل ذلك جهلاً مطبقاً يقابله:

أولاً – فلسفة القرآن الكريم والشريعة الفذة التي أوجدها واستن لها أقوم التعاليم وأرشدها.

ثانياً – رواد بث هذه التعاليم الإسلامية القوية وكلهم من أكابر العلماء والأفاضل الذين كانوا يعرفون لغات أهل البلاد التي يقصدونها وعاداتهم ومصطلحات عقائدهم الوثنية الضعيفة الأركان والمساند، ويعرفون أيضاً الطرق التي يجب السلوك إليها لمكافحة هذه العقائد وتحويلها إلى الأيمان بوحدة الله وصحة الدين الإسلامي.

ثالثاً – أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم المتضمنة أسمى التوجيهات الأخلاقية والاجتماعية والدينية.

رابعاً – الفلسفة البوذية الواسعة الغور في تعاليمها التصوفية العميقة والتي تحلق في أجواء روحية غامضة يجد فيها المنتمون إليها أنها الدين الأوحد الذي يجب أن يتعلقوا بأذيال تعاليمه العريقة في القدم.

خامساً – وجود علماء وكهنة من البوذيين يجدر بنا تسميتهم بحق أنهم من أكابر الفلاسفة المعاصرين لذلك العهد الذي سعت فيه أوربا لنشر ديانتها بين ظهرانيهم أمثال [سيراماز] الهندي صاحب النظرية الفلسفية البوذية القائلة بأن [العدم طارئ كاذب] وكـ [جهار فارمن] موجد ومبدع (الفقيرية Fakirizme) المستنبط من مبدأ (استحالة العدم)[٩].

---

٩ راجع كتاب (مذهبا التقمص والخلود) للمرحوم فارس الشدياق وفيه بحوث دقيقة عن أسماء فلاسفة الهند الأقدمين ونظرياتهم التصوفية وخاصة فلسفة (استحالة الانعدام) الذي انبعث منها مذهب (الفقيرية).

فتجاه هذا البحر الخضم من الآراء الفلسفية البارزة والتعاليم الدينية القوية الأركان وخاصة الإسلامية منها لم يستطع رجال البعثات البابوية أن يدخلوا شيئاً من تعاليم الديانة المسيحية في آسيا، إلا بين طبقات خاصة ما لبثت حتى تحولت عنها لا كرهاً بالتعاليم النصرانية الطيبة، وإنما لضعف الدعاية والداعين لها وعجزهم عن بز أقطاب ودعاة الأديان الأخرى وجهلهم لغات البلاد وجغرافيتها، حتى وعدم اطلاعهم على التعاليم العالية للديانة المسيحية نفسها[10].

ويقول (دوزي) الباحثة البلجيكي أن كل ما استطاعت الوفود البابوية أن تفيده في رحلاتها المتكررة إلى آسيا هو أن اقتبس بعض الأفاضل، وأشهرهم (هنري بورمن **Henrie Burmen**) البلجيكي جملة من الآراء الفلسفية التي تشايع مبدأ التثليث عند البراهمة الهنود (**Trimotis**) ذلك المبدأ الديني الذي يشبه من وجوده كثيرة فكرة التثليث المسيحية وأحضر معه عقب رجوعه إلى أوربا بعض الكتب التي تتراوح مضامينها بين علوم تتعلق بالفلك والتصوف وأخرى عن الصناعات الهندية وفلسفة أسرار الطبيعة وغيرها. وكان يصحبه في عودته بعض العلماء البرهميين الذين توهموا بأنهم وفِّقوا إلى إيجاد رابطة روحية بين المسيحية والبرهمية من شانها أن تمزج بين العقيدتين وتجعلهما مذهباً واحداً. ولكن هذه الرحلة لم تأت بالثمرة التي توخاها (بورمن) من جهة ورجال البعثة الهندية من جهة أخرى، وكل ما في الأمر أن المحافل البابوية تمكنت من حمل هؤلاء الهنود على ترجمة الكتب العلمية التي جيء بها من الهند وإيران إلى اللغة اللاتينية بعد أن تعلمها أولئك الآسيويون في فترة إقامتهم الطويلة بأوربا. فكان

---

[10] دوزي الراهب المستشرق في كتابه (المسيحية في آسيا) ص ٢٧.

هذا التأرجح في أحضان العقائد والدعايات سبباً في دخول بصيص من نور المعرفة على بعض أرجاء أوربا المظلمة.

أما التطورات الأساسية التي نقلت أوربا من غياهب الجهل والبداوة والانحطاط إلى مراقي التحضر والعمران فإن مصدرها الحقيقي يرجع إلى ثلاثة عوالم رئيسية وهي:

١- ظهور المدنية الإسلامية في الأندلس بأروع مظاهرها التمدنية المتكاملة، وتعدد البعثات الأوربية إلى جامعات (أشبيلية) و(غرناطة) لتلقف العلوم والصناعات الإسلامية العديدة.

٢- ما اقتبسه رجال الحملات الصليبية من الحضارة الإسلامية في سوريا ومصر والعراق.

٣- زحف سلاطين آل عثمان على أوربا في القرون الوسطى وفتحهم أمصاراً عديدة منها حتى وصلوا إلى (فيينا) عاصمة أوربا المركزية يومئذٍ مما سبب اقتباس الأوربيين عن هذه الحملة الشيء الكثير من الصناعات والفنون الإسلامية التي حملها الأتراك إليهم من مصدرها الرئيسي وهو بلاد العرب بالطبع.

فإتماماً لمواضيع كتابنا هذا عن الدراسات العلمية والتاريخية التي تولينا إثباتها في طياته الفسيحة سنبدأ بتحليل وشرح كل عامل من هذه العوامل الثلاثة على حدة وندعم بالبراهين التاريخية الثابتة وأقوال بعض علماء أوربا أنفسهم كيف أن المدنية الإسلامية كانت المهذب والمرشد الأكبر لتحضير أوربا ونقلها من بؤرة الجاهلية والوحشية اللتين كانت منغمسة فيهما إلى دنيا التمدن التي سادت في ربوعها بعد ذلك متطبعة بطابع حضارة العرب ومواهب العرب والعلوم الإسلامية وعلى الله الاتكال.

الباب الأول

تعدد البعثات الأوروبية إلى الأندلس لاقتباس مختلف العلوم والفنون والصناعات في جامعات قرطبة وأشبيلية وغرناطة وغيرها

كان العالم الأوروبي قبل ظهور الإسلام يتخبط في أفق مجهول مدلهم ومفعهم بغوائل الجهل والتردي. فإذا أردنا أن نصفه أو نستعر ألوانه النابية البالية لرأينا العجب العجاب!! إنه كان عصر بداوة وجاهلية تغمرهما كوارث كلها تنزع إلى البوار المحتم والاحتشاد في أغوار العدم. ولما من الله على العالمين بنور الإسلام، وقضى على العرب أن يحملوا رسالة التبشير به في كل فرجة ومنجع من أركان الأرض الفسيحة، كان الأماثل في بعض الفسيحة، كان الأمائل في بعض انحاء أوروبا– وعددهم يكاد لا يذكر – ينظرون إلى ذلك النور الساطع وهو يلمع من ارض المشرق نظرة إكبار وإعجاب ويتمنون لو أن خيوط هذا الفجر السعيد تومض في نفس الوقت بأرجاء بلادهم المدثرة بغمرة اللأواء والجاهلية.

نعم أن حضارة واسعة النفوذ والسلطان سادت قبل ظهور الإسلام بعض عصور أوروبا الغامضة وعمّت معجم أرجائها حتى وصلت إلى شمال اكنلترا ألا وهي المدينة الرومانية التي انبثقت في جنوبي أوروبا، إلا أنها كانت عبارة عن قوة جبارة تهدف إلى الفتح والاستعمار، وكانت تعني بالزخرفة والبناء والاستثمار والتجارة أكثر من عنايتها بالتمدين والتثقيف. وقد ذكر هذا المؤرخ الأفرنسي(سينية بوس) وأضاف عليه ما ترجمته.

(كان الرومانيون سواء في الشرق أو الغرب فاتحين مستعمرين لا يفكر أرهاطهم إلا بإقامة الأبنية الضخمة والملاعب الوسيعة لإظهار قوتهم وعظمتهم للأمم الواقعة تحت استعمارهم، ثم التحري عن منابع المياه لحفر الأقنية وتنظيم وسائل الري لأجل استثمار الأرض وجر المغانم الكثيرة لأنفسهم من وراء ذلك.

ولكن عندما نريد أن نبحث في النواحي الأخرى التي يجب أن تستفيد الشعوب المستعمرة منها كالترفيه الاجتماعي والارتقاء العلمي والأخلاقي فلا نجد لكل هذا سوى بعض الآثار التي تكاد لا تذكر، الأمر الذي أعطانا فكرة حاسمة بأن المدينة الرومانية ما كانت على طول عهدها إلا عبارة عن حضارة أيمت لأجل الرومان أنفسهم ولأجل أن توأد بيد الرومانيين أنفسهم.... فهي والحالة هذه ليست حضارة أممية عالمية، بل حضارة أنانية وغرور وخلاعة وطغيان وثني ترعرعت في أحضان غطرسة الأباطرة والقواد الرومان الجبابرة.....).

وثمة حضارة أخرى ظهرت في الجنوب الشرقي من أوروبا قبل انبثاق نور الهدى المحمدي، ألا وهي المدينة اليونانية. إلا أن هذه الحضارة أيضاً لم تكن إلا عبارة عن جامعة يونانية تلقن الشعب الإغريقي العلوم الفلسفية التي تحتاج إلى أدمغة مؤهلة من قبل لتلقفها وتفهم مراميها، ولذا عجزت عن أن تصل إلى أوساط أوروبا كما عجزت شعوب هذه القارة الجاهلة عن اهتضام ألوانها المهذبة الراقية وإدراك مضامينها العرفانية الواسعة، فكانت والحالة هذه أشبه بقول من قال:

يا قاري العلم بين الجاهلين خطا   كواقد الشمع في قاعات عميان

قال اليونانيون مثلا عن طريق الفن المنطقي (إذا كانت الشمس طالعة

فالنهار موجود) ومرادهم من ذلك تثبيت الحس بالحقيقة العلمية المنطقية. فهز الأوربيون يوم ظهور أمثال هذه النظريات الفلسفية أكتافهم وراحوا يملئون الأجواء هزء أو سخرية بهذه الاستهلالات العلمية العالية وقالوا:

ما هذا الكلام الفارغ؟ فالنهار يكون موجوداً حتما عندما تكون الشمس مشرقة على وجه الأرض!! فما لهؤلاء الحمقى أو المجانيين في أثينا يخبطون خبط عشواء مدّعين بأنهم علماء وفلاسفة؟.....

قالت العناصر الأوروبية الجاهلة هذا القول وأضافت عليه أن فكرت بإرسال جيش لجب إلى أثينا لتأديب هؤلاء المتحزلقين وشنق الفلاسفة وتخليص العالم من سفاسفهم – على حد قولهم – المليئة بالترهات والمضحكات المنابذة لعقائدهم الدينية الارتجالية يومئذ.

وهكذا إذا سبرت أغوار العصور التي طلعت فيها شمس المدنية اليونانية نجد أنها لم تحتقب إلا هزؤ الشعوب الأوروبية القليلة مع العلم بأنها كانت من أسمى المدنيات وأرقاها وأفيدها. للمجتمع البشري من النواحي العلمية والفلسفية. ولكنها ظهرت كما قلنا آنفاً في أفق بعيد عن صميم أوروبا، وكانت في مستواها الراقي تترفع جداً عن وجود أي تشابه أو تمهيد يقربها من العقلية المنحطة المستأصلة في أركان العالم الأوروبي الأربعة، تلك العقلية التي لم تكن تمثل غير نعرات الروسية الفارغة والضلال الهائم الكاسح. فلو سبق التماع خيوط هذه الحضارة في ظروف أكثر ملاءمة وتمهيداً لما يمكن اتخاذه وسيلة أو مدرجاً ليصعد عليه الوعي الأوروبي المشلول، المريض إلى المكان الذي يشرف منه على طبيعة الحضارة الملمع إليها، لأخذ ذلك الوعي ينقه رويداً رويداً من علله ولتمكن من الاتصال بالأذهان الجامدة فحركها الجامدة فحركها بوسائل

تمهيدية سهلة الهضم والتفهم ولوجهها إلى القيام بتمثيل دور عظيم تحت سماء القارة الأوروبية ثم حول هذا الاتجاه إلى وجهات أخرى قضت على الجهل وبدّلت ديجور جاهليتها بمصابيح مضيئة من النور والتمدن.

وهكذا قضى ربك أن تكون هذه المهمة العلوية المتعلقة بإشراق أنوار الحاضرة في أوروبا ملقاة على عاتق الإسلام والعرب فكانت سانحة تحول أودت فيما بعد إلى قلب أوضاع العالم بأجمعه وجعل الغرب سيداً على الشرق ولله في خلقه وآياته شؤون وشجون.

يقول (جون دوانبورث المؤرخ الانكليزي:

(لو اجتمعت المدنيتان الرومانية واليونانية في عصر واحد وظروف واحدة لكان لهذا العالم وجه آخر غير الذي نراه اليوم.....).

ويعني بهذا القول الغمز من قناة المدنية الإسلامية بدون القدح فيها. إذ كان يتمنى لو أن قامت مقامها مدنية أوروبية بحتة لتموين بقية العناصر التي كانت خارجه عن نطاق تينك الحضارتين الرومانية والرومانية، ومع ذلك يعترف هذا المؤرخ بأن العرب والإسلام ادخلوا على الديار الأوروبية عندما استولوا على اسبانيا (الأندلس) وبعض أقسام فرنسا وإيطاليا، وبعد أن زحف فريق آخر منهم إلى البلقان ودخول جماعاتهم إلى أواسط أوروبا كل أثر حميد من آثار مدنيتهم اللامعة. فكانوا بهذا السبق الشريف المعلم والمرشد للشعوب الأوروبية في الصناعات العديدة والعلوم المختلفة، لا بل علموهم كيف يهذبون من لباسهم يوم كانوا لا يعرفون ما هو القميص على الأقل، إذا اقتبسوه من أهل الأندلس وسموّه بأسمه العربي chemise ويعرف بهذا الاسم إلى اليوم. ولو لم تتفرق كلمة المسلمين بعد ذلك وتضمحل شوكتهم لأمسوا سادة أوروبا دوماً،

لا بل سادة العالم بلا مراء. لأن الوسائل النبيلة التي كانوا يستعملونها لاستمالة الشعوب غير المتحضرة والعمل على تمدينها كانت على جانب كبير من اللباقة وحسن التصريف والباعة المتناهية في فنون الإدارة والسياسية.

وقد سبق أن قلنا في مطلع هذا الباب أن أماثل أوروبا كانوا ينظرون إلى ذلك النور الساطع الذي أخذ يلمع من أرض المشرق نظرة إكبار وإعجاب ويتمنون لو أن خيوط هذا الفجر السعيد تومض في نفس الوقت بأرجاء بلادهم المدّثرة بغمرة اللأواء والجاهلية. وبالفعل رأينا دعاية هؤلاء المفكرين بعد أن توسعوا في إدراجها بقصور الملوك والعيون الثرية تثمر ثمرتها الناضجة حيث أخذت البعثات الكثيرة تزحف بطوابير ضخمة إلى ديار الأندلس لتلقف العلم واقتباس الصناعات المختلفة وإليك بعض التفصيل بهذا الشأن.

عدد البعثات والوانها وجنسياتها وأنواع الفنون والصناعات التي اقتبسها أفرادها

نوهنا في كتابنا (البعث) ص١٨ نقلاً عن كتاب beprise de l'indaloussie أي استرداد الأندلس للمؤرخ الفرنسي falier إلى البعثات العلمية التي قامت أوروبا على قدم وساق لأعدادها وإرسالها إلى ديار الأندلس الإسلامية لتلقف العلم والفنون والصناعات في معاهدها الكبرى بنتيجة الدعايات التي انبثت في كل محفل وقصر وسراي بمعظم المقاطعات الأوروبية كانجلتره وفرنسا وهولندة وتوسقانا. وقد ذكر فالبير ثلاثة منها الأولى افرنسية وكانت برئاسة الأميرة (إليزابيث) أنبة خالة (لويس السادس) ملك فرنسا. والثانية انكليزية وكان على رأسها البرنسيس (دوبان٩ ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة (ويلز) ويقول المؤرخ أنه ربما كان ولي عهد انجلترا يومئذ. ومما ذكره فالبير أيضاً عن البعثة الثالثة وما يليها أنها كانت اسبانية وبعضها من مقاطعات (سافوا) والبافار) (وساكونيا) و (الرين) وقد بلغ عدد أفرادها عام ٣١٢هـ ١٢٩٣م وخده سبعمائة طالب وطالبة.و كان من جملة العوامل التي حفزت أوروبا على إرسال بعثاتها العلمية هذه إلى ديار الأندلس بالإضافة إلى الدعايات الطيبة التي نوهنا بها ما قاله العالم الأفرنسي الكبير (غوستاف لوبون) بصدد التفات الشعوب الأوروبية إلى الأندلس والزحف إلى تلك الديار لتلقف أنواع الفنون والصناعات والثقافات المختلفة وهو كما يلي تعويبه كما أثبتناه في كتاب البعث ص١٠ قال:

(لقد بلغ من نبل الدعوة التي حملها أبناء الجزيرة العربية إلى العالم في كل مكان توجهوا إليه أن أصبح قادة هؤلاء الأقوام الذين تبينوا أن بلادهم ستكون ممراً لجحافل العرب يترقبون في لجج وشوق اقترب ساعة ظهور تلك الطلاع المتهللة نصراً والحاملة لشعلة العدل والرحمة والحضارة حتى يقدموا القرابين ويذبحوا الذبائح لإبطالها ذلك لأن السمعة الطيبة وسمو الأهداف كانا يسبقان خيول أبناء يعرب الجلية في فيافي آسيا وإفريقيا. وكانت تلك الخلال المحببة ينتشر عبيرها المعطر على الناس في الشرق والغرب قبل وصول العرب إلى مقاطعاتهما المديدة الكثيرة بألوف الفراسخ.) تأمل هذا عامل من جملة العوامل الكثيرة التي حولت أنظار الأوروبيين إلى الاغتراف من معين الحضارة الإسلامية في الأندلس وإليك بعض العوامل الأخرى التي كان لها أثر بارز أيضاً في شغف الفرنجة بكل ما هو عربي يبدو عليه جلال التهذيب والفضيلة والرقي والحضارة.

كان نصارى الأندلس أنفسهم أي (الاسبانيون) يملأون أجواء أوروبا بالمديح والإعجاب بأعمال العرب وشرائع العرب ومعاهد العرب وحضارتهم وأنظمتهم والعمران الذي ادخلوه على البلاد الاسبانية. وكان يتكون من كل ذلك دعاية غير مقصودة فترسل عفواً في صدد الاعتزاز بما وصلت إليه بلادهم عن يد المسلمين الفاتحين من رقي وتمدن، فتشرئب الأعناق وتتفتح الأذهان إلى روايات أبناء الأندلس الأصليين المنتشرين في معظم أرجاء أوروبا كمهاجرين، نزحوا عن بلادهم نجت عوامل الخوف ثم ما لبثوا أن تبينوا أخطاءهم في هجر بلادهم لما توارد إلى أسماعهم من مواطنيهم الذين ظلوا في البلاد بما يقوم به المسلمون من أعمال جليلة ومآثر خالدة أدت إلى تحويل البلاد الاسبانية إل جنات قطوفها دانية وشرائع وأنظمة ملأت الأقطار عدالة وأمناً. نقول أن أمثال هذه الروايات التي شاعت عن مصادر حقه جعلت الأفئدة والأسماع والأبصار

في ديار الفرنج تتجه إلى الأندلس. وكان أول من أراد سيرغور ما يروى عن الارتقاء العظيم الذي بلغت إليه هذه الديار عن يد العرب الملك (فيليب) البافاري، فبعث إلى الخليفة (هشام الأول) يسأله السماح له بإيفاد هيئة تشرف على حالة بلاد الأندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الأواسط فيها ليتمكن من اقتباس المثمر المفيد من ذلك لبلاده. فوافق الخليفة على هذا الطلب وارسل الملك الجرمني وفداً برئاسة وزيره الأول المدعو (ويليمين) (١١). ثم أخذ بعض ملوك أوروبا ينسجون على منوال الملك البافاري. فأرسل ملك انكتلرا جورج الثاني أبنة أخيه الأميرة (دوبانت du bonnnette) كما مر معنا سابقاً على رأس بعثة تحصي ١٨ فتارة من بنات الأمراء والأعيان إلى (اشبيلية) يرافقهن رئيس موظفي القصر الملكي النبيل (سفيلك) وكان يحمل كتاباً من مليكه إلى الخليفة (هشام الثالث) وهذا تعريبه (١٢)

(من جور الثاني ملك انكلتراه والسنغال والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملك الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام).

بعد التعظيم والتوقير. فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الضافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة. فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل تكون بداءة حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي

---

(١١) (العرف الطيب) وقد لقبه الأندلسيون (وليم الأمين) لأنه كان صحيح الوجدان نبيل القصد مخلص النصيحة، وقام بأداء الرسالة على أتم وجه، واظهر لمليكه وبلاده ما كانت عليه ديار الأندلس من حضارة ورقي وعمران. وحض على ضرورة إرسال البعثات العلية لاقتباس الكنوز الأندلسية في الفن والعلم والصناعات العظيمة المختلفة.

(١٢) عن كتاب (العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى) للمؤرخ الانكليزي (جون دو البورت johendoinburth).

يحتاطها الجهل من أربعة أركانها. وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من بنات أشراف الانكليز لتتشرف بلثم أهداف العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من لدنا للواتي سيتوفرن على تعليمهن، وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها [١٣] مع التعظيم والحب الخاص.

من خادمكم المطيع: جورج م. أ

أما الوزير (ويليمين) فقد توجت مهمته في الأندلس بأحسن النتائج وأنفعها لبلاده حيث تمكن من أعداد بعثة مكونة من ٢١٥ طالبة وطالباً وزعت على معاهد الأندلس العلمية والصناعية لتلقف العلوم والصناعات التالية:

١– الفلسفة والعلوم المختلفة.

٢– صنعة النسيج والتطريز والنقش

٣– الطبابة والتمريض.

٤– صناعة الأسلحة.

٥– صنعة الزجاج.

---

(١٣) ذكر (عبد الرحمن شرف) المؤرخ التركي المشهور في كتابه (التاريخ العام) أن هذه الهدية كانت عبارة عن شمعدانين من الذهب الخاص طول الواحد ثلاثة أزرع مع أواني ذهبية أخرى للطعام عددها ٢٢ قطعة نقشت بأبدع وأروع النقوش السكسونية وكلها من صنع بلاد الانكليز.

وتعد من التحف النادرة التي لا تقدر بثمن، ولا يعلم إلى أين آل أمرها مع غيراه من الكنوز الثمينة بعد انقراض الدولة العربية الأندلسية.

٦- صنعة بناء السفن.

٧- صنعة الورق.

٨- صنع البارود.

٩- بناء القلاع والحصون.

١٠- علم الفلك (والسيما) أي الكيمياء والفيزياء المسمى (بعلم الطبيعة).

١١- العلوم الزراعية والصناعية الأخرى.

ويقول المؤرخ التركي (عبد الرحمن شرف بك) أن أكثر أفراد هذه ا لبعثات قد نبغوا في الفنون والعلوم التي تخصصوا لدراستها وبقي ٨ منهم في الأندلس حيث اعتنقوا الإسلام ولم يعودوا إلى بلادهم. وبين هؤلاء ثلاث فتيات تزوجن من مشاهير رجال الأندلس وأنجبن فحولاً يشار إليهم بالبنان، اشتهر منهم الفلكي الطائر الصيت (عباس بن مرداس). ثم تلت هذه البعثات وفود أخرى قدمت من فرنسا وايطاليا والبلاد الواطئة وملأت معاهد (غرناطة) و(اشبيلية) واقتبست من أنوار الحضارة الأندلسية شتى العلوم والفنون وتخلقت بالأخلاق العربية الإسلامية ودردت على بث هذه المكارم والمواهب في بلادها. ومما يلفت النظر هنا أن بعض أعضاء هذه البعثات من بنات وشبان لم يعودوا إلى بلادهم بعد أن اتموا دراستهم تحت تأثير عوامل شتى، منها ما له علاقة بمسائل عاطفية نشأت بين بعض الفتيات وأبناء سراة العرب الذين كانوا يزاملون أفراد البعثات في مختلف المعاهد العربية، حيث انتهت معظم هذه العلاقات بالزواج بعد الاندماج في نور الهداية الإسلامية، ومنها ما هيأته الأقدار تحت عوامل ترجع إلى شدة ضغط الثقافة العربية الحليم المحبب على التوجيه السقيم الذي كانت معظم أفراد البعثات الفرنجية منغمسة فيه وتحويله إلى اتجاهات

رشيدة تطبع المتزودين من كنوز هذه الثقافة بطابع التبني لها والالتصاق بها. وقد اشتهرت من بين الفتيات اللواتي ربطت الأقدار حياتهن بالأسر العربية الكريمة كثيرات أبرزهن الأميرة (ماري غوبييه) وهي بلجيكية الأصل أحبها (الأمير حسن بن المهدي) وأحبته و(روبيكا ستارت) من بنات العائلات الارستقراطية الجرمنية والراهبة (جانيت سمبسون) المرافقة لأحدى بعثات البنات الانكليزيات و (شونا) أنبة الكونت (سيرجاك) من إشراف البلاد الواطئة (هولندة).

ويحسن بنا هنا أن نأتي على نص الجواب الذي بعث الذي بعث به الخليفة هشام الأول إلى ملك الانكليز (١٤) وفيه عبرة بالغة لمن تمعن في سطوره قال رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين. وبعد إلى ملك انجلترا وايكوسيا واسكندينياويا الأجل. لقد اطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعينهم الأمر من ارباب الشونه على طلبكم. وعليه فأننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد وبالمقابلة أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية وهي من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم وفيها

(١٤) وقد عثرنا على نص الكتابين الآنفي الذكر مع بعض الوقائع الواردة في هذا الفصل وخاصة ما يتعلق منها بتأييد ما وراء العرف الطيب عن شخصية المندوب المرافق للبعثات (ويليمين) الذي كان صلة الوصل بني الأندلس وأوروبا، في الكتاب الخطي القديم المسمى (المراقب، فيما شاهدت بديار الأندلس من العجائب) لعبدا لله الطبرقي. عثرنا عليه في مكتبة صديقنا المرحوم الدكتور حليم قدوره في بيروت. وتفيد كلمة (أرباب الشونه) الواردة في هذا الكتاب معنى أركان الدولة.

المغزي الكافي للتدليل على التفاتنا ومحبتنا والسلام.) خليفة رسول الله على ديار الأندلس (هشام) ويلي ذلك التوقيع كما يأتي:

فأنت إذا حاولت تحليل كلمات الخليفة هشام الواردة في هذا الكتاب الموجه إلى ملك انكلترا وسبرت غور معانيها للمست من ورائها روح السؤدد والمباهاة، ثم حسن الخلق المترع بالعظمة الملكية. فبعداً لدهر قضى على معالم هذا المجد الذي دلف ملوك وأباطرة الفرنجة إلى استدرار عطف امرأته وساداته واحتقاب رضاهم والاستنارة بأضواء حضارتهم وعلومهم. أجبل بعداً لدهر حمل ملوك العرب وسادة الأمم على أن يلووا بأعنة الرواحل التي كانت تحمل شعار سؤددهم ويأخذوا في مناصبة بعضهم بعضاً عداء ونضالاً تفككت معه أوصالهم، ووهنت في ساحاته عظمتهم، وتلاشت من جنباته أمجادهم. ولا ندري من الملموم بعد هذا انحن يا ترى أم الدهر الخؤون الغادر؟؟ أنما الذي نعرفه جيداً هو أننا لو بالأحرى أن جدودنا قد أضاعوا الفرصة الكبرى التي كان سيتم للعرب بسط اليد من ورائها على قطاع البسيطة كلها بما هيأت لهم كفاآتهم العظيمة من الأسباب الموصلة إلى تلك السيطرة العالمية، تلك السيطرة التي كانت ستظل خالدة إلى يوم الدينونة كما شهد واقر بذلك معظم علماء أوروبا المستشرقين وخاصة المؤرخين منهم حيث تجد تفاصيل أقوالهم في هذا الصدد بكتابنا (البعث) ص١٠ (لغوستاف لبوبرن) وص٨ (لغاستوندومرغ) وص١٢ (لسينه بوس) وص١٧ (لجون دوانبورت) وص٤٧ (لليبرتيني) وغيرهم من أكابر العلماء والمفكرين الغربيين فللتراجع وفيها التفصيل الكافي.

الاستاذة والخبراء العرب في مصانع أوروبا ومعاهدها

لم تكتف أوروبا بإرسال البعثات العلمية التي نوهنا عنها آنفا إلى الديار الأندلسية ولم تقف عند هذا الحد من التلفت إلى تكوين المصير اللامع لشعوبها وحكوماتها وبث روح النهضة بين مختلف الطبقات ولا سيما العناصر التي تقطن ارجاء أوروبا الشمالية كالجرمنية والسكسونية والغالية، بل قامت بعض هذه الدول في أواسط القرن التاسع الميلادي وما يليه تستأجر بالأموال الوفيرة الأساتذة والخبراء العرب لتأسيس المدارس والمعامل وإحياء الصناعات العديدة ونشر لواء العمران والتنظيم في بلدانها. فقد ذكر كتاب (المراقب) أن ما يقرب من (٩٠) استاذاً عقدت لهم حكومات الأرض الواطئة (هولانده) وسكسونيا وبلاد الغال (انجلترا) عقوداً سخية واستجابتهم ليقوموا بوضع الأسس الوطيدة لإنشاء المعاهد العلمية بمختلف درجاتها. وقد انتقوا من أشهر العلماء العرب الذين يحسنون اللغتين اللاتينية والاسبانية. كما عقدوا الاتفاقات والعقود الطويلة الأجل مع عدد لا يقل عن المائتي خبير عربي في مختلف الصناعات وخاصة إنشاء السفن وفن البناء والزراعة والنسيج وراح هؤلاء الأفاضل والجهابذة يلقنون الشعوب الأوروبية مختلف العلوم والصناعات ويعملون على تنظيم مرافقهم وإعمار ديارهم بإخلاص وانكباب يليق بالوفاء العربي الذي لا يعرف الخداع والممارة، فكان هذا العد يداءة وئيدة للأقبال واليقظة في أوروبا أعقبها بعد ذلك انتشار روح الحضارة بتسلسل انتظمت فيه المعاونة الشريفة الصادقة وقد اسبغها العرب على كل أثر من آثارها الباهرة التي تشاهدها عليه اليوم.

فهل تعلم مثلاً أن أعظم جسر أسس على نهر التيمس واسمه جسر هيشم heyebam– ولا ندري إذا كان هذا الجسر العظيم لم يزل يحتفظ باسمه هذا إلى اليوم – نقول هل تعلم أن الذين بنوا هذا الجسر هم ابرع مهندسي العرب وأنه سمي بهذا الاسم من قبل ملك الانكليز تعظيماً وتكريماً للخليفة الأندلسي هشام الثاني، اعترافاً منه بما اسبغ لمهندسون العرب على أهل لندن من نعمة الجميل لمدينتهم وتقريب الأبعاد بين اطرافها المترامية؟

وهل تعلم أن قباب معظم الكنائس الشهيرة في بافاريا هي من صنع العرب، وأنه يوجد إلى اليوم سبيل ماء في بلدة (ستوتغارد) الألمانية اسمه حوض أحمد amedeo وهو من صنع مهندس مائي عربي اسمه (احمد) ما برحت النقوش والخطوط العربية النفيسة بارزة في هيكله الخلاب وكل ناحية من نواحيه؟

وهل تعلم أن الأسطول البحري الهولاندي العظيم الذي قهر العمارة الإنكليزية على الشواطئ الاسبانية في معركة (ليزبونه) عام ١٥١٢ أي بعد رحيل العرب عن تلك الديار هو من صنع العرب وأن قائد هذا الأسطول كان يدعي (اميرال البحر طارق) (١٥)

وهل تعلم أن صناعة القمصان في أوروبا هي خلعة عربي يوم كان الفرنج لا يعرفون ما هو (القميص) ولم يروا له وجهاً ولذلك سمي باسمه العربي (chemise) أي (القميص) كما أن النسيج النسائي المزركش والمعرق والمخرّم وما إلى هذا كله من مفاتن صناعة النسيج الطريف هي كلها من صنع العرب؟

وهل تعلم أن معالم الاندلس للأسلحة العديدة كانت تبيع لأوروبا

---

(١٥) ومن هنا اتخذت أوروبا لقب Amiral أي أمير البحر نعتاً ومرتبة لقواد اساطيلها.

المنجنيق والسيوف العربية المقوسة والبارود والدروع وما إلى ذلك من العتاد المخصصة للقتال؟

وهل تعلم أن بلاد الأندلس العربية كانت تمون مختلف البلاد الأوروبية بما يلزمها من الورق (العبّادي) الصالح لتأليف الكتب ونسخ المناشير الرسمية الطويلة وأن كل طبقة من هذا الورق كانت تحاط باطار من النقش العربي الجميل. وأن ورق الكتب الخطية الافرنجية تقريباً المحفوظة في مكتبات أوروبا ولاسيما في الفاتيكان كله من صنع العرب؟

وهل تعلم أن أوروبا لم تعرف (الطبابة) على النمط الفني الذي يتخذه علماء الطب اليوم في جميع انحاء العالم قاعدة أساسية للعلوم الطبية إلا عن يد العرب دون سواهم؟

وهل تعلم أن فن الصيدلة والمعادلات الاسبنجيارية وحل رموزها ومعرفة دقائقها والعناصر التي يتركب هذا الفن منها مع سبرغور الخواص الكامنة في بعض النباتات واستخراج الأدوية النافعة من عصيرها ووضع موازين دقيقة لوصفات العلاج كل هذا وسواه مما يتعلق بفن الصيدلة هو من مخترعات عرب الاندلس دون سواهم وأن أوروبا كانت تستجلب هذه العلاجات وأدوات الجراحة من (اشبيلية) و(القواصة) و(زردقه) وهي أشهر المدن الاندلسية التي اعتنت بتدريس الطب وتخريج الأطباء والصيادلة والممرضين والممرضات؟

وهل تعلم أن معاهد الأندلس الطبية اخرجت أكثر من ٢٠ طبيباً أوروبياً نذكر على سبيل المثال من بنيهم الراهب المدعو **spiroman** وهو انكليزي حيث اتخذه البابا (بيوس) الثالث طبيباً خاصاً له؟

وهل تعلم أن علوم الجير والفلك والجغرافيا والمثلثات والتشريح والتعدين

الفنيّ والسيما (الكيمياء) وغيرها من الفنون والعلوم هي من وضع العرب. كما أن أول خارطة وضعت للكرة الأرضية ومعرفة قاراتها وجزرها كانت من صنع (الادريسي) العربي الاندلسي؟

وهكذا إذا اردنا أن تعدد المنح والعطايا والتوجيهات الثقافية والفنية التي اسبغها عرب الأندلس على الشعوب الأوروبية يوم كانت غارقة في ديجور مدلهم من الجهل والضلالة، وكيف حوله هذا الحدث الإنساني الذي لا مثيل له في التاريخ إلى نور ورحمة نجد أن كل نهضة، وكل فضيلة، وكل وعي، وكل تجدد أو انقلاب عدت في أوروبا في أوائل العصر الأخير الذي انظمت طلائعه في خطوات رتيبة عبارة منذ عام ١٧٠٠م إلى أن تم لها الاستقرار والتمتع بنعم الحضارة والرفاه كان العرب والمدنية العربية هما مصدر بزوغه ورسوخه في مختلف البيئات الافرنجية فالعلوم والفنون والصناعات والمرافق الزراعية وانتظام الحياة الاجتماعية والثقافية وما إذا هذا كله كان العرب هم الطليعة في إيجادها وتكوينها بكل بلد أو مقاطعة أوروبية [١٦].

(١٦) ويقول (جون دوانبورت) العالم والمؤرخ الانكليزي في هذا الصدد ما يلي:

(لو لم تقم في جنوب أوروبا الحضارة الأندلسية العربية لظلت هذه القارة أي أوروبا تسبح إلى اليوم مع شعوبها المختلفي النحل والنزعات في حلك من ظلمة الجهل والبداوة، ولما ظهر للفدئية الأوروبية الحالية من أثر في الوجود). وتلجئنا المناسبة هنا إلى إدخال البحث المسهب في بعض الشؤون الإسلامية التي لها علاقة بالمواضيع الماضية والتي استعرضنا أبوابها وفصولها بأسباب وتبدأ في درج فصول الجزء الثاني من كتابنا (الاشتراكية في الإسلام) لتعلقها الوطيد فيما سلف وفيما سيأتي من أبحاث تتعلق بالشؤون الأوروبية والإسلامية بتسلسل ترتاح له جماهير القراء والمطالعين الأفاضل. ونريد أن نثبت هنا قبل كل شيء أن هذه الفصول أو بالأحرى الجزء الثاني من كتاب الاشتراكية في الإسلام لم تطبع بالرغم عن أننا نريد أن نطبعها بكتاب على حدة، وهكذا شاءت الأقدار أن يكوّن هذا الجزء جناباً غير قليل من مواضيع كتابنا الجديد هذا (بين الديانات والحضارات) ومن الله استمد العون ومن القرآن الكريم الرضي والمضافرة النبيلة.

الجزء الثاني

من كتاب

الاشتراكية في الإسلام

تمهيد

بمداد الفخر أسجل لأخواني وأعزائي أبناء الأقطار العربية ما أحاطوا به الجزء الأول من كتابنا (الاشتراكية في الإسلام) من عناية والتفتات كانتا سبباً رئيسيا إلى إعادة طبعه مرة ثانية، وقد نفذت إعداد الطبعتين البالغ عددهما ٥٠٠٠ نسخة ولما يزل الطلب متواصلاً علينا من كل جهة لكميات كبرى منه، بعضها من الباكستان والبعض من تركيا وليبيا وبعض أنحاء أفريقيا الشمالية. ولكن ما الحيلة ولم يبق لدينا ولا مكتبات سوريا ولبنان تسخ منه إلا العدد الضئيل وقد ارتفع سعره من ليرة واحدة إلى ثلاث فخمس....

أما الدوافع التي دعت إلى توسع انتشار هذا الكتاب فإنها تعود إلى سببين الأول منهما ما تضمنه من حملات مركزة على قواعد منطيقية واجتماعية ضد المبادئ الشيوعية وتجريحها وعدم إمكان الأخذ بتعاليمها المفرطة في كل الديار الإسلامية.... والسبب الثاني مرجعه تعريف المبادئ الاشتراكية، وتشكيلاتها على تنوع ألوانها وأنظمتها تعريفاً واسعاً مما لا يسبق نشره وتفصيله في المؤلفات العربية مطلقاً. وإذ كان حديث الاشتراكيات هو شغل العالم الشاغل اليوم، فأصبحت هنالك عدة ظروف ملائمة لانتشار كتابنا المنوه عنه ذلك الانتشار الكبير بالنسبة إلى ما يعتور التأليف العربية من الجمود والأعراض عن الالتفات اليها واقتنائها، اللهم إلا إذا استثنينا فئة خاصة من رواد العلم وحاملي راية الثقافة في الأقطار العربية.

وبالإضافة إلى ما تقدم فقد علمنا بمزيد الشكر إن (الاشتراكية في الإسلام) قد ترجم إلى الانكليزية وانتشر بكميات كبيرة في جهات الهند وسيام

واندونيسيا والسودان، الأمر الذي حدا بنا إلى إضافة الجزء الثاني منه في كتابنا هذا (الأديان والحضارات في التاريخ) نظراً للتقارب الموجود بين أبحاث الكتابين، ومن ثم توفيراً للوقت ولا جور الطبع وثمن الورق الباهظين.

وأملنا وطيد أن يجوز كتابنا الجديد هذا ما حازت عليه كتبنا السابقة مثل (البعث) و(المرأتان العربية والتركية) و(مذكرات صحافي) و(الاشتراكية في الإسلام) من إقبال ورواج. وحسبنا من كل هذه الجهود والسهر المتواصل وراء البحث والتنقيب أن نكون قد أدينا ما هو مفروض علينا من خدمات قومية وعلمية متواضعة نحو وطننا العربي الكبير والأجيال العربية الحاضرة والقادمة والأمم الإسلامية المنتشرة في كل صوب وناحية والله ولي المخلصين.

المؤلف

طه المدور

الفصل الأول

نظرة إلى المبادئ الاشتراكية وفلسفة دساتيرها

يقول (غوستاف لوبون) في كتابه (علم الاجتماع) عندما يتوغل في دراسة المبادئ الاشتراكية وفلسفتها القائمة على تكوين مجتمع يرفل في حياة رغيبة يسودها الرخاء وتنتظم لها جميع وسائل الرفاه:

(لا تتوفر للمبادئ الاشتراكية الأسباب الآيلة إلى استكمال أهدافها الإنسانية ومراميها الاجتماعية المستقرة إلا إذا طرحت السياسة جانباً وجعلت من هذه المبادئ دستوراً للأعمال التي تهدف من ورائها تثبيت استقرار المجتمع الإنساني على أساس معالجة متاعب الأفراد والجماعات وإزالتها بتوفير مقومات الرخاء والسعة اللتين نحت المذاهب الاشتراكية على ضوئهما دون أية غاية أخرى).

وحتى لا يقع (لوبون) تحت رشاش الانتقادات الساخرة لوجود حلقة مفقودة بين ما يسمونه بـ (السياسة الاشتراكية) وبين سياسة الدولة العامة استدرك وقال بإمكان تقيد الاشتراكيين بالأعمال السياسية داخل البرلمانات فقط حيث لا يد لجميع الكتل والأحزاب من معالجة شؤون الدولة بما في ذلك السياستين الداخلية والخارجية. أما خارج مجالس الأمة فتكون أعمال الاشتراكيين محصورة في للترفيه عن الطبقات العمالية والجماعات المثقلة بكوارث العوز والضنك وتبعاً لهذا المبدأ يرتأي هذا الفيلسوف الاجتماعي الكبير أن يكون في كل كتلة اشتراكية في كل أنحاء العالم رهط من هيئاتها التنفيذية العليا يختص في توجيه كتله البرلمانية نحو الأعراض السياسية المتمشية مع دساتير

الاشتراكية التي يدرجون على أحياء نصوصها أو تثبيت مضمونها.

ومع أن هذا الاتجاه الجريء الذي يعالجه ويجاهر به (لابون) قد مرَّت عليه أعوام طويلة إلا أنه لم يحظ بأي قبول أو عطف من قبل الأحزاب الاشتراكية في مختلف بلدان أوربا، ذلك لأن الأحزاب الاشتراكية لدى جميع الشعوب القاطنة في أوروبا أو أميركا غارقة غلى ذقونها في الشؤون السياسية، لا بل يمكن القول أنها راحت مع توالي السنين والأعوام تنسي مبادئها الاشتراكية الأساسية وأخذت تنخرط في تيارات السياسة على مختلف ألوانها حتى أصبح الانتماء إلى الاشتراكية في معظم هذه البلاد مؤئلاً لجر المغنم والجاه والاستيزار حتى وجلب الثروات من طرق مشروعة أو غير مشروعة، ولكنها تبعد عن دساتير الاشتراكيين بعد السماء عن الأرض.

ويشارك (لوبون) في نظريته هذه كثير من علماء الاجتماع في أوروبا وبطليعتهم (لودويغ) الألماني و(ستيوارت) الانكليزي ومادام (ستزيل) الإيطالية إذ يندبون حظ الاشتراكيات بعد أن توغل دعاتها بالأعمال السياسية ذلك التوغل الذي أمالهم عن مبادئهم الإنسانية العليا وأضعف ليهم الروح الاشتراكية التي تكاد تصبح سلماً يرتقيه طلاب المجد والشهرة إلى تربع الأرائك الوزارية وعضويات الشركات والمصارف حيث تدر عليهم الرواتب الكبرى والأمور الكثيرة.....

كان (بيلوف) السياسي الألماني أعظم خطيب انجبته أوروبا منذ مائة سنة، وقد وصف (تارديو) رئيس وزراء فرنسا في مقال نشره في جريدة (الفيغارو) هذا الخطيب الفذ والجهبذ المفوه بأنه يعجن الكلام في دماغه بالعصارة الوقادة التي تنفتق عن ذهنه لتخميره ثم يبعث به غلى حلقومه لخبزه، وعندما يشعر بنضوجه

يقذف به إلى جمهرة المستمعين كما يفعل الفران بخبزه الناضج، وكل ذلك لا يحتمل من بيلوف أكثر من بضع ثوان، وهنالك تراه قد أخذ في التلاعب بنفسيات السامعين فتارة يبكيهم وأخرى يضحكهم وبعد يحملهم على التصفيق والهتاف، حتى إذا عرف بأنه تملك بناصية الموقف وعواطف الدهماء المتألبة من حوله بعث بكفرته التي يكون قد اعد هذا الحقل الخطابي من أجلها، والتي له من ورائها أهداف سياسية أو مادية فيجاريه الشعب على تحقيقها باندفاع لا مثيل له وقد اشتهر عن (بيلوف) أنه اشتراكي النزعة وكان ينتقد عند كل فرصة تسنح له المبادئ (الماركسية) ويقول بأن الاشتراكية هي الفلسفة التي كشفها الإنسان لمعرفة مقدار مواهبه الخلقية ومزاياه الطبقية.

ولكن سبقت الشرائع الإسلامية وبرع فلاسفة الإسلام في كشف الحقيقة عن أسرار الاشتراكية ومراميها، بعد أن أعلنت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ودراسات العلماء والأئمة والفلاسفة الذين سبروا غور الفلسفة الدينية الإسلامية عن المواطن التي تسعى التعاليم الدينية المذكورة إلى توطيدها بين الطبقات المتسلسلة في المجتمع البشري بين سري منعم ومتوسط الحال ومرهق بائس، هذه الطبقات التي أراد الإسلام أن يجعلها رمزية فقط بإزالة معظم الحواجز المادية التي تحدث ذلك التفاوت البين بين الغني والفقير. وسيأتي البحث عن ذلك مع زيادة في التفصيل في فصولنا القادمة.

لقد كانت الثورة الفرنسية السبب الرئيسي في اقتباس التعاليم الاشتراكية التي لمع سناها في الشرق الإسلامي. إذ أخذ زعماء هذه الثورة يعملون بوحيها ونعتوها بادئ ذي بدء بالـ **Egalite** أي المساواة. ولكنها لم تتكامل حتى تصبح (اشتراكية) لأن هذه الثورة لم تتعرف على هذه المبادئ.

الخلق الانكليزي الاشتراكي

وهنا تبادر الأخلاق الغريزة الفطرية الكامنة في الأمة الانكليزية إلى لعب دورها النبيل في الكشف عن غرائزها الاشتراكية الفطرية بصرف النظر عن. تفاوت هذه الغرائز بين الطبقات العليا والوسطى والدنية واليك بعض المظاهر التي تتكلم من نفسها عن الحق الانكليزي المنسم بالشمائل الإنسانية الرفيعة.

فهذه الأمة أي الانكليزية أول من ابتدع قبل ثلاثمائة سنة فكرة وضع صناديق الإحسان على أبواب الكنائس والمعابد والمستشفيات والجمعيات ليتقدم إليها أهل الخير للبذل عن سخاء لجمع الإحسان وتوزيعه على الفقراء، بينما كان هذا الإحسان قبل ذلك يعطي للفقير عفواً وبدون نظام، أو تجمعه أي غير نظيفة.

ومن هناك راحت بقية الشعوب الأوروبية تقلد البريطانيين في هذا السبيل الخيري لأنها وجدته أقوم السبل لجعل قضية الإحسان قائمة على أساس منتظم.

والأمة الانكليزية هي أول من فكر في الترفيه عن العميان، فاخترع لهم بعض المفكرين الانكليز الحروف النافرة ليستطيعوا القراءة والتثقف ومعرفة شؤون العالم بقدر ما تسمح به ظروف الأعمى ومواهبه الذهنية، وفوق ذلك أسسوا للعميان نوادي يجتمعون إليها ويتدبرون شؤونهم الحيوية، كما أحدثوا لهم دوراً صناعية يمكن مزاولتها بالأيدي دون النظر كتصليح الكراسي (تفشيشها) وصنع الموازين، وحياكة السجاد النافر النقوش وغير ذلك من الصناعات التي يستطيع فاقد البصر أن يباشرها بعد أن يلتقي دروس التمرن على صنعها بواسطة أساتذة خبراء.

والانكليز هم أول من فكر في التفاوت الجنسي القائم بين بعض العناصر

وخاصة في الهند وعلموا على إزالته، كالحالة العجيبة التي كانت قائمة بين طبقة (السيخ) والشعوب الهندية الأخرى واعتبار (السيخيين) عنصراً منحطاً ووضيعاً لا يستحق أن يكون جزءاً متمماً للهنود البوذيين والبراهميين، فعمل الانكليز على مسحه اللوثة الغريبة عن جبين الإنسانية ووضعوا الأنظمة القوية الحاسمة التي تؤمن المساواة بين (السيخي) و(البوذي) وسواء من الطبقات المتوغلة في نبذ هؤلاء السيخيين واحتقارهم. فكان من جراء ذلك أن استرد (٥٠) مليون نسمة من المنبوذين مكانتهم في الهيئة الاجتماعية الهندية وأصبحت حقوقهم الاجتماعية والسياسية والمدنية متساوية مع حقوق كل هندي آخر في هذه القارة الحافلة يتوطن ٤٥٠ مليون بشر فيها تعددت ألسنتهم ومذاهبهم وثقافتهم وأميالهم الجنسية والوطنية....

والانكليز هم أول من فكر في إسعاف الفقراء والبؤساء والمساكين وإيوائهم وتعليمهم والترفيه عن العجزة والمقعدين بتأسيس المدارس والمستوصفات وجمع الإعانات لهم من كل فج وصوب.

والانكليز هم أول من فكر في تأسيس دور للأيتام في دار الخلافة القديمة أي اسطنبول كان يأوي إليها أكثر من ٤٠٠٠ يتيم، ولا ندري ما إذا كانت هذه الدور باقية إلى اليوم.... كما أنهم أسسوا مثلها في بيروت وكلنا يعرفها ولم يزل بعضها قائماً إلى اليوم.

وقد يقال بأن وراء هذه المآثر الإنسانية وخاصة ما كان متعلقاً منها بالشرق أهدافاً سياسية ودينية، ولكننا نستطيع أن نستدرك هذه الناحية بالرد على معظم هذه المزاعم متجنبين البحث في الجانب الآخر ولا سميا المتعلق بالأغراض السياسية لأنه ليس لكتابنا أدنى علاقة بالشؤون السياسية مباشرة —

نقول أننا نستطيع أن نستدرك هذه الناحية بالرد على معظم هذه المزاعم مثل اعتنائهم بقضية الإحسان والأخذ بناصر المنبوذين الهنود. والعناية بأمر العميان وما شاكل ذلك من المآثر التي كانت إنسانية الأهداف جليلة الغايات المجردة عن كل قصد أو مرمى سوى ما هنالك من أخلاق سامية ونبل في الشمائل والعواطف.

وقد قال العالم (ساجيرو) الاشتراكي الفرنسي المشهور:

يوجد في الشعب الانكليزي ميل غريزي إلى الرأفة بالبائس أينما كان وبالمعتل حيثما وجد. ولا أدل على ذلك من وجود مئات من مؤسسات الأعمال الخيرية في شتى أنحاء انكلترا توسم بأسماء أغنياء الانكليز. فأينما جلت تقرأ اسم اللورد الفلاني والأمير الفلاني على دور كثيرة للعناية بأهل العاهات والبؤساء وتقرأ أسماء هذه الشخصيات الغنية الكبرى على مستوصفات خصصت للتوليد والإرضاع والعميان والعجز والأيتام. وكل هذه الدور يرجع تاريخ أحداثها إلى قبل ٢٠٠ و ٣٠٠ سنة مما لا تجد له مثيلاً في أي بلد من بلدان العالم. ومعنى هذا أن الانكليزي اشتراكي بطبعه لا نطبعه.

وآخر ما طالعناه بصدد هذه الرأفة والعاطفة السمحاء في بلاد الانكليز تجاه المرضى والفقراء منشور رئيس أساقفة (يورك) الذي وجهه إلى الأمة البريطانية طالباً فيه من أهل اليسار والإحسان بذل بعض ما يدخرون من أموال في سبيل مكافحة شتى الأمراض المستأصلة في البلاد وفي مقدمتها مرض السرطان الذي تفشي بكثرة بين مختلف طبقات الشعب، الأمر الذي أصبح لابد من تلافيه بالطرق الطبية الحديثة. وما كاد هذا المنشور يصل إلى أيدي الموسرين ويلهب زفيره شعورهم حتى أخذت تنهال الإعانات والهبات على دار

الأسقفية من كل فج عميق اشترك فيها الفقير بجانب الغني بقدر ما تسمح له قدرته حتى بلغ مقدار هذه الإعانات في بحر أسبوع واحد مئات الألوف من الجنيهات.

فهذه الروح الاشتراكية السائدة كل قلب ولب في انكلترا هي التي جعلت من هذه الأمة عنصراً إنسانيا ممتازًا، وقوة جبارة تستطيع مغالبة مفاجئات القدر في كل زمان ومكان.

ومن أدهش ما طالعناه عن سرعة عن سرعة انتشار مبادئ حزب العمال الاشتراكية في انكلترا، أن كان المنتمون إلى هذا الحزب قبل بضع عشرات من السنين الماضية لا يتجاوزون العشرة آلا شخص، وما ذلك الضعف والانكماش في هذا الحزب ناتجاً عن ضعف الميول الاشتراكية في الشعب الانكليزي، بل أن سببه كان يرجع إلى ضعف تشكيلات الحزب وإهماله الدعاية لنشر مبادئه وتعاليمه ولكن عندما أخذ يتوسع نطاق هذه التشكيلات ويعني العناية الكبرى بالدعاية له رأيناه يصل خلال الأعوام الأخيرة إلى قمة الفوز ووسعة الانتشار وضخامة النفوذ والعزة إذ أصبح نصف الأمة الانكليزية على التمام يأخذ بناصر هذا الحزب ويؤيد مبادئه، ولا أدل على ذلك من فوزه في انتخاب عام ١٩٤٨ وكذلك في انتخابات ١٩٤٤ وتولجه زمام الأحكام في انكلترا برئاسة المستر (مكدونلد) وبعد بزعامة المستر (اتلى) ولا يقتصر لون الطبقات المنتمية إليه على جماهير العمال وشراذم الدهماء المختلفي الأعماء والنصاعات، بل تعدى ذلك إلى الطبقات الارستقراطية الغنية والبورجوازية المالكة لزمام المتاجر والمصانع والبيوتات المالية. ففي هذا الحزب اليوم أكثر من ٤٠ لورداً ومركزياً ودوقاً والوف لا تحصى من أهل الطبقات الوسطى المرفهين والحائزين على ثروات ضخمة وكلهم يشتركون مع أركان الحزب وهيئته التنفيذية العليا في

مكافحة الفقر وإغاثة المرضى والعجز والبؤساء وترى تفصيل ذلك كله في الجزء الأول من كتابنا الاشتراكية في الإسلام، ولا بأساً في إجماله هنا حتى لا نضيع الفائدة على قراء كتابنا هذا.

فأول خطوة إنسانية برزت إلى الوجود عن طريق حزب العمال كانت المبادرة بتوطيد دعائم الضمان الاجتماعي في كل الأنحاء تمنحه الدولة الانكليزية من خزينتها أمهات الأطفال الذين تتعسر أعالتهم من قبل والديهم عشر ليرات سورية شهرياً عن كل طفل، وقد بلغ عدد الأطفال الذين يستفيدون من هذه المنحة ٢٧٣٧٠٠ طفل مما يكلف الدولة مبلغ ٥٥ مليون جنية ونصف في السنة وغاية حزب العمال الذي كان على رأس الحكم عندما تقررت هذه المنحة هو التخفيف عن كاهل العوائل الفقيرة.

وأصبح كل فرد في انجلترا ممن ترهقهم الضائقة وضآلة المورد متحرراً من جور الأطباء وغلاء أسعار العلاجات بعد أن أصدرت حكومة العمال الاشتراكية قانون التأمين الصحي الذي يمنح الأبوين حق التداوي مع أطفالهما مجاناً كما تتكفل الحكومة بنفقات ولادية الأمهات وتخصيص منحات شهرية لها تقدر بـ(٥٠) ليرة سورية شهرياً وكلما زاد عدد الأطفال زادت هذه المخصصات، وإذا توفي رب العائلة تحصل أرملته على علاوة (الترمل) وقيمتها (٣٠٠) ليرة سورية شهرياً لمدة معينة. وفي انتهاء هذه المدة تبدأ معاونة جديدة أخرى تسمى مخصصات الأم الأرملة والتي تبلغ ٢٧٠ ليرة سورية شهرياً مع طفلها المولود أخيراً وتظل تقبض هذه المنحة حتى يبلغ الطفل سن الرشد.

فتأمل في هذه التدابير الاجتماعية الاشتراكية التي يلجأ الاشتراكيون الانكليز إليها في سبيل مكافحة الفقر والسخيمة.. وأنت ترى بأنها في جوهرها

لا تفرق ذرة واحدة عما لجأ إليه الإسلام في مكافحة الفقر واستئصال عواديه الفاتكة، ويرجع السبب الرئيسي في قيام هذه العاطفة التي يبديها حزب العمال نحو الشعب البريطاني إلى الميول إلى الاشتراكية التي تكمن في فؤاد كل انكليزي كما أوضحنا ذلك سابقاً.

انكلترا والعالم الإسلامي

كنا وما زلنا نريد أن نرى هذا الحي القوي ونعني به الانكليزي الذي يعرف معنى الإنسانية ويفسح لها في طيات الصدور مكاناً رحباً تسوده عوامل الرحمة والشفقة بيني الإنسان، كمنا وما زلنا نريد أن تقوم بين الأمة الانكليزية، أو انجلترا بالأصح والعالم الإسلامي روابط سياسية وعهود ودية تكون أعمق أثراً من التحالف تجعل من الأولى أمة تعتز بصداقة ٤٥٠ مليون مسلم وتتكئ على وفائه لها عندما يشتد هبوب الأعاصير التي تنجم عن المشاحنات والاختلافات الدولية.

الغريب في موقف المسلمين وخاصة العرب منهم تجاه انجلترا، أن معظم الأمم الإسلامية تعمل جاهدة وبصورة مستمرة على استمالة الدولة الانكليزية إليها وجعل العلائق معها أكثر من ودية وبالأحرى ذات طابع تتمثل فيه تقاليد الصداقة القديمة العهد بين الطرفين. وعندنا أنه بعد أن تم جلاء الجيوش الانكليزية عن مصر، وراح ينصرم أجله عن العراق والأردن ومن ثم زوال الخلاف الذي كان قائماً بين انجلترا وإيران سوف لا يبقى هناك ما يحول دون تقارب الجانبين إلى بعضهما وربط العلائق بينهما بحلف طويل الأمد يستمد منه الجانبان العون والتماسك والتعاضد السياسي والعسكري عند اشتداد النوائب.

وبودنا، بل بود كل مسلم وعربي حل ما بقي هنالك من تباين في الشعور

واختلاف حول الأمور الواقعة بين العرب وانجلترا مثل.

١. مصير الإمارات العربية في جنوب وشرق الجزيرة العربية نفسها.

٢. قضية فلسطين....

٣. قضية شمال إفريقيا.

قضية الإمارات العربية

وقد أشرنا في كتابنا "البعث" الإمارات العربية المذكورة فقلنا أنه ما دام فقد انتفى كل خطر كان يهدد انجلترا فيما يتعلق بمصيرها في الهند بعد أن منحت هذه البلاد استقلالها وربطت بعجلة (الكومونولث) الانكليزي، فلماذا إذن احتلال قناة السويس وسواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية، طالما أنه لم يبق ثمة من حاجة إلى حماية طريق الهند؟

وقد يقال بأن الخطر الروسي لا يهدد الهند وحدها، بل جميع بلدان الشرق الأوسط ومعظمها خاصة بالمسلمين، ولذلك تجد انجلترا نفسها مضطرة إلى اتخاذ التحفظات اللازمة لدفع هذا الخطر، تلك التحفظات التي منها احتلال الإمارات العربية المارة الذكر لتحافظ على أمن وسلامة البلدان المرتبطة بعجلة مقدراتها كالهند كالهند واستراليا وجنوب إفريقيا، والبلاد العربية نفسها.

ولكن يرى أهل الحصافة وسديد الرأي في انجلترا نفسها [١٧] أن عقد تحالف سياسي وعسكري بن البلدان العربية وانجلترا يكفي لإزالة تلك

(١٧) قال السيد محمد علي رئيس وزراء الباكستان في خطاب له ألقاه في البرلمان: (عندي من الأسباب ما يحملني على القول جازماً بأن انجلترا عاملة بجد على إزالة جميع العوائق التي تحول دون قيام تفاهم وثيق بينها وبين العالم الإسلامي بما في ذلك العرب والقضايا العربية التي ما برحت معلقة إلى اليوم).

التحفظات التي ما برحت تثير الأسى والألم في قلوب العرب حيث يجدون أن قسماً كبيراً من بلادهم مازال محتلا من قبل الجيوش الانكليزية:

ونحن من الذين يضربون بعرض الحائط جميع التحفظات التي يبديها العرب نحو عقد تحالف سياسي وعسكري مع انجلترا لأننا معاشر المسلمين والعرب نشعر بحاجة قصوى إلى قوي يأخذ بناصرنا عند اشتداد الخطوب ويمدنا بأمواله لتمويل بلادنا لشتى الأعمال المثمرة وعتاده لتسليح جيوشنا وثقافة شعبه لنقتبس منها ما ينير طرق الرفعة والمجد لأجيالنا الحاضرة والقادمة ونظن بأن هذه البادرة عادت فتكررت في المدة الأخيرة كما يلاحظ لك من تصريحات بعض وزراء خارجية الدول العربية بعد انفراط عقد اجتماعات الجامعة العربية خلال شهر كانون الأول سنة ١٩٥٤.

وقد بدرت من انجلترا إلى اليوم عدة بوادر تحض فيها الدول العربية على عقد عهود سياسية بني الطرفين لحماية الشرق الأوسط من الأخطار التي تبدو جاثمة فوق اديم الشرق بأسره. وليس من شك بأن العرب سوف يبادرون إلى إجابة انجلترا إلى طلبها وعقد الاتفاقات المنوه بها بين الجانبيين لاسيما بعد أن تحصل قضيتا الإمارات وفلسطين بين الجانبين بمفاوضات حبية نرى أنها قريبة الوقوع كما نلمس ذلك من تطور العلائق من حسن إلى أحسن بين ساسة انجلترا ودول الجامعة العربية، وبالتالي الدول الإسلامية بمجموعها.

أننا نرى أن السياسة الانكليزية التقليدية التي اتبعتها خلال حرب القرم ١٨٥٣ يوم قامت جيوشها وأساطيلها بحماية الدولة العثمانية الإسلامية من غارات الروس تعود فتظهر اليوم بأجلي معانيها للدرء عن مصائر العالمين العربي والإسلامي من الأخطار نفسها التي تجلت قبل حرب القرم وبعده لأن في ذلك

مصلحة لها أعلن عنها المستر (لويد جورج) السياسي الانكليزي الداهية في خطاب له بمجلس العموم إذ قال في جملة ما قاله عن الموقف السياسي العالمي يومئذ (١٩٠٥) حيث كانت الحرب قائمة بين روسيا واليابان:

(أن انكلترا تشعر بمسيس الحاجة إلى تماسكها وتضافرها مع الممالك والشعوب الإسلامية التي ترنو إلينا بعين الثقة والعطف لأننا بحاجة إل حلفاء أقويا كهذه الممالك والشعوب لحماية مرافقنا ومصالحنا الكثيرة في قارتي آسيا وأفريقيا....) تأمل

قضية فلسطين

إن في السياسة الانكليزية تجاه قضية فلسطين ناحية خفية لم يتمكن أهل العرف من سبر غورها ومعرفة كوامنها وعواملها.... ولكن مهما كان هذه العوامل شديدة التأثير على السياسة الانكليزية الحاضرة تجاه قضية فلسطين فأن حسن نوايا العرب نحو الشديد الانكليزي النبيل يوحي إلينا بأن نتمنى عليه أن يعيد النظر بموقفه أو موقف الحكومات بموقفه أو موقف الحكومات التي تنبثق عنه فيما يتعلق بفلسطين والعرب ما دام أن الأمتين العربية والانكليزية قادمتان على مد أيديهما إلى بعضهما بعضاً لعقد أواصر الود أو قل على الأصح رواب الحلف بينهما.

وما أجمل ما قاله الجنرال (سبيرس) في مجلس العموم الانكليزي حينا كانت قضية فلسطين مطروحة على بساط البحث في المجلس، وهذا نص كلماته بالحرف الواحد نقلاً عن جريدة (المصري) لمراسلها في لندن (العدد ٤٨١٢):

(لعمري انه لخير للصهيونية أن تحمد الله ألف مرة عليه جمعية الأمم إعادة اللاجئين إلى بلادهم والتعويض عن الأضرار التي لحقت بهم. ومن دواعي سرورنا معاشر الانكليز أن نرى سوء التفهم القائم بين العرب ولدولة الصهيونية قد انقلب

إلى صداقة وادي ذلك إل توطيد علائق حسن الجوار بين الطرفين. أما أعراض الصهيونيين عن قبول هذه التسوية التي تعد بالنسبة إليهم منحة من الله وتوغلهم في موقفهم المفعم بروح التعنت والدلال على دول العالم بأسرها فتخشى أن ينتهي بتمثيلهم الدور التاريخي الذي مثل في حصراء التيه المجاورة للبلدان التي يحتلونها اليوم (١٨)......... لأن للأمم كما للأفراد صبراً محدوداً فمن يضمن لنا بأن يظل العرب مثابرين بصبر وتؤدة على موقفهم المملوء احتشاماً وحسن بصيرة، فيهبون في ظرف غير مرتقب تحت ضغط البؤس والضيم والأمراض المحيطة بمليون عربي من بني عمومتهم إلى انتزاع حقوق هؤلاء المشردين من أيدي الصهاينة صارفين النظر عن النتائج السيئة التي تنجم عن هذه القفزة المفاجئة وما ينبثق عنها من إخلال بالسلام العام في منطقة الشرق الأوسط، وهل لا تكون عند ذلك حكومة تل أبيب هي المسئولة عن هذه الكارثة لا العرب الذين أبدوا كل مجاملة ورضوخ لمشيئة الدول التي تحمي بسياستها التعسفية دعاة الصهيونية المتعنتين؟)

فهذه الصراحة النبيلة التي تمثل الشعور الانكليزي الحقيقي، هي التي تميل بنا إلى الاعتقاد بأن بريطانيا سوف لا تظل مرتبطة بعجلة السياسة الأميركية الممالئة للصهيونية ولابد أن ترضخ لمشيئة الرأي العام الانكليزي الذي مثل الجنرال سبيرس ميوله الأصيلة فيما يتعلق بقضية فلسطين خير تمثيل وأصرحه.

---

(١٨) يعني الجنرال سبيرس بهذا التلميح غلى الحادث التاريخي الذي انتهى بمطاردة الفراعنة لجيوش إسرائيل وطردهم من الأراضي المصرية نشردهم في صحراء سينا أو ما بنعتها التاريخ بصحراء التيه، وذلك نتية تحككهم بشؤون الدولة المصرية وقتئذ وبثهم الدسائس وبذرهم بذور الفساد والشقاق وأثارتهم شتى المشاكل في أرض مصر، مما أدى إلى طردهم وإبعادهم إلى حيث ظلوا ٤٠ عاماً مشردين وفي الآفاق الجرداء القاحلة ونعني بها صحراء سينا.

الفصل الثاني

تكتل المذاهب الاشتراكية واتجاهاتها الدينية والسياسية والاجتماعية في كل من انكلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا والممالك الإسلامية وغيرها من الدول والشعوب

تستعمر الأمم القوية بلاد الضعفاء كي تستفيد منها. أما فرنسا فأنها تلجأ إلى الاستعمار لأجل أن تطبع البلاد المستعمرة بطابعها الذي تعتقد بطلاً انه يحمل إلى وقد عرفنا سخافة هذه الأنظمة والمبادئ يوم أريد تطبيقها علينا أثناء انتدابها على سوريا ولبنان– ولا يتنبه الساسة الفرنسيون إلى أخطائهم إلا عندما تقع فرنسا في شتى المصائب والمتاعب في الديار المستعمرة من قبلها، ذلك لأن صلفها واعتدادها بحضارتها ومبادئها المزعومة ليست سوى أغلاط مخزونة واختباط في ديجور الجهل المتولد عن عدم اعتنائها بنفسيات الشعوب المستعمرة وميولها القومية والسياسية.

أرونا أي بلد من بلدان العالم – وفي المقدمة في فرنسا نفسها – نشبت فيه الثورات الوطنية ولم تنته بفوز الثائرين بأمانيهم القومية؟ هذه فرنسا في الطليعة. ألم يحصل الشعب الفرنسي في نتيجة جهاده، وعقب الدماء الغزيرة التي أراقها على أمانيه بدك عرش الملوك الذي كانوا يتحكون برقاب العباد ويستنزفون مواردهم وثرواتهم في سبيل فسقهم ومباذلهم وتوطيد عروسهم القائمة على روح الأوتوقراطية والحكم الاستبدادي المطلق.

الاشتراكية الفرنسية وقضية شمال أفريقيا

لا ريب في أن الكتل الاشتراكية في فرنسا ترتكب أخطاءً سياسية وجرائم

اجتماعية لا تعد ولا تحصى بأعراضها وعدم مبالاتها بتفشي روح الاستعمار لدى كل وزارة تأتي على رأس الحكم في فرنسا. لأن المعروف عن المبادئ الاشتراكية سواء المعتدلة منها أو المتطرفة أنها ضد الميول الاستعمارية.

ففي انكلترا قام حزب العمال الاشتراكي عندما تولى زمام الحكم بالجلاء عن الهند وترك أمر مقدرات هذه القارة الكبرى بيد أهلها دون سواهم، كما فعل نفس للجلاء عن القواعد المحتلة من قبل جيوشها في أرض الكنانة وفي السودان كما حددت موقف انكلترا من حكومة شرقي الأردن بما أبداه من التساهل في بعض بنود المعاهدة المعقودة بين الحكومة الأردنية وبريطانيا وجعلها على شكل حلف بين صديقتين متعادلتين في الحقوق والواجبات تجاه بعضهما بعضاً.

ونجزم واثقين بأن البقية الباقية من المستعمرات الانكليزية سوف يكون مصيرها بفضل تلك الخطوة التي خطاها حزب العمال بالأمس التحرر من نير الاستعمار.

وفي روسيا أعلن الزعيم الشيوعي الأكبر (كارل ماركس) في تعاليمه التي جعلها دستوراً للمبادئ الشيوعية تنكره لوح الاستعمار. وليس مخالفة الزعماء الشيوعيين لهذه المبادئ المتعلقة بقضية الاستعمار بعد وفاته مما يحط من قدر المبدأ الماركسي بهذا الشأن وسيكون رد الفعل من هذه الناحية في روسيا قوياً جارفاً عندما تحين الظروف التي تطرح فيها مقدرات الدول والمقاطعات الشرقية الواقعة تحت سيطرتها على بساط البحث، ولا نظن بأن هذه الظروف سوف تكون بعيدة بل قد نشاهد أحداثها في عهد قريب جداً لم يختمر في رؤوس الأجيال الواعية في هذه المقاطعات والدول من ميول ثورية تحررية كشفت عنها البوادر التي تشيع أخبارها في ديار الغرب وتتناقلها أقلام الصحفيين والسنة

الخطباء في النوادي والجمعيات والندوات البرلمانية.

وفي هولندة عرفنا كما عرف الناس بأنه كل الفضل الأكبر في جلاء الدولة الهولندية عن اندونيسيا كان عائداً بالدرجة الأولى إلى جهاد الأندونسيين وكفاحهم في مقاومة الاستعمار وتحطيم وكفاحهم في مقاومة الاستعمار وتحطيم قيوده والتمتع بحرية البلد واستقلالهم التام، ولكنه كان وراء هذا الجهاد المرير نضال شديد كانت تثير الأحزاب الهولاندية الاشتراكية نقيعه وتكافح الميول الاستعمارية الكامنة في صفوف الحاكمين والتجار وذوي المنافع المادية، وتحمل الحملات الشديدة عن طريق أحزابها في مجلس النواب وعلى صفحات الجرائد الناطقة بتعاليمها ومبادئها وقد ظل هذا الكفاح متوصلاً عدة أعوام حتى انتهى كما رأينا بتحطيم قيود الاستعمار المديد الذي طال أمده مدة ٣٠٠ سنة وجلت الجيوش الهولندية عن ديار اندونيسيا مكرهة وتمتع المجاهدون بتحررهم وسيادة بلادهم، كما عقدت راية الظفر للكتل الاشتراكية الهولندية في هذا المعمعان الطويل بارك الله فيها.

وفي إيطاليا رأينا الأحزاب الشيوعية والاشتراكية تصفق طرباً وجزلاً للقرارات الخطيرة التي اتخذتها الدول الظافرة عندما عقدت الهدنة بينها وبين ايطاليا عند انتهاء الحرب العالمية الثانية، والتي تنص على سحب يد ايطاليا من جميع المستعمرات التي كانت تحتلها سواء في الصومال أو طرابلس الغرب أو جزر الديوديوكانيز أي الجزر الاثنتي عشرة الكائنة في بحر ايجة. ورجعت الدولة الايطالية إلى ما كانت عليه دولة بدون مستعمرات....

وفي أمريكا لا تجد شيئاً بغيضاً على قلوب الأمريكيين مثل كلمة الاستعمار والمستعمرات، ذلك لأن الشعب الأمريكي ينفر من المبادئ

الاستعمارية التي تنتهي إلى استبعاد الناس وحرمانهم من حق التمتع بحريتهم وسيادتهم كما يقضي بذلك الناموس العام الذي وضعه الله للبشر والذي يعبده الأمير كيون ويناضلون عن قدسيته في كل مناسبة، وفي كل زمن، وفي كل مكان.

إن المبادئ الديمقراطية التي يتحلى بها الشعب الأمريكي هي آتية عن المبادئ الاشتراكية كما ينوه إلى ذلك علماء الاجتماع في مؤلفاتهم وآخرها كتب (السياسة والاجتماع) للعالم الشهير (غوستاف لوبون) الذي يصر على أن المبادئ الديمقراطية – دون النقابية– تمت بصلة المبدأ والشعور بالمبادئ الاشتراكية، ونتكلم عن ذلك مفصلاً في الفصل القادم.

نعود فنقول أن الشعب الأمريكي يكره كل فكرة استعمال تجول في أجواء الدول المستعمرة (بكسر الميم) ويكافحها بكل ما أوتي من وسائل حتى ولو كان في ذلك تخطي شعور تلك الدول نضرب المثال على ذلك في معاونته للاندونيسيين والمصريين والإيرانيين والليبيين والفلبينيين وغيرهم على نوال حقوقهم وسيادتهم وتحررهم من ربقة كل استعمار. ونريد أن نعتقد هنا بأن العناصر المتطرفة في موقراطيتها وميولها التخررية سوف تكون لها خوات إيجابية جبارة في سبيل مكافحة الاستعمار الفرنسي الظالم في مراكش وتونس والجزائر، وينتهي بفضل نضافرها مع المجاهدين العرب وبقية الدول العربية والتي تتكتل في شكلها الحالي وتكون من هذا التكتل تلك الكينونة القوية – ونعني بها الجامعة العربية – نقول وينتهي هذا النضال المشترك بفوز أخواننا المجاهدين في شمال أفريقيا بما يتمنون من عزة وسيادة واستقلال.

وكان مفروضاً أن تمشي الأحزاب الاشتراكية والفرنسية في طليعة هذه القافلة التي تعمل على تحرير شمال أفريقيا من رتبة الاستعمار الفرنسي، ولكن

ظهر من تلون زعماء هذه الأحزاب وركاكة مباديهم، وجشعهم الذي لا ينتهي إلا عند تولج كراسي الوزارات والحصول على الجعول الاستثمارية من مختلف العناصر (البورجوازية)، ظهر أنه ليس ثمة من أمل في أن تقف بيوم من الأيام الكتل الاشتراكية والشيوعية في صفوف الأحرار القلائل الذين لا حول لهم ولا قوة سوى رفع أصواتهم على صفحات الجرائد وفي مختلف الفرص التي تسنح لهم بمناضلة الحكام والفرنسيين وحملهم على تحرير الشعوب العربية حتى وغير العربية التي تحت نير الكابوس الاستعماري الذي تفرضه فرنسا فرضاً على هذه الشعوب الكثيفة العدد والضعيفة العدد.

وأغرب من هذا كله أن يكون الشعب الفرنسي على علم تام بما فرضته عليه ألمانيا أثناء احتلالها بلاده من ضروب الاستعباد والظلم والاضطهاد، كما يعلم مما رصفته المكتبات الفرنسية من المؤلفات التاريخية التي تحكي، بلسان واضح ماذا فعل جدوده في سبيل مكافحة ملوك فرنسا في عهودهم الاستبدادية السوداء وكم رأس قطعت تلك المقاصل التي نصبها أولئك الجدود وبينها رؤوس ملوك وأمراء ونبلاء وأغنياء وملاكين، وكل ذلك لأجل الحصول على نعمة الحرية والعدالة والمساواة....

ولا نذهب بعيداً فهذه قضية الهند الصينية التي انتهت بتحرر هذه البلاد قبل بضعة أشهر، والتي يعرفها ويعرف كل صفحاتها كل أفرنسي، ألا تشكل أكبر عبرة لهذا الشعب ونعني به الفرنسي) الذي يعتبر نفسه رسول الحضارة والحرية والسلام على وجه الأرض وتجعله يثق بأن الشعوب الثائرة في سبيل استرداد حريتها وسيادتها لابد وأن ينتهي جهادها بالظفر بجميع أمانيها كما للثائرين الفرنسيين أنفسهم في الماضي ولثائري الهند الصينية بالأمس؟

تحضرنا الحكاية التاريخية التالية التي يمكن للقارئ أن يستخرج منها الأمثولة التي تحتوي على عبر ناطقة تتعلق بموضوعنا الذي نتكلم عنه هنا وخلاصة هذه الحكاية (عندما دنا القائد اللاتيني (سنسوريوسمارسيوس) من أبواب قرطاجة (وهي تونس اليوم) وكانت أغنى مدن العالم يومئذ وأعظمها شأناً في ساحة الحضارة والتجارة، أخذ هذا القائد يمتدح محبة الشعب القرطاجي للسلم ويتملقه بشتى الوسائل حتى يفتح باب المفاوضة بينه وبين زعماء قرطاجة، إلى أن تمكن من ذلك وبعث إليهم برسوله يطلب إليهم طرح السلاح بداعي أنه يتنافى مع مبدأ السلام الذي يتمشى عليه القرطاجيون فاستسلموا عن طيبة قلب وطرحوا سلاحهم، ثم طلب استكمالاً لمشروعه الجهنمي تسلميه أسطولهم الحربي القوي بداعي أن لا لزوم له طالما أنه يتعهد لهذه البلاد بحمايتها من كل عدو خارجي فسلموه له تحت تأثير العاطفة السلمية نفسها وتحت تأثير الوعود الخلابة التي وعد بها، ثم طلب بعد أن حصل على مبتغاة من تجريد هذه الأمة المسالمة من أسحلتها أن يوم القرطاجيون بهدم بلدهم وحصونها ولقاء ذلك يمنحون حق السكن في الصحراء على بعد ٨٠ فرسخاً عن البحر!! وهنا فقط أدرك هؤلاء المساكين ماذا أعد لهم من كيد وغدر وسوء مصير فثاروا بوجه القائد الجبار وكان من نتيجة ذلك أن أحرقت قرطاجة ومحي اسمها من التاريخ ولكن أحرمت منها الدولة الفاتحة كما احترم منها أهلها وكان يمكن بروح المسالمة وحسن السياسة والتفاهم أن تظل رافلة بحياتها الهادئة الناعمة وأن تكون في نفس ا لوقت معقلاً حصيناً يسمد منه المغيرون القوة والمؤن ومضافرة أهلها لهم كحلفاء كلما مست الحاجة إلى هذه المضافرة والمعاونة.)

فإذا أردنا أن نستنتج شيئاً من هذه الحادثة التاريخية فهي أن جهل الحكام والساسة والقواد كثيراً ما يحرم أولئك الحكام والساسة من الفوائد القصوى التي

يحسنون فيها ربط منافع بلادهم بالمرونة السياسية والتفاهم والتكافل الذي يحفظ للطرفين المتصادقين حقوقهما ومنافعهما وشؤونهما العسكرية والتجارية والتمدينية.

وقد كان يمكن للكتل الاشتراكية الفرنسية أن تحول جهود فرنسا الاستعمارية في شمال إفريقيا إلى روابط تعاونية وصداقات انتفاعية متبادلة تقوم على روح الثقة بين الجانبين. ولكن ظهر بأن هذه الكتل الاشتراكية لم تكن سوى صورة عن المفعول الرجعي للروح النقابية الفرنسية التي تمثل الطبقات (البوجروازية) الاستعمارية. ويقول (جول هرمن) العالم والصحافي الفرنسي.

(ليتنا نفعل في بلاد شمال أفريقيا كما فعل الانكليز في الهند. عندما سمعوا صوت غاندي يقول – إن الهند للهنود – عرفوا أنه لم يبق لهم مقام في البلاد الهندية، وأن ساعة رحيلهم قد اقتربت فأنت روح العدالة الانكليزية أن تقف حائلاً دون الأماني الوطنية التي كان يحلم بها الهنود، وكان بإمكانيتها أن تقاوم مائة سنة أخرى بالنظر لما هي عليه من قوة تجاه الخمول والفقر والوهن المسيطر على القارة الهندية. فأول ما فعلته أنها أخذت تعد في السر حقائبها وأوراقها استعداداً للرحيل السلمي الذي اختارته لنفسها بينما كانت تتظاهر بالمقاومة لغرض في النفس.

ولما تم لما تريد من تسويات سياسية حبية أخذت تسأل زعماء البلاد:

– هل انتم مصرون على لزوم تركي لبلادكم؟

– نعم.

– وهل تسرون لهذا الرحيل؟

- نعم

- وهل تبقون أصدقاء لنا؟

- نعم

- وحلفاء وركناً من أركان الكومونولث؟

- نعم

- وهل تذكرون جهودنا في سبيل أعمار بلادكم وتحضيرها؟

- نعم

إذن خاطركم يا أهل الهند......

وهذا خرجت انكلترا بعد طويل المكث والاستعمار في الهند العظيمة عدوة وعادت فدخلت إليها اليوم صديقة وشعوبها ترتبط مخلصة بالتاج البريطاني والشعب البريطاني. وكل ذلك وقع بدون إراقة نقطة دماء، بل رأينا الأيدي تتصافح والقبل تتبادل وتقام الأفراح والاحتفالات العظيمة بهذا الحدث السعيد الذي ما ذكر التاريخ مثيلاً له على الإطلاق.

جرى كل هذا بفضل التسامح الذي بدر من قبل حكومة العمال وقابلته الأمة الانكليزية النبيلة بالترحاب، لأن أهل العرف والحصافة في بريطانيا عرفوا أن البقاء في الهند بالشكل الاستعماري الذي كان متبعاً لم يبق موضع ترحيب لا من قبل الشعور الوطني الكبير السائد في الهند ولا متمشياً مع تطورات الزمن، فمثل الدهاء الانكليزي هنا دوره بمهارة ممتازة حيث مكّن لانكلترا أن تخرج من ديار الهند خصيمة، مستعمرة، مستثمرة لتعود في نفس الوقت كما قلنا آنفاً

لتدخل صديقه وحليفه ومحبوبة من قلب كل هندي وباكستاني يدب على أرض هذه القارة التي تحصي ما يقرب من ٥٠٠ مليون نسمة. وهاهم اليوم من أعظم وأقوى أو كان الكومونولث الانكليزي....)

ثم يتابع (جول هرمن) فيقول:

(فليت شعري هل تفعل فرنسا في شمال إفريقيا مع العرب ما فعله الانكليز في الهند، مع العلم بأن الدماء بدأت تراق بكثرة في أرض الثائرين المراكشيين الجزائريين والتونسيين؟ فتخرج كعدوة لدوده لتعود في نفس الوقت صديقة صدوقة يصون العرب في تلك الديار ومرافقها التجارية ومرافقها العلمية والصناعة وثروات جاليتها الضخمة فيسود البلاد الأمن والسلام وتتمتع فرنسا بهنيهات ثمينة ملؤها راحة البال ونعمة السلامة وتأخذ في معالجة بقية شؤونها الداخلية والخارجية بالتؤدة وحسن البصيرة كما يفعل الانكليز على الأقل.)

هذا ما نعربه من أقوال الفرنسي صميم لما يتحاشى عن ذكر الحقائق الجارحة ويضع النقاط على الحروف فيما يتعلق بالطرق التي يجب أن تسلكها فرنسا للتخلص من ربقة القلاقل والثورات القائمة ضدها في شمال إفريقيا. وليت شعري ما لها ولسياسة الاستعمار التي انقضي عهدها مع تطور الزمن ويقظة الأمم؟ ولم لا تعمل على عكس صداقة (٨٠) مليون عربي ٥٠ مليوناً منهم في الشرق الأوسط و ٣٠ مليوناً في بلاد المغرب، هذا بالإضافة إلى صداقة ٤٠٠ مليون مسلم يقدرون لها باتزان سياستها وجميل عواطفها وواسع حلمها تجاه أخوانهم عرب شمال إفريقيا يوم نضب حقائبها وأوراقها وتقول لأهل هذه البلاد (خاطركم) بعد أن تكون قد ربطت سياستها ومرافقها بمحالفات قوية متينة تجعل لها مكانة ممتازة لدى العالم بأسره عامة والشعوب الإسلامية

خاصة، بينما نعرف ويعرف الفرنسيون أنفسهم أن بقاءهم على أوضاعهم الحالية الاستعمارية البطاشة لن ينتج لهم سوى سفك الدماء وبذلك الأموال ويتم الأطفال ونكبات العوائل الكثيرة سواء في فرنسا أو شمال إفريقيا. ويا ليت هذه التضحيات الثمينة بالمال والرجال توصل المستعمرين الفرنسيين إلى ما يرجون من تثبيت إقدامهم في أرض تلوث كل شبر منها بالدماء، ولم تعد صالحة لبقائهم فيها لأنها قررت أن تلفظهم إلى البحر الذي حملهم إلى هذه الديار لتعود بهم أمواجه الصاخبة إلى أبدانهم مكرهين منكسي الرؤوس، وهذا المصير إذا لم يرعوا عن غيهم ينتظرهم في أيام لم تعد بعيدة على ما نعتقد.

الاشتراكية الفرنسية

وأقوال بعض علماء فرنسا عنها – نقض الاستعمار

نرى أن نختتم البحث حول وصف الاشتراكية الفرنسية ومباذلها والاستعمار ومساويه، أن ننقل أقوال بعض علماء وأفاضل الأمة الفرنسية فيما يتعلق بهاتين القضيتين لتكون تتمه لهذا البحث، ولتقوم شاهداً على صحة ما أوردناه على مباذل الاشتراكية والاستعمار الفرنسيين حيث يصح معنا في ذلك أن نقول (من فمك أدينك يا إسرائيل).

لنقتد بالانكليز

قال المسيو (فينيون):

(ما كدنا نتخلص في أوروبا من تأثير المعتقدات الدينية حتى ظننا أن الأمر كذلك في المشرق والمغرب الإسلاميين مع أن مسألة الدين عند المسلمين هي فوق جميع المسائل. أجل أن الدين يسيطر على إتباع محمد (ص) كما هو الحال عند البورميين والهنود وبالتالي يهيمن على النظم المدنية والسياسية حتى وعلى الحياة العامة والخاصة | . وقد أدرك الانكليز ذلك على ما في بروستانيتهم من تشدد فأحيوا معابد الهند وحافظوا على كهنة (سيفا) و(فيشنو) ولم يندفعوا في ترويج مبشريهم. ومن يبحث تحت سماء انجلترا لن يجد محامياً واحداً يقول أنه أجدر بالمستعمرة أن تبيد من أن يباد أحد المبادئ. ومن يود أن يحترم عادات العرب المسلمين في شمال أفريقيا فليحترم جميع أنظمتهم).

العرب والحضارات

وقال المسير (جول هرمن): قد يكون الأوروبيون مستعمرين ماهرين.

ولكن الأمة التي استطاعت بعد الرومان أن تمدن الشعوب الأخرى هي الأمة العربية. فالعرب وحدهم الذين استطاعوا في الحقيقة أن يعلوا شعوباً أخرى نعتنق حضارتهم وتقبل دينهم وأنظمتهم وفنونهم. في اليت فرنسا تعرف هذه الحقائق وتعلم أن العربي لا يتبدل في دينه ولا يبدل أنظمته ومعتقداته فتكتفي نفسها مؤونة بابتكار المبادئ الغربية لتطبيقها على قوم هذه صفاتهم ومبادئهم.)

عبرة الهند الصينية

وقال المسيو (كنستان) من حكام الهند الصينية السابقين:

(أنا على يقين بان النتائج المحزنة التي حصلنا عليها من وراء تطبيق سياستنا الفاشلة في الهند الصينية سوف لا يكون مصيرها في بقية مستعمراتنا سوى الإخفاق المخزي لأنها قائمة على مبدأ إدغام هذه المستعمرات بفرنسا لأننا بحملنا شعوب المستعمرات على التمذهب بالمبادئ الفرنسية سوف نجد بعد حروب دامية من وراء ذلك أشواكاً تدمي قلوبنا وفشلاً يجعلنا موضع ازدراء الأمم).

الحضارة الإسلامية

وقال المسيو (هيبو) الأستاذ في الصوربون:

(إني أعبر في الكلمة التالية عن الأسباب التي ظهر فيها عجزنا بإلزام الأمم المتأخرة حضارتنا، وهي أن هذه الحضارة معقدة جداً بالنسبة إلى تلك الأمم، وخاصة بالنسبة إلى عرب شمال أفريقيا المسلمين. فالأنظمة والمعتقدات والتربية التي تقدر على التأثير في مزاجها النفسي هي التي لا تقلب طرق معايشها رأساً على عقب. وبهذا نفسر تأثير المسلمين في الشرق. فالأمم التي استولى عليها المسلمون هي ذات مشاعر وعادات مثل ما عندهم أي ليس عليها أن تقاسي كثيراً في اتخاذ عناصر الحضارة الإسلامية كما عليها أن تقاسيه في اعتناق حضارتنا الغربية المعقدة. وقد ظن بعض المؤرخين أن المسلمين نجحوا في نشردينهم وحضارتهم عن طريق تفوقهم المادي.... إلا بئس ما ظنوا!! أن الحضارة الإسلامية ظلت تنتشر حتى بعد زوال سلطان المسلمين، فبلغ عدد المسلمين في الصين ٥٠ مليوناً وفي الهند ١٠٠ مليون مع أنه لم يكن هيمنة

للمسلمين على تلك البلاد، ولا يزال عددهم يزداد كل يوم. وعلة ذلك أن القرآن والمبادئ التي تستنبط منه تلاءم احتياجات الأمم المبتدئة لبساطته ينتشر المسلمون أينما مروا وحلوا أنظمتهم ومعتقداتهم وكلما أمعن السواح في ارتياد مجاهل أفريقيا شاهدوا قبائل تنشر تعاليم الإسلام. فالمسلمون يمدنون شعوب أفريقيا جهدهم ويبسطون سلطانهم الأدبي عليها. وأما الأوروبيون الذين يجوبون الشرق سواء كفاتحين أم تجار فل أيتركون فيه أثراً لنفوذهم الأدبي...)

الاشتراكية الفرنسية

قالت جريدة (الحركة الاشتراكية في عددها الصادر بتاريخ ١٥ ك ١٩٤٨ (تتورط الاشتراكية في فرنسا بأزمة مستعصية. ونرى سيرها الحسن في الماضي أخذ يندرج في مهاوي الإفلاس المحزن. إذ يظهر بجانب الاشتراكية الثورية أنواع من الاشتراكات العجيبة، كالاشتراكية الحكومية والاشتراكية البلدية والاشتراكية الماسونية والاشتراكية الوطنية إلى آخره... وتقول هذه الجريدة من باب التهكم: ومتى تظهر الاشتراكية الرأسمالية يا ترى. وقد أصبحت الأفضلية الرئيسية للاشتراكية الفرنسية هي الحقد على جميع الافضليات، أفضلية النبوغ وأفضلية الثروة أنواع من الاشتراكات العجيبة، كالاشتراكية الحكومية والاشتراكية البلدية والاشتراكية الماسونية والاشتراكية الوطنية إلى آخره..... وتقول هذه الجريدة من باب التهكم: ومتى تظهر الاشتراكية الرأسمالية يا ترى.. وقد أصبحت الأفضلية الرئيسة للاشتراكية الفرنسية هي الحقد على جميع الافضليات، أفضلية النبوغ وأفضلية الثروة وأفضلية الذكاء. ويذهب أتباع هذه الاشتراكية الضليلة مذهب من يقول بأن لها قدرة الإلهة القديمة وأضحت قوة ذات أسرار تستطيع خلق العجاب فهي في معتقدهم سوف تقيم على أنقاض المجتمع البشري الشائخ عالماً جديداً ينال كل الناس فيه سعادة أبدية.... مع أن

آثار تخريباتها في سياسة عدم المبالاة والتساهل في مراقبة أعمال الحكومة هما اللذان سببا الكوارث التي لحقتنا في الهند الصينية والتي أخذت تصيبنا في شمال أفريقيا.)

هذه شذرات من أقوال لاذعة سمعناها من أفواه الفرنسيين صميمين وكلها تعريض ونقد لسياسة فرنسا الاستعمارية، وتشتت شمل الأحزاب التي كان يمكن أن تلعب دوراً عظيماً في تقويم اعوجاج هذه السياسة الخرقاء وفي مقدمة تلك الأحزاب الاشتراكي الذي تفرق أشياعه وأنصاره بين رائد وراء مصالحه ومنافعه وبين يائس من تصرفات زعمائه.

وقد أردنا الاكتفاء بهذا القدر في كتابنا هذا لأن فصوله مخصصة لمواد ومطالعات أخرى نرى أن الواجب يدعونا إلى متابعتها وانجاز الأبحاث التي تتعلق بها.

ما فوق الاشتراكية

هل يوجد شيء في هذا العالم يعلو على المبادئ الاشتراكية المتصفة بأغاثة الفقير ومعاونة العامل المكد المريض المقعد والبائس العاجز؟ وهل يأخذ بتلابيب الجهل والمرض فيطرحها في اليم ويوزع على الناس مكانهما جلابيب العلم والصحة والعمل المثمر والفاه الشامل لتلك الطبقات البائسة المهملة؟ ظهر بين طيات أصبحت الأيام وأمسياتها أنه يوجد بين رجالات الطبقات الممتازة في كرم الصفات وجليل العاطفة والتي اشتهرت بالقلوب المتلهبة الشعور، والكرم الذي تعدّى حدود المعقول – نقول أنه ظهر بين أجفان أصبحت الزمان وأمسياته طبقات من البشر تتحلى بصفات علوية لا تجد لها وصفاً إذا أردت أن ترجع بها إلى لون اشتراكي، ولا ترى لها مثيلاً في صفحات التاريخ إذا أردت أن تقارنها

بالأمثال منها، ولا تستطيع أن تدرك مدى حبها للإنسانية ومعاونة طبقات البشر على مختلف ألوانها في اجتياز متاعب الحياة بالسهولة التي هيأوها لها.

فهل تعلو يا ترى شخصيات هؤلاء الميامين الأفذاذ عن شخصيات سائر البشر كأنهم جبلوا من طينة خاصة وتحلوا بمزايا وعبقريات استثنائية لا تدنو ولا تقرب بوجه من الوجوه ما لدى سائر البشر من مواهب ومزايا؟

كلا! فهم مثلنا ومن طينتنا وإنما الفرق بينهم وبين سائر الناس أن هؤلاء العباقرة تدرجوا في مراتب الحياة بتسلسل نظيم، فبدئوا حياتهم فقراء معدمين، ثم عمالاً مرهقين، ومن بعد انتقلوا إلى حياة فها شيء من الترفه وجمع الثروات الضئيلة. ومن هناك نفذوا إلى عالم الأعمال الواسعة فتيسر لهم جمع الثروات.

عنينا بهؤلاء العاصمين (كارنجي) و(روكفلر) و(فورد) وأمثالهم ممن منحتهم الطبيعة حظوظاً فارعة المدى وقوى جبارة دخلت مع تمادي الأيام في حلقة الخوارق التي قل أن يجود الدهر بها لأي فرد كان إلا إذا أصابها الحظ بحدبة عليهم وغرائب توجيهاته ولفتاته إليهم إليهم. وليس يعنينا هنا ما جمع هؤلاء الأفذاذ من مليارات المليارات وما تراكمت من حولهم الثروات التي يحار العقل في جمعها وإحصائها، وإنما أردنا أن نشير إلى أعمال البر التي وجهوا معظم اهتمامهم وأوفر قسم من ثرواتهم في سبيلها حتى بلغت مئات الملايين بذلوها عن رضى وسخاء غربيين فكم من جامعة ومعهد علمي أسسوا، وكم من مستشفى فتحوا، وكم من مشروع خيري أوجدوا، وكم من المخابر العلمية أحدثوا، والعجز عاونوا، والأطفال اليتامى رعوا، والأمراض المستعصية كافحوا واستأصلوا، والمكتبات العلمية أنشئوا والإعانات العديدة وزعوا، واللاجئين والمظلومين أغاثوا، والعوائل الكريمة التي جار عليها الدهر ستروا وكم وكم مما لو

واصلنا وصفه وتعداده لملأنا عشرات الصفحات من هذا الكتاب.

وهم بعملهم هذا تحدوا الشيوعية والشيوعيين وأبادوا مبادئهم المصطنعة لأنهم لم يتركوا تقريباً سائلاً ولا محتاجاً تحت سماء أميركا حتى وفي خارجها مدوا إليه أيدي الرحمة والإغاثة، فماذا بقى للشيوعيين من مأثرة وللاشتراكيات من بذل وإنجاد ولم يتوفر هؤلاء الكرام على تعهده وتفقده؟

وكل هذا يجري ولا دافع حزبي يسوقهم إلى بذل هذه المنح الجبارة لمختلف المرافق والمجامع البشرية، ولا غرض أو هدف يسعون إلى جلب النفع الشخصي الخاص إلى جيوبهم وخزائنهم، بل قاموا بكل هذه المآثر والحسنات لوجه الله ولخدمة الإنسانية والمجتمع البشري بدون أن يترقبوا من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً.....

لعمري أنها لمآثر يعجز القلم عن تحديد مدى انطلاقها وما جادت به على الناس من حسنات. وقد تركت المبادئ الاشتراكية ولاسيما المتطرفة منها تخجل من جعجعتها التي لا نرى طحناً لها. وصح معنا أن نقول أن بين طيات سجف الطبيعة الغامضة أشياء تتوارى لتظهر الحين بعد الحين بشكل خوارق يحار العقل في تعليلها.

كأني بالاشتراكية تخفي وراء كواليسها سراً لا صلة له بالاشتراكيات ومختلف مباديها كلها، شيء يمكننا أن نسميه ب (ما فوق الاشتراكية) وماذا عساه أن يكون ذلك الشيء العامر القوة الذي يتحدى المبادئ الاشتراكية الإنسانية؟

أنه سخاء غير مألوف وعطف على المجتمع الإنساني غير منتظر ورفق بالأجيال الصاعدة وتوطيد دعائم مستقبلها على نمط تجلت فيه روح المفأجاة

السعيدة. فأنعم بهؤلاء الأماثل الذين نرجوا أن يكثر بين طبقات البشر عديدهم ، وأن يكونوا العامل الأول المجدد لمبادي التعاون البشري على شكل إشتراكي نبيل يتخطى ويتحدى الأشكال الإشتراكية السخيفة التي سئمنا الوانها وتبجحتها، فتنشأ بفضل قواعد الإحسان التي وضعها روكفلروفوردو وأمثالهم مبادئ اشتراكيه عليا طاهرة كما حضن عليها الإسلام قبل كل محسن على وجه الأرض مما سنتكلم عنه في الفصل القادم.

الفصل الثالث

فلسفة التعاليم الإشتراكية الإسلامية

قال الإمام الغزالي رحمة الله عندما تكلم عن أسرار الحياة وما استن لها الإسلام من قواعد خلقية وإجتماعية وأسس وشحها التهذيب الديني والشعور الإنساني الممتاز بدقة الإحساس، قال في التعليق على ذلك:

(التساوي ممتنع بطبيعته بين الناس، ولكن التقارب من الواقعيات التي لا مفر منها غير ممتنع. فيكفي الموسع مثلاً فخراً أن يجعل الحياة الهنيئة مزيجاً بين الفقر والبحبوحة. وهذه المزية الأخلاقية تتسم دائماً بالورع القائم على الرضوخ لموجبات إنسانية هدفها إغاثة البائس المعوز لا يحمل عليها حملاً بل تسوقه غريزة الأيمان اليها سوقاً رهواً.

كما يكفي هذا المعوز فخراً أن يشعر بأنه هدف للمحسنين بإعتباره عضواً يتسم بالتساوي مع جميع أفراد الجمع الإنساني، وإنه يؤخذ من تحت ابطية بالتطيب الكافي ليقعد بجانب أخيه المنعم. وهكذا تتكامل الصورة الإنسانية في المجتمع الإسلامي طبقاً لما أوحى به الله وقام الرسول الأعظم صلى الله علية وسلم بالإرشاد اليه والسهر عليه. وقال الإمام المشار اليه أيضاً.

(ليس بين العبد والله وعبده من حاجز يمنع تقربه إليه كضن الغني على الفقير ،وشح المنعم على المحروم الذي ضاقت به السبل وداهمته العوادي بآفات العري والجوع والمرض).

ويرفع الستار عن وجه الاشتراكية الإسلامية الباسم عندما تشد بحبل

البحوث العلمية التي تتوارى وراء ذلك الوجه المشرق. وسر مبادئ هذه الاشتراكية ينحصر في خلق (الرجل) خلقاً جديداً. فالإسلام في حاجة إلى (ناسل) و(مجاهد). فإذا كان (الرجل) وهو الأقنوم الذي تتوافر فيه هذه الصفات عاطلاً لفقر يقعده أو مرض يسقمه فقد حض الدين المبين أهل اليسر في الإسلام أن يتفقدوا هذا العطل الطارئ لتعاد إليها قدرة الإنتاج وذلك بما في وسعهم من بذل ورعاية.

فالإحسان في الإسلام إذن قائم على سببين أحدهما روحي بحت والثاني فلسفي اجتماعي. فالسبب الأول مبعثه إغاثة الفقير ورفع الضيم عن العاجز والمريض ورعاية الأمومة والطفولة وما إلى ذلك من عوامل الترفق بالطبقات المعسرة المشردة، والسبب الثاني يرمي الى تجهيز الأمة برجال برئت أجسامهم من العلل وأحوالهم المعيشية من الضنك والفاقة ووسعت بعد ذلك قدرتهم إكثار النسل وتجهيز الجبهات الإسلامية المجاهدة بفحول الرجال الأشداء. ولأُدل على ذلك من قول الله عز وجل: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم).

وعندما يصلح الغني من شأن الفقير وينهض به عاملاً قوياً غير بهيض الجناح لينزع عنه رداء الطبقية المزري وسخائم البأس القتال يكون معنى ذلك انه قد تمت مرحلة (التساوي) بين الصعلوك والسيد والموسر والمعسر حينما حض الإسلام على ذلك ونعني بالتساوي بوادر (الاشتراكية) التي ننعتها بهذا الاسم تمشياً مع مصطلحات العصر. وهنا تصح النظرية الفلسفية المنطقية القائلة مثلاً: (إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود....) إذا نستطيع أن نقول: (إذا كان السير عاماً فالعز موفور).

وننقل لقراء كتابنا الأعزاء هنا قطعة من أمر دوري بعث به أحد الخلفاء في صدر الإسلام إلى عامليه في كافة أنحاء البلاد الإسلامية قال ما نصه بالحرف الواحد وقد جاء كاستشهاد واقعي لما نحن بصدده:

(ولقد أمرنا أيضاً أن تنتدبوا لتفقد أمور الرجال وأحوالهم وحفظ سلامتهم وأوقات أطعامهم من تعرفونه بالثقة في تصرفه والأمانة فيما يجري على يده والبعد من الإسفاف وإتباع نصوص الدين، ثم تجديد العرض. فمن صح عرضهم ولم يبق في نفسه شك منهم أطلق الأرزاق بوفرة لا بذخ فيها، وطالبهم بإحضار الخيل المختارة واللامات (الدروع) على ما توجبه مبالغ أرزاقهم وبحسب منازلهم ومراتبهم. فإن أخر أحد من ذلك شيئاً قاضوه به من رزقه واغرموه، فأن التقصير خيانة لأمير المؤمنين ومخالفة لرب العاملين. واحرصوا على موالي أمير المؤمنين وجنده وشاكرينه (حرسه الخاص وكان مقامهم في بغداد) وأن تزيحوا عللهم في عيالهم وأجسامهم وتستديموا طاعتهم بالنصح وتحضوا المحسنين على الإحسان لرافعي رايات الجهاد وأن تثيبوهم. وشاورا وأهل الحنكة والعلم والتجربة فإن الشورى لقاح المعرفة والإستبداد داعي الهجنه. وقد قال الله تعالى: (إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن). وقال جل في علاه: (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم).

هذه صورة ماثلة، ناطقة بما كان يشغل المسلمين في أول عهد تكوين إمبراطوريتهم وفتوحاتهم اختلطت فيه البطولات والعبقريات من الرأفة والإحسان والعدالة فكان من نتيجة ذلك أن جاء النصر إليهم طائعاً والمجد باسماً لأن أسادة ذلك الزمن كانوا على وعي في كل ما يصنعون فلم تفتهم عدالة يجب

أن تطبق وجهاز ينبغي أن يعد، أو كفاح تقضي الظروف بالمبادرة إليه على أحسن أوجه الاستعداد والبصيرة. فاستتبت لهم المتعة والسعادة والعزة على أكمل ألوانها البارعة.

عود على بدء: صلاح الدين الأيوبي والصليبيون

نعود إلى البحث فيما خصصنا له هذا الفصل لنقول أنه روي عن البطل العظيم (صلاح الدين الأيوبي) تغمده الله بوافر رحمته[١٩]. أنه قال في أثناء وصفه للحروب التي باشرها ضد الصليبين أن ثلاثة أشياء لفتت سمعه وبصره خلال هذا الاحتكاك المدهش بين أمم الشرق والغرب:

أولاً: فقدان الانسجام بين قادة هذه الحروب.

ثانياً: اعتناؤهم بتموين جيوشهم اعتناء طيباً.

ثالثاً: بسالة الجنود الإنجليز بصورة خاصة وحسن مظهرهم ونظافة لباسهم واكتمال صحتهم وهيبة قوادهم وتضلع هؤلاء بالفنون الحربية.

فالشطر الأخير من أقوال بطلنا العظيم صلاح الدين المتعلقة بصفات الصليبيين الإنجليز يعود بنا الى تذكر ما قلناه فيما مر معنا من الكلام عن مصنع (الرجال) الذي كان الإسلام يعني كثيراً في وفر إنتاجه بعد إعداده على الأوجه التي وصفناها، تذكرنا بأن القاعدة الحربية القائلة (إن النصر في الحروب معقود على أسنة الأقوياء من الرجال) هي الأساس في وجهات نظر القواد المسلمين العظام.

وهذا المنهاج درجت عليه انجلترا من قديم الزمن في حروبها كلها حتى

(١٩) الفتوحات الإسلامية، ص ٩٢.

الحربين العامتين الأخيرتين فقد كنا نرى بأم العين حسن هندام الجندي الإنجليزي وتمتعه بالصحة الموفورة بينما كانت جنود بقية الدول أقل من أولئك صحة وهنداماً.

ثم ألم تر هتلر يعني بخص الرجال الذين لا ترجى منهم قدرة أو قوة على الانخراط في الجحافل الزاحفة إلى ساحات الحرب حتى تتوفر لدى كتائبة كتل من الرجال الأصحاء الأجسام المبرئين من العلل التي تعيق الكر والفر لكل جندي يقف في معترك النزال؟

حقاً إن بين طيات التعاليم الإسلامية روحاً فلسفية عالية كشفت لأهل النهى من خلفاء وقواد وعلماء وفلاسفة عن مضامين وكنوز استطاعوا استخراج بعض الجوهر والفوائد الكامنة أغوارها القدسية مثل:

١- النواحي العلمية بجانب التعاليم التشريعية والتعبدية تلك النواحي التي يمكن تطبيقها والتمشي على توجيهاتها في كل عصر وزمان ومكان.

٢- جعل هذه النواحي غير عسيرة التطبيق.

٣- تخصصها بتقوية دعائم الدعوة الإسلامية.

٤- النهي عن إهمالها وما يجر هذا الإهمال من أضرار تؤذي الكيان الإسلامي وتحط من شأنه وقدرته.

٥- الترغيب الإلهي والوعد بحسن المكافأة للمحسنين إلى قومهم والموفين بالعمل الصالح في سبيل خير الإسلام.

الاشتراكية في البلاد العربية اليوم

ونختم أبحاثنا بصدد الاشتراكيات في الإشارة إلى ما ظهر من بوادر الروح الاشتراكية بأقاليم سوريا ولبنان ومصر والأردن. الأمر الذي حدا بنا إلى التعليق على ذلك بما رأيناه يتناسب مع الوضع.

لقد اطلعنا على مناهج الإخوان العاملين في هذه الساحة الطيبة فرأينا أن نبدي رأينا في بعض المواضيع التي لم نر أن أي حزب منها قد ألم بها أو التفت إليها.

والذي نريد أن نقوله هو لزوم توحيد العمل بين هذه الأحزاب وإتحاد نقابات العمال مع العلم بأن (النقابية) هي غير الاشتراكية ولكن ذلك لا يمنع من عقد الاتفاق بين الجانبين ولو لوقت محدود، لأن هناك أسباباً وطنية جوهرية غير النقابية والاشتراكية تدعو إلى ذلك مثل قضية الإضرابات التي تنفرد النقابات بقيادتها وتسير على هواها دون أن تكون مرتبطة بوشائج المنطق في بعض الظروف ودون أن تكون مدروسة دراسات فنية في كل الظروف.

فنحن نرى أن من حق الكتل الاشتراكية أن تكون الناظم لمثل هذه الطوارئ العالمية بدلاً من إطلاق الحبل للنقابات على غاربة لتتولج مثل هذه الحركة التي ربما بدر منها في أحد الأيام ما يمس بكيان الوطن وبالتالي بالمرافق البورجوازية التي نريدها أن تظل سليمة مما قد تتجلى فيه روح الإفراط والنزوع إلى ثورات محلية تنجم عنها مخاطر سيئة جداً لمحيطنا الناهض وصناعتنا القادرة، المنتجة على تعدد أشكالها. وهي ما يعبر عنها بالتنكرية (Criacisme) وال(Sensualisme) مع احترامنا وثقتنا بزعماء تلك النقابات ووطنيتهم السليمة وقوميتهم النقية.

والذي نريد أن يظل سليما متدرجاً في مراقي التقدم والازدهار هو عدم التنكر لعرقلة المرافق التجارية الكبرى والتي يطلق عليها اسم ال(Trustes) مباشرة وهي كما نعلم قائمة على سواعد شركات احتكارية وإنما يجب مكافحة احتكارها بحماية التجارة الفردية من جهة وتأسيس الشركات التعاونية في البلاد والتي تعرف باسم ال(Cooperative) لتنافس وتضارب الاحتكار أينما وجد وحيثما حل (راجع كتابنا الاشتراكية في الإسلام ص٤٤، ٤٥).

وقد يكون هذا المبدأ غير خال من نزعة ماركسية، ولكن المعنيين في المبادئ الاشتراكية كالزعيم (بلوم) الفرنسي و(نيتي) الإيطالي و(مكدونلد) الإنجليزي لم يعثروا على اصطلاح اشتراكي أجدى من هذا لحفظ حياة العامل وصيانة التوازن الاقتصادي في البلاد.

نحن كاشتراكيين لا يكفينا أن نعتني بالمزارع المأجور دون العامل المرهق، وإن نفرح لتوزيع الحكومة أملاكها على الفلاحين، أجل لن يكفينا ذلك ما دامت التشكيلات النقابية والاشتراكية غير مستكملة أشكالها الفنية. ونعني بالفنية أي الشاملة والقائمة على مناهج قوية.

ونعرف كما قلنا آنفاً أن (النقابية) و(الاشتراكية) لا تجتمعان تحت برنامج سياسي واحد. ولكن التفاهم على إيجاد روابط وقتية لتنظيم الحركة العالمية على وجوهها العامة الشاملة لا نراه بعيداً عن التحقيق إذا باشرناه بروح دثارة الود والإخلاص. وأنا لمن المعجبين بإخلاص ووطنية القائمين على تشكيلات الطرفين إعجاباً سليماً من كل شائبة. ونتمنى لهم تمنيات ملؤها الدعاء لهم بالتوفيق في أعمالهم. وبعد لا ندري ما إذا كنا قد أصبنا كبد الحقيقة فيما أرسلناه من تعليق على المبادئ الاشتراكية والنقابية الحاضرة في سوريا، وما إذا كان التمني الذي

أيدناه بلزوم تضافر الجانبين على تحديد المواقف الآيلة إلى تعزيز المبادئ العمالية والاشتراكية وتركيزها على المبادئ التي خلفت الاشتراكيات في جميع أنحاء العالم من أجلها. ونظن بأن ما أبديتاه من ملاحظات خاطفة سوف تحظى بالدرس والتمحيص على الأقل من قبل أخواننا من الجانبين للأخذ بالمفيد منها لصالح بلادنا وشعبنا وعمالنا ومرافقتنا التجارية الواسعة.

الوضع الاشتراكي النقابي في إنجلترا

وانجلترا هي الأمة الوحيدة التي استطاع الاشتراكيون والنقابيون فيها أن يؤلفوا جبهة واحدة نظراً لتقارب وجهات النظر بينهم فيما يتعلق بالشركات التعاونية (الكوبيراتيف) ضد مبدأ (التروست) أي الاحتكار فكافحوه بعناد واستطاعوا تأميم عدة شركات احتكارية. واحيوا مشروع الضمان الاجتماعي الذي تكلمنا عنه فيما سبق، والذي لا يضاهيه أي مشروع من نوعه في أي إقليم أو دولة سواء في أوربا أو أمريكا. وهكذا يكون الشعب الإنجليزي سباقاً إلى الفوز بالمشاريع النافعة على كافة الأحزاب الاشتراكية في جميع بلدان العالم. وقد جرب الفرنسيون أن يفعلوا ما يفعله الإنجليز فكان من نتيجة ذلك أن قام إضراب عمال البريد النقابي في كل أنحاء فرنسا وكلف خزينتها مئات الملايين من الليرات إضافات على أجور أولئك العمال مما أدى إلى رسوخ الخزينة تحت أثقال عجز كبير. أما السبب لهذا الإضراب والمحرك عليه فهو الاشتراكيون أنفسهم لأنهم رفضوا أن يمدوا أيديهم إلى نقابة عمال البريد دون بقية النقابات بداعي أن أفرادها يتناولون أجوراً إضافية لا حق لهم في أخذها فحدث من جراء ذلك رد الفعل الذي أشرنا إليه.

الفوائد التي جناها الأوربيون عقيب الحروب الصليبية المعلنة على دول الشرق الإسلامية العربية

بعد أن اقتبست أوروبا ما اقتبسته من الحضارة الأندلسية وروت غليل شعوبها من معين معلوم والفنون والصناعات المختلفة التي تدفقت إليها عن طريق الجهابذة والخبراء العرب كما فصلنا هذا كله فيما تقدم معنا بالفصل السابق مما أدى إلى تفشي روح اليقظة والتجدد في كل قطر من أقطارها، أخذت الميول بوجه عام تتجه نحو مناواة المسلمين وسد طرق الفتح عليهم. لأن هجمات (الغافقي) الجبارة بعد اجتيازه جبال (البيرنية) على غرب أوروبا ووصوله إلى أواسط فرنسا، وغارات الأتراك (العثمانيين) على شرقها وتمركزهم عند أسوار (فينا) بعد أن اكتسحوا بلاد البلقان والمجر وجنوب روسيا، كل هذه الموجات الطاغية أخذت تهدد الكيان الأوربي باستيلاء الأمم الإسلامية على مقاطعاته الواحدة تلو الأخرى مما حفز جماهير الفرنجة على لزوم اتخاذ الأهبة والاستعداد لرد هذه الغارات الجارفة.

وهنا لنسمع ما يقوله المؤرخ النمسوي الشهير (له ئر–**Lears**) وفيه للشرح الوافي للوضع السياسي الذي كان في أوائل القرن السادس عشر يستولى على أجواء الشرق والغرب، ومع دراسة فلسفية عميقة لما كان مقدراً أن يحدثه ذلك الوضع من المفاجئات الأليمة للأمم الشرقية، والظفر المستقر لشعوب أوروبا بعد أن أخذ الوعي المدني ينشر لواءه على أرجائها الهائجة القوية قال: لو حدث أن وقعت الحروب الصليبية بعد الوهن والتفكك اللذين نزلا بالدول الإسلامية في الأندلس ومصر والعراق لما أبقت جيوش الصليبين على أثر لهذه

الدول الشرقية، ولكان الشرق اليوم قطعة أوروبية في معاملة وثقافته حتى ولغاته.....

ولو لم تتضعضع الحضارة الإسلامية تحت تأثير عوامل الشقاق بين زعمائها وملوكها وأمرائها المسيطرة على مقاطعتها وترجع القهقري وتفقد على كر الأعوام هيبتها وقدرتها وتستسلم شعوبها لمخالب الخنوع وروافد الردة حيث يستتر بها الخمول والوهن لظل الغرب منكمشاً في أوكارة الخابية البائسة لا يطل منها إلى ما يتجاوز جبال ألبير منه غرباً ونهر الدانوب شرقاً.... ثم يقول: إذن يصح معنا أن نقول بأن أوروبا بعد أن اقتبست ما أرادته من ثقافة وحضارة انحدرا إليها من وراء جبال البير منه أي (الأندلس)، وبعد أن اجترعت بهم غريب الترياق الشافي لجروح الجهل والانحطاط المخيمين عليها وتبنت الخصال والمواهب الكريمة الكثيرة التي طبعتها بها الأمم الإسلامية بعد حملاتها الصليبية عليهم أخذت –أي أوروبا– تعد عدتها للكر على هذا (الأستاذ) المريض ونعني به (الشرق) الذي اعتنى بتلميذه البائس الجهول ونريد به (أوروبا) عناية ملؤها النبل والكرم والحدب. وكان ساعد هؤلاء التلامذة الأوربيين قد قوي وشملهم قد تكور وتلملم، وتفكيرهم نضج وأتى أكله، وحقدهم أتسع، وأطماعهم تجسمت، وقواهم تجمعت وتوافرت، وكملت معدات الكفاح لديهم من كل وجوهها. وهناك تبدل وجه الأرض ورأينا تلك العجيبة التي يقف التاريخ أمامها واجماً حائراً ألا وهي: أن الضعيف أصبح قوياً، والقوي أضحى واهناً، وغمرته لفحة البدد والخوار......اهـ.

هذه آهة (له ئر) المحرقة تطبعها اللهفة والتوجع على المجد الإسلامي الذي لاشته فواجع الجشع والأنانية الكامنة في صدور أرهاطة وزعمائه وملوكه، والتي تسربت بعد ذلك إلى الفرق والشعوب الإسلامية فجعلتها خليطاً من العناصر المتضاربة النزعات والأهواء، يمكن العداء في طيات صدور أفرادها حيث

يتوجهون به إلى صفوفهم نفسها فيعمل على تمزيق وحدتها ووصم شمائلها النبيلة بالمخزيات المبكيات......

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإننا نورد بهذه المناسبة على سبيل الذكرى أمثلة عما كان يشتغل به المسلمون عندما قامت أوروبا تشحذ سيوفها وتعد عدتها للزحف على ديار الشرق الإسلامي والقضاء على أمجاده التي وقفت عن السير إلى الأمام وأخذت ترجع القهقري وراح التصرم والتنكب يبدوان على كل أثر من آثارها. بينما كان الوعي والتكامل اللذان وصل الإسلام إليهما يقاضيان شعوبه الغفيرة أن لا تنام بعد أن لمست يقظة الأوربيين وتحفزهم للمرة الثانية أي بعد الحروب الصليبية الأولى إلى اقتحام ديارهم ودك معالم مدينتهم، وهذا لعمري ما كان جديراً أن تتسم به شمائل اللباب من فحول العرب ومخايل سادتهم. ولكن قضاء الله طمي ولا مرد لقضائه !!

أضف على ذلك ظهور الحروب الصليبية أيان وهن الحضارة العربية في الأندلس وتلاشيها. فجاءت هذه الحروب متممة لاستكمال ما كان ينقص الأوربيين من قواد الثورة الانقلابية التي باشروها عن يد أساتذتهم عرب الأندلس وذلك بما اقتبسوه عن الحضارة العربية في الشرق، وهي كنوز لا تقدر بثمن من علوم وصناعات عديدة منها الخفيفة والثقيلة أيضاً. وكل هذا حدث أثناء اشتعال ثائرة الحروب بين الصليبين وشعوب مصر والعراق وسوريا العربية. كانت الصفوف الإسلامية المتراصة تنقلب بسرعة البرق إلى التشتت والتخاذل فصرت ترى فيها بين عشية وضحاها [٢٠]:

(٢٠) ويقول (له ئرLeasr) المؤرخ النمسوي المعروف أن هذه الردة أو التضعضع بدأ في أوائل عام ٧٨٢م واذ أنت تستعرض هذه الفرق الإسلامية الهائلة تدرك مبلغ العناء الذي بذلتاه لجمع

١- السبائيين: ورئيسهم (عبد الله بن سباء) وكان يقول بإلوهية الأمام على.

٢- الكاملية: وكانت تقول بأن الخلفاء أنبياء.

٣- العليائية: تعتقد بأن علياً هو الذي أوجد محمد عليه الصلاة والسلام ومنحة النبوة.

٤- المغيرية: تتمثل الخالق جل وعلا بصورة رجل على رأسه تاج وأنه تكون من عرقة بحران، بحر عذب وآخر مالح وأنه خلق الشمس والقمر من انعكاس صورته على الماء وأنه خلق المؤمنين من البحر العذب والملحدين من البحر المالح.... إلى آخر ما هنالك من هذيان وترهات!!

٥- المنصورية: ورئيسها (أبو المنصور العجلي) وكان يقول بأن الآية الكريمة القائلة (وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم) نزلت عليه وأنها تعنيه وحده. وإن الجنة هي المحبة وجهنم هي البغضاء، ولما سمع به الحجاج قطع رأسه وترك جثته بضعة أيام في الساحة للتشهير بها.

٦- الخطابية: ورئيسها (أبو الخطاب محمد زينة ألأسدي) يقول بأن الجنة هي الدنيا ونعيمها وجهنم هي الشقاء الدنيوي. وإن الدنيا باقية لا تفنى. ويبيح مذهب هذا الطاغية جميع المحرمات ويحرض على ترك الفرائض ويقول أن الخلفاء هم أعظم من الله. وقد أمر الشرع بقتله وقتل.

٧- الهاشمية: ورئيسها الأول (هشام بن الحكم) ثم ترأسها (هشام بن سالم الجوانيقي) وتقول بتجسد الذات الإلهية – تعالى الله عما يشركون – ولكنه

أسمائها وزعمائها من تضاعيف كتب تاريخية كثيرة جمعناها في رتيب واحد مما لا تجده في غير كتابنا هذا ونحن نثق كل الوثوق بأن لهذه المجموعة قيمتها العفية والتاريخية.

ليس له لحم ودم وإنما له فم وأنف وعيون وآذان وأنه طويل جداً. وأن أعماله لا تتناسب مع قدرته وإنما مع ذاته.

٨- النعمانية: وهي تقول بمبادئ الفرقة الهاشمية. ولكنها تنكر التجسد للذات الإلهية وتعتبر الله نوراً بصورة إنسان وتسمى هذه الفرقة أيضاً (بالشياطنية).

٩- اليونسية: وتقول بأن الله كائن على عرشه تحف به الملائكة وتراه.

١٠- النصرية: تقول بأن روح الله حلت بالأمام على وأولاده. وأن الله خصص جبرائيل لعمل الخير والشيطان لعمل الشر. وكلاهما يظهر للناس كبشر مثلهم.

١١- الجناحية: تقول أن روح الله كانت كامنة في آدم علية السلام ثم انتقلت إلى (شيث) ثم تولى انتقالها إلى سائر الأنبياء إلى أن وصلت لرئيس هذه الفرقة (عبد الله بن معاوية) الذي سوف يبعث بعد موته حسب اعتقاد المنتمين إليها مرة أخرى من وراء جبال (أصفهان) وهم ينكرون الآخرة ويحللون المحرمات.

١٢- الغرابية: وتقول بتشبيه الإمام علي بمحمد عليه الصلاة والسلام كما يشبه الغراب الغراب.

١٣- الرزامية أو الخرسانية: وتقول بأن الخلافة تنتهي الى أبي مسلم الخرساني وتتلاشى من بعده ويحللون أيضاً المحرمات.

١٤- الزوارية: يقول دعاتها بأن الصفات الآلهية حادثة غير قديمة.

١٥- البدائية: تقول بأن الله يخلق الشيء ناقصاً ثم يكمله رويداً رويداً.

١٦- البنانية: ورئيسها يدعى (بنان العامري) وهي تشبه الله بصورة إنسان

ويتفرع جزء منها ويحل في بنان المذكور وقد حكم علية بالقتل وقتل.

١٧- (الباطنية) ورئيسها (حسن بن على الصباح) وكان رئيسها وموجدها السابق يدعى (حمدان القرمطي) وهي تقول بأن الله غير موجود كما أنه غير مفقود وأنه غير عالم وغير جاهل وأنه أوجد العقل كاملاً والعقل أوجد النفس ولكنها غير كاملة وما برحت النفس تتراكى على العقل لتستمد منه الكمال وقد نتج عن هذا السعي والاحتكاك وجود الكواكب والسيارات، وهذه العقائد مورثة عن المجوس. وتدأب هذه الفرقة على تفسير الآيات القرآنية طبقاً لأهوائها مما يخالف المعنى المراد منها. ويطلق بعض المؤرخين على هذه الفرقة اسم (السبعية) لأنها تعتقد بأن الأنبياء هم سبعة فقط. كما يطلق عليها أيضاً اسم (البابكية الأحمرية) نسبة لبابك الخارجي الذي تزعمها ردحاً من الزمن وكان يلبس الثياب الحمراء اللون. وجاء في جملة ترهات رجالها وسفسطاتهم أنه لا يجب الاغتسال بعد الجماع لأن التبول لا يوجب على الإنسان سقط الغسل مع أنه أنجس من المني وعلية لماذا يجب على الإنسان أن يغتسل بعد خروج المني منه. ويعتقد أرباب هذه الفرقة أن الزكاة والحج والوضوء والصلاة وشؤون الدين وعلاقتها بالآخرة من الأمور التي تبعث على أتعاب الذهن بدون نتيجة ولذلك يجب تركها وإهمالها!!

١٨- (الزيدية): ويدعى القائلون بها بأنهم ينتسبون إلى (زيد بن علي بن حسين بن علي المرتضى) وتنقسم هذه الفرقة إلى ثلاث شعب وهي (الجارودية) و(السلمانية) و(الصالحية) وعقيدتهم تنحصر في قولهم أن الخلافة كانت بعد وفاة النبي صلى الله علية وسلم إلى الأمام علي رضي الله عنه.

١٩- (الأمامية): وتنقسم إلى قسمين أولاهما تقول بأن الخلافة تنحصر بأولاد

سيدنا على والثانية تطعن ببقية الصحابة الكرام لأنهم كانوا على زعمها السبب في حرمان هؤلاء الإنجاب من الخلافة.

٢٠- (المحكمة): وهي وما سيليها من الفرق تعد من أفخاذ الخوارج: ظهر القائلون بها في (النهروان) وهم يواصلون الصلاة والصيام وإنما كانوا يتحاملون تحاملاً قبيحاً جداً على الصحابة الكرام. ولما سمع بهم سيدنا علي أبادهم عن بكرة أبيهم.

٢١- (الأرزقية): أدب أفرادها على الطعن (بعثمان وعلي وزبير وعائشة وابن عباس) والتشهير بهم. كما كانوا يثنون على (ابن ملجم) قاتل سيدنا علي وهم يحللون دماء الذين يخالفونهم في عقيدتهم ويحمون الزاني من الرجم ويكفرون القائلين باللواط.

٢٢- (البهسية): ورئيسها (أحمد البهيسي) القائلة بأنه يكفي أن يكون الأيمان باللسان وأن الولد يتبع والده في كفره أو إيمانه. وقد دعى الحجاج البهيسي المذكور إلى العراق وقتله.

٢٣- (النجدات): تقول ىن الجرائم التي يرتكبها الفرد عن جهل وغير تعمد لا يعاقب عليها مرتكبوها وعقيدة أفرادها في التجريم والتكفير تشبه (الأرزقية).

٢٤- (الأصفرية): تقول بتكفير تارك الصوم والصلاة وتخالف الأرزقية في معتقداتها.

٢٥- (الحفصية): وتسمى هذه الفرق وهي من الخوارج (الأباضية)

٢٦- (الليزيدية): وتقول بأن الأعمال من صنع الله ثم تكفر الذين

٢٧- (الحارثية): يخالفونها في عقائدها وتجهيز مصادرة أملاكهم

٢٨- (الرابعة): وأموالهم وتطعن بالصحابة الكرام وخاصة بالإمام على

واليزيديون من هؤلاء يضيفون على ذلك باتخاذهم الطاووس آلهاً لهم وهم يسكنون في جبال (سنجار).

٢٩- (الميمونية)

٣٠- (الحمزوية)

٣١- (الشعيبية)،

٣٢- (الحازمية)،

٣٣- (الخلفية)،

٣٤- (الأطرافية)،

٣٥- (المعلومية)،

٣٦- (المجهولية)،

٣٧- (الصلتية)،

٣٨- (الثعالبة)

ويطلق على هذه الفرق الثلاث عشرة وهي من الخوارج أيضاً (العجارده) ويقولون بالقضاء والقدر ويدعون أن الأفعال كلها من صنع الإنسان ويذهبون إلى أن الخير من الله والشر من الإنسان. وفيهم من يقول بأن الأفعال من صنع الله. ويحللون الزواج ببنات بناتهم وبنات أشقائهم وشقيقاتهم وينكرون سورة سيدنا يوسف....

٣٩- (الثعالبة المعبدية)،

٤٠- (الشيبانية)،

٤١- (المكرمية).

٤٢- (الجعفرية): ورئيسها (جعفر الصادق) وهي إحدى المذاهب الإثنى عشرية. وتخالف الإجماع في بعض معتقداتها ولكنها تماشي بقية العقائد الإسلامية تماماً.

فرق المعتزلة:

٤٣- (الواصلية): ورئيسها (واصل بن عطاء) وتقول بعدم وجود قديم وأزلي غير الله وتنفي وجود صفات الله وأن بين الكفر والإيمان مرحلة يكتنفها الاستغراق والتفكير وأن الكفر والظلم والشرور ليست من صنع الله.

٤٤- (الهزيلية): ورئيسها (ابراهيم بن سيار) وتقول بالحدوث والوجود ومعناهما أن الله خلق كل شيء مرة واحدة.

٤٥- (النظامية): ورئيسها (إبراهيم بن سيار) وتقول بالحدوث والوجود. ومعناهما أن الله خلق كل شيء مرة واحدة.

٤٦- (الحائطية): ورئيسها (محمد بن حافظ) وتقول بأن الله قديم ولكن وجد ما قبل هذا القدم آلهة أخرى.

٤٧- (البشرية): ورئيسها (بشر بن معتمر) تقول بأن إرادة الله ذات وجهين. أولهما يتضمن الصفة الذاتية وثانيهما صفة الأفعال. وإن الله لم يحتم على ذاته أن يجعل الخلق ذات وجهة واحدة واعتقاد واحد.

٤٨- (المعمرية): ورئيسها (معمر بن السلمي) وتقول بأن الله خلق الأجسام فقط. وأن الإنسان مقيد بإرادة نفسه التي لا يبتدعها ابتداعاً بل تأتي إليه عفواً وهو ينصاع إليها.

٤٩- (المزدرية): ورئيسها (عيسى بن صبيح) ويلقب (براهب المعتزلين) لشدة تصوفه وهو يقول بأن الإنسان يستطيع أن ين القرآن بكتاب آخر أفصح منه وأبلغ أثراً. ويكفر أصحاب هذا المذهب كل الذين يبالغون بخلق القرآن، ويعتقدون أن الله لا يرى بالعين المجردة وأن أعمال البشر ليست من صنع الله.

٥٠- (الثمامية): ورئيسها (ثمامة بن أشرش النميري) وهو من ندماء الخليفة (المأمون) وأصحابه. ويقول بأن الأعمال الصادرة عن الإنسان لا يوجد لها محرك أو مؤثر. ويعتقد أن المجوس واليهود والزنادقة والنصارى لا يدخلون جهنم يوم القيامة، بل يتحولون إلى بهائم وتراب. وأن الكفار الذين لا يعرفون الله ينظر إليهم بالعفو والإغضاء.

٥١- (الهشامية): ورئيسها (هشام بن عمرو الغوطي) وكان مفرطاً في اعتزاله حيث يقول بأن الجنة والجحيم لما يخلقا بعد إذا لا لزوم لهما الآن وينكر وجود الأمر والنهي عن الحرام والحلال في القرآن.

٥٢- (الجاحظية): ورئيسها (عمرو بن بحر الجاحظ) وكان فصيحاً فاضلاً وقد قربه الخليفة المعتصم إليه وقد توغل في القضايا الفلسفية وخرج إلى القول بأن العلم بالشيء والعمل به لا يعد من الأفعال لأن الإنسان لا يسير بإرادة حرة. وأن الله سوف لا يدخل في جهنم من عصى بل أن جهنم نفسها ستجذب إليها.

٥٣- (الخياطية): ورئيسها (أبو الحسن الخياط) وتقول بأن إرادة الله غير قائمة بذاتها وأن السمع والبصر لله تفيد معنى أن الله عالم بدون حاجته إلى السمع والبصر.

٥٤- (الكعبية): ورئيسها (أبو القاسم بن كعب) وكان يقول مبدأ الخياطية ثم انفصل عنها لاعتقاده بأن الإرادة والسمع والبصر يستند مجموعها إلى العلم بالشيء قبل رؤيته أو السمع به أو اشتهائه.

٥٥- (الجبائية) ورئيسها (أبو علي محمد الجبائي) وتقول بأن إرادة الله حادثة ولكنه لا يوجد لها مكان. وأن الله يتكلم عن طريق مخلوق ذي جسد

وروح. وهولا يرى يوم القيامة وأن العصاة لا يفرض فيهم الإيمان أو الكفر.

٥٦- (البهشمية): ويقول أصحابها بأنه من المحتمل فرض العقوبة على غير العاصي. وأن الله يعفو عمن يذنب مرتين.

٥٧- (العمروية): ورئيسها (عمرو بن عبيد الله) وكان ممن يروي الحديث ومعروف بالزهد والصلاح وله اعتقاد سخيف بقضيتي عثمان وعلى رضي الله عنهما ويتحامل عليهما جداً.

٥٨- (الأسوارية): ورئيسها (ابن أسوار) ويقول أن الإنسان قادر على خلق الخير والشر لنفسه وبنفسه.

٥٩- (الأسكافية)، ٦٠- (الجعفرية)، ٦١- (الصالحية)،

٦٢- (الحدبية) وهذه الفرق الأربع تقول بمبدأ الجاحظية الذي لخصناه آنفاً.

أما خلاصة مبادئ المعتزلين الذين يلقبهم الراهب البلجيكي (دوزي) بحكماء الفلسفة العقلية فتنحصر مما تقدم معنا فيما يلي:

١- التنكر للأوصاف عند إثبات وحدانية الله.

٢- تنزيه الله عن أعمال البشر الرامية إلى الشر والاعتقاد بوجود حرية مطلقة محولة للمخلوق يفعل معها ما يشاء.

٣- أن الله لا تدركه الأبصار.

٤- كفاءة العقل البشري لإدراك حقائق الأشياء حتى ولو لم يبعث الله برسله إلى الناس.

٥- الاعتقاد بأن القرآن مخلوق.

مذاهب أخرى

٦٤- (المرجئية): وهذا المذهب اباحي لا يكترث المنتمون إليه للعبادة إلا قليلاً. ويعدون حصر القوة بالأدراك هو عين الجهل. ويقدسون الحب والرضوخ والإطاعة. وزبدة معتقداته الأخرى ترتكز على نظريات فلسفية وهو يتفرع إلى خمس فرق وهي:

٦٥- (اليونسية): وتقول بأن حقيقة الإيمان هي معرفة الحق ذاته. والدخول إلى الجنة لا يأتي عن طريق التعبد والصلاح، بل عن طريق المحبة والإخلاص.

٦٦- (العبيدية): وتمثل الله بصورة إنسان وان صفاته تمثل ذاته.

٦٧- (الغسانية): تقول بالله ورسوله ولكنها تضع بعض القيود على الفروض كالحج مثلاً إذا تعتقد أنه غير المفروض أن يكون لمكة.

٦٨- (الثوبانية): تقول بالإيمان بالله ورسوله أيضاً وتشيد بمدارك العقل وتنجح إلى القول بأن الله إذا عفا عن عاص يوم القيامة فيجب أن يعفو عن بقية العاصين

٦٩- (الثومنية): تشبه في معتقداتها الطريقة (اليونسية).

وهنالك مذاهب أخرى أيضاً قديمة وحديثة نرى أن نلمح إليها تماماً لهذا الاستعراض العجيب للفرق والمذاهب الغريبة المعتقدات والنزعات، وكلها بالطبع تشير إلى ما ذهب إليه المسلمون من تشتيت ونزاع بعد أن توفرت لهم جميع وسائل الحياة الآمنة الكاملة الحضارة فقوضوا في لمح البصر تقريباً بنيانها وتركوا الأغيار يداهمونهم ويستولون على تراثهم الثمين.

٧٠- (النجارية): هي أقرب إلى السنية منها إلى المعتزلة إذا لا تقول بخلق القرآن بالشكل الذي يذهب إليه المعتزلون وتنزه الآلهة عن الكينونة المرئية.

٧١- (البرغوثية): هما فرعان للنجارية يقولان بأن القرآن غير مخلوق.

٧٢- (الزعفرانية): بهدفه ومعانيه، إنما هو مخلوق بشكل آخر أي بألفاظه.

٧٣- (الجبرية): رئيسها (جهم بن صفوان الترمزي) وتقول بالآراء والقدر والاستسلام لله، لأنها تنكر وجود إرادة ما للإنسان. وتستشهد على صحة نظريتها بالآيات القرآنية القائلة: (خيره وشره من الله تعالى) و (يهدي من يشاء ويضل من يشاء).

٧٤- (الحلولية): تقول بحلول الأرواح في الإنسان بما فيها روح الله وهذه العقيدة قديمة بين البشر وفي جملتهم الفراعنة والبراهمة والبوذيين ويستشهد أرباب هذه الفرقة بحكاية المسيح عليه السلام.

٧٥- (المشبهة): وهو مذهب منشق عن (الحنبلية) ويقول أربابه بالتجسد الإلهي (حاشا لله) ويمثله بعضهم بصورة إنسان يرى ويسمع بعينيه وأذنيه، متمسكون بتأييد نظريتهم الفاسدة هذه بقولهم أن الله خلق الإنسان شبيهاً به كما ورد ذلك في بعض الكتب الدينية غير الإسلامية.

الفرق الفردية

٧٦- (الحروفية): ورئيسها (فضل الله النعمة) وهو مذهب إباحي يرتكز في عقائده على قواعد حسابية يستنبطها من أسرار الحروف وبهذا الاتجاه

السخيف يبدلون ويغيرون الشيء الكثير من فرائض ومعتقدات الدين الإسلامي، ولاسيما ما كان منها متعلقاً بالقرآن وآياته.

٧٧- (العلوية): ورئيسها (إدريس العلوي) ثم جاء بعده المدعو (محمد بن نصير النميري) فعدّله على أساس أن الإمام علي هو الغوث الأعظم وإرث العلم النبوي وتتشيع له بإفراط وحب عظيمين.

٧٨- (الإسماعيلية): ورئيسها (إسماعيل بن جعفر الصادق) وتقول بأن أفعال الإمام علي وسلالته منزهة عن الخطأ لأنها طاهرة ومعصومة وأن أقواله هي كالقرآن وأوامره كأوامر الرحمن. وأنه خليفة الله على الأرض. وأن الإسلام دين صحيح وزعيمه الإمام علي.

٧٩- (الدرزية): ورئيسها المدعو (الدرزي) ظهر في عهد الحاكم بأمر الله أحد ملوك الفاطميين في مصر، ولا توجد نصوص واضحة عن هذا المذهب. ولكنه على كل حال فرقة من فرق الإسلام الباطنية.

٨٠- (القرمطية): ورئيسها المدعو (قرمط الكوفي) وهو مذهب اشتراكي ملوث ويقول بالإباحية ويحلل تزوج الرجل بابنته ويتنكر للروابط الاجتماعية العليا والفرائض الدينية التي أقرها الإسلام ويمنعون الحج.

٨١- (الباطنية): ورئيسها (عبد الله بن المأمون) وتتمركز فلسفتها على أن هناك (إماماً خليفاً) يلبس شكل الإنسان وقد أصبح خليفة ولكنه لا يظهر للناس بل يبعث إليهم بالرسل والأنبياء لإرشادهم وهذا الإمام هو علي ر.ع كما أن هذه الفرقة تقول بالتقمص.

٨٢- (الوهابية): رئيسها (محمد بن عبد الوهاب النجدي) وتقول بتنقية الدين الإسلامي من البدع التي أدخلت عليه، وإرجاعه إلى لونه الصافي

الشريف. وأول من عاضده على مرامه النبيل كان (الأمير محمد بن مسعود) أحد أمراء نجد. ثم انتشر في كل الأقطار النجدية. فالوهابية إذن مذهب إسلامي متين العقيدة والإيمان. وقد أفردنا له باباً خاصاً يلي هذا الباب حيث أسهبنا في تفصيل وشرح تاريخ الوهابية وأهدافها.

٨٣- (الأحمدية): مذهب أسسه المدعو (أحمد..) الهندي وهو يدعو إلى الإسلام عن طريق التبشير به ويخالف المنتمون إليه بعض مذاهب السنة، وتتطرق إليه بعض المعتقدات البوذية التصوفية.

٨٤- (البابية): مذهب فلسفي يقوم على أساس لا يخلو من الجحود بربوبية الإله الواحد. ولبّ فلسفة القائلين به (وهم من الفرس المتحزلقين) أن الهداية هي النور الذي ينبثق في عقل الإنسان ويهديه إلى الإيمان... ولكن أي إيمان؟ هذا ما تعتبره الفرق الإسلامية السنية موضع اشتراك القائلين بهذا المذهب وكفرهم بوحدانية الله.

تعليق ...

هذا بعض ما وعته كتب التاريخ ودراسات المستشرقين الذين يعنون بالشئون الإسلامية من عجاج الفرق والشيع والمذاهب الذي انتشر ضبابه الموبوء بشتى الجراثيم القاتلة بين مسلمي الأندلس وشمال أفريقيا ومصر والعراق وسوريا عقب ظهور الدين الإسلامي، ولم يكن مرّ على التماع سناه الوضاء إلا هنيهات قليلة من الزمن. وراح كلما طال أمده يزداد عدد تلك الفرق والشيع حتى تجاوزت في عهد طويل (المائة مذهب...) وأغرب من هذا أن الداعين إلى تلك الشيع لم يكتفوا بالعمل على تشويه سمعة الإسلام وتفريق الكلمة وبث الإلحاد والكفر والشكوك في الصفوف الإسلامية، بل اشتغلوا مع الله نفسه

وراحوا يتلاعبون في وصفه!! فمنهم من أنكر وجوده، ومنهم من شبهه تشبيهات منكرة، ومنهم من حرّف آياته، ومنهم من جعل له شخصية جسدية ومنهم مما يطالع في العرض الذي قدمناه آنفاً عن هذه الفرق ومذاهبها وزعمائها. فتعالى الله عما يصفون.

وبعد فماذا تريد أن يكون عليه المسلمون هم كما رأيت من تفريق الكلمة والعقيدة ولاسيما عقب أن دب الوعي في الشعوب الأوروبية وتسربت القوة والحضارة إلى صفوفها المتحفزة النشيطة وبعد أن أصبحت الأمم الإسلامية في شرق الأرض وغربها مجزأة إلى عشرات العقائد والمذاهب والأحزاب وكلها تعمل على فك رابطة جماعاتها بأشطان الوحدة والتضامن؟

ألا يحق بعد تلك الآهات التي تصعد من أحشاء الفلاسفة والمستشرقين الفرنجة كـ (ليبرتيني) و(جون دوانبرت) و(غوستاف لوبون) و(سينيه بوس) و(أوغست قونت) و(كنت) وغيرهم توجعاً وتلهفاً على ما أصاب الإسلام من نكبات التشتت والتفكك التي أنزلها المسلمون أنفسهم بجنباته القوية الرصينة وببنيانه العتيد الجبار؟

أجل ألا يحق بعد هذا كله لـ (كنت) مثلاً أن يقول:

(لو لم تتضعضع الحضارة الإسلامية تحت تأثير عوامل الشقاق بين زعمائها وملوكها وأمرائها المسيطرة على مقاطعاتها وترجع القهقرى وتفقد على كرّ الأعوام هيبتها وقدرتها وتستسلم شعوبها لمخالب الخنوع وروافد الردّة حيث يستنسر بها الخمول والوهن لظل الغرب منكمشاً في أوكاره الخابية البائسة لا يطل منها إلى ما يتجاوز جبال (البيرهنه) غرباً ونهر(الدانوب) شرقاً.)؟!!

وأن يقول أيضاً:

(إذن يصح معنا أن نقول بأن أوربا بعد أن اقتبست ما أرادته من ثقافة وحضارة انحدرا إليها من وراء جبال (البيرهنه) أي الأندلس، وبعد أن اجترعت بنهم غريب الترياق الشافي لقروح الجهل والانحطاط المخيمين عليها، وينبت الخصال المواهب الكريمة الكثيرة التي طبعتها بها الأمم الإسلامية بعد حملاتها الصليبية عليهم أخذت (أي أوربا) تعد عدتها للكرّ على هذا (الأستاذ) المريض ونعني به (الشرق) الذي اعتنى بتلميذه البائس الجهول، ونريد به (أوربا) عناية ملؤها النبل والكرم والحدب، وكان ساعد هؤلاء التلامذة الأوروبيين قد قوي، وشملهم قد تلملم وتكوّر، وتفكيرهم نضج وأتى أكله، وحقدهم اتسع، وأطماعهم تجسمت، وقواهم تجمعت وتوافرت، ومعداتهم تكاملت وانتظمت من كل وجوهها. وهنالك تبدل وجه الأرض ورأينا تلك العجيبة التي يقف التاريخ أمامها واجماً مرتعداً ألا وهي:- أن الضعيف أصبح قوياً، والقوي أصبح واهناً وغمرته لفحة البدد والخوار...-) أ هـ

وعليه وبعد هذا التفصيل الذي تقدم معنا نفضل أن لا نطيل البحث في هذا الصدد الأليم المخزي والمشوه لمرآة الحضارة الإسلامية. ونقتصر على القول بأنه رغماً عن جميع هذه الفواجع والملابسات التي يتقاسم ويلاتها المسلمون أنفسهم ويعتبرون هم دون غيرهم العامل الأول والرئيسي على هدم كيانهم المدني والذي كان في أسمى مراتب الرقي - أجل رغماً عن جميع هذه العوامل الهدامة فإن العرب سوف يظل اسمهم منقوشاً بأحرف من ذهب على جبين الدهر حاملاً طابع الشرف الرفيع الذي لا يبلى، طابع الأستذة والتوجيه والإرشاد لشعوب أوربا المتوحشة وتحويلها من عالم البداوة والبؤس والضلالة والفقر إلى عروش الحضارة ومراقي المجد والعلم والقوة.

وهذه الحقيقة يقررها العلماء والمتتبعون الأوروبيون أنفسهم. ولله در

المستشرق الإيطالي الشهير (ليبرتيني) الذي ننقل هنا كلمة له[21] قالها بهذا الصدد لنجعلها خاتمة لهذا الفصل قال:

(إنني أكاد أعتبر أقطاب الأندلس وجزيرة العرب – عندما ضاء سناه الحضارة العربية بفضل جهادهم والعلم المنتشر في ربوعهم أكبر مجرمي العالم، لأنهم لم يكتفوا بإفناء بعضهم بعضاً، بل تعدوا ذلك إلى وئد ألمع حضارة أوجدها الإنسان على وجه الأرض. وكانت لم تزل تترعرع في أحضان النهضة الإسلامية الخارقة. فلو أتاح لها أربابها والعاملون على إشعال قبسها الوضاء أن نمشي في سبيلها إلى التكامل لما بقي على الأرض إلا كل عربي أو مستعرب. ولما كان غير الإسلام ديناً للمجموعة البشرية...) أ هـ

---

[21] نقلاً عن كتابنا (البعث) ص ٤٧.

الباب الخامس

الوهابية
نبالة أهدافها ومراميها الإصلاحية والدينية

تاريخ ظهورها وترجمة المصلح الكبير الذي بشّر بها وسنّ قواعدها
دراسة وتدقيق حول تلك الأهداف والمرامي البريئة

عميدها العظيم جلالة الملك عبد العزيز آل السعود والمواهب الجليلة التي يتحلى بها – أقوال علماء الفرنجة في الوهابية – لمحة تاريخية عن بعض الحركات والثورات الإسلامية في سبيل الإصلاح والتحرر وأسماء الزعماء الذين كانوا عماد هذا الجهاد والكفاح.

يوجد بين الفرق والمذاهب والشيع التي تفرعت عن الإسلام والتي مرّ معنا ذكرها وذكر دعاتها وأسمائها، المذهب الوهابي الذي ظهر ثم انتشر في أواسط العصر الماضي ببعض أنحاء الجزيرة العربية، وبالأخص في مقاطعة (نجد) وتوابعها. وقد كان من نتيجة ظهور هذه الفرقة الإسلامية الإصلاحية اهتمام واسع النطاق شمل العالم بأجمعه نحو تتبع غاياتها وأغراضها والقواعد التي تركزت تعاليمها عليها، تلك التعاليم القوية التي برزت إلى العالم الإسلامي بوجهها الإصلاحي المتين، وعقائدها القوية وصوفيتها الورعة التي تتم عن صلابة في العقيدة وتمسك فارع القوة بأهداب الدين الإسلامي ومكافحة البدع والحواشي الباطلة التي أدخلت عليه، وافتأتت على جوهر توجيهاته القدسية.

يخال على الدوام إليّ وإليك أيها القارئ الكريم، بل وإلى كل مؤمنٍ صلب العقيدة أن بعض البدع والحواشي التي أدخلها أهل الفضول على الدين

الإسلامي آخذة في تهديد أركانه القوية ودعاماته الإلهية المقدسة. ومنشأ هذا الظن فرط التعلق بأهداب الدين، والغيرة الملتهبة على حفظه من شعوذات الدجالين والمنافقين، وبينما أنت مستغرق في مخاوفك هذه فإذا بك تصطدم فعلاً ببعض هذه البدع والفقيهات التي لا تمت إلى الدين الحنيف بصلة، بل تبعده عن قواعده الطاهرة وتلقي عليه البلبلة. فتنشأ فيك فعلاً روح التمرد على هؤلاء الأفاكين الضالين، وتشحذ من عزيمتك وتحملك على لزوم مقاومة تلك السفاسف وتطهير هذا الدين الحنيف من أدرانها الزائفة الخادعة.

وهكذا كان شأن المصلح والمؤمن الطاهر القصد المرحوم الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) النجدي الذي نشأ وترعرع في أرض نجد واستوفى حظاً كبيراً من العلم والتفقه ودرس التعاليم الإسلامية وقواعد الشريعة الغراء ومذاهب الأئمة والمجتهدين دراسة عميقة أنارت طريقه وهدته إلى جميع المآخذ والعلل والموجبات المحفزة على القيام بحملة إصلاحية جبارة لتطهير البيئة الإسلامية من البدع والملوثات التي أدخلت على الدين لمآرب نفعية وغايات شيطانية – رغماً عما يتجلى في البعض منها من شريف القصد وحسن نية العاملين على إدخالها.

لهذا رأينا أن لا يفوت قراء هذا الكتاب الإطلاع على تاريخ ظهور هذا المذهب القويم وترجمة المصلح الكبير الذي بشَّر به وركز على قواعده ونشر مبادئه وتعاليمه على أسس التوجيهات التي وضعها الإمام (ابن حنبل)، وهي الأسس التي أخذ بها الجهبذ الفهامة (محمد بن عبد الوهاب) دون بقية المذاهب الإسلامية الثلاثة الأخرى. كما أننا سنشير بإسهاب يفرضه علينا واجب الدراسة والتنقيب عما لجلالة الملك العظيم (عبد العزيز آل سعود) من صلابة العقيدة وحمية الورع والتقوى وتصميمه على تقوية دعائم هذا المذهب الصافي المناقب. ثم نأتي على بيان الإعجاب الذي أبداه العدد الوافر من علماء الشرق

والغرب بالطريقة الوهابية والصلابة الدينية البكر التي تتحلى بها قواعدها النقية وعليه نقول:

ظهرت بوادر الوهن والتفكك في أنحاء مختلفة من البلدان الإسلامية المترامية الأطراف وراحت الدول الاستعمارية تعمل على ترسيخ أقدامها في الهند ومصر واندونيسيا وشمال أفريقيا وأوساطها وشرقها وغربها وبعض أجزاء جزيرة العرب وغيرها من البلدان الآهلة بالمسلمين. فهذا المرض، مرض الخنوع والانحطاط المتفشي في معظم ديار المسلمين لم يستطع زعماؤها والمسيطرون على مقدراتنا أن يوجدوا له الوصفات الواقية من هذه العلل، وإن وجدوا شيئاً مما توهموا بأنه سوف يكون الدواء الشافي رأيناه فيما بعد قد انقلب إلى بوادر تزيد في محن الشعوب الإسلامية وترديها في أدهي المصائر وأمرها. يضاف إلى ذلك ما كان قائماً من نفار وشقاق سياسي بين الدول الإسلامية وتباين أغراضها ومذاهبها ومعتقداتها.

وعندما جلس (نادر شاه) أحد ملوك العجم على عرش إيران عام ١٧٢١ م نظر إلى حالة العالم الإسلامي فهاله ما رأى من انحطاط المسلمين واستفحال شر الاستعمار الأوروبي الجارف في معظم أمصارهم. فهداه بعد نظره وحسن بصيرته إلى الاعتقاد بأن التفكك الطارئ على الديار الإسلامية مصدره بالدرجة الأولى الاختلافات المذهبية، فراح يجرب أن يقتلع جرثومة هذا الداء عن طريق أحداث التفاهم بين إيران الشيعية وأكبر إمبراطورية إسلامية سنية في ذلك الحين وأعني بها الدولة العثمانية، حيث يلي ذلك تحالف سياسي تعقد بينهما بنوده بعد التفاهم المذهبي وتوحيد الشيعية والسنية على أسس دينية رئيسية.

وتدل الوثائق التاريخية التي بين أيدينا على أن المرحوم (نادر شاه) عمل كثيراً في سبيل هذه الغاية النبيلة حتى أنه إرضاءً للأتراك السني المذهب أمر بإلغاء العادات السقيمة التي درج عليها المفرطون في شيعتهم ببلاده كالطعن ببعض الصحابة الكرام في كل المعابد الإيرانية. ولكن مساعيه الشريفة هذه ذهبت ويا للأسف مع وفاته أدراج الرياح بعد أن مهد على غير طائل لمشروعه الديني والسياسي تمهيداً متواصلاً مدة أعوام عديدة وبذل في سبيل هذه الغاية جهوداً كبرى وأموالاً وفيرة رحمه الله وأحسن إليه.

ومن بعده قام في تركيا أحد سلاطينها الذين اشتهروا بحب العدالة والإصلاح وهو السلطان محمود الملقب (بالمصلح العادل) ليتمم ما بدأ به (نادر شاه) فكانت أول بادرة إصلاحية قام بها أن أمر بإلغاء وإبادة الفرق العسكرية الملقبة (بالإنكشارية) من لوحة الوجود بعد أن اطلع على جرائمها وفظائعها، وتسرب الطريقة (البكتاشية)[٢٢] إلى صفوف رجالها وقوادها وجنودها الذين كانوا يعتبرون أقوى جيش في العالم، ولاسيما في الفتوحات العثمانية العظيمة التي كان أسلافهم أبطالها. فوصلت بهم الحال في أخريات عهدهم بالفتح والفروسية أن أخذت هذه الشجاعة التي كثيراً ما اشتهروا بها تستمد مقوماتها من السكر والتعرض لكرامات الناس والعبث بكل فضيلة. ثم بلغ من انحطاط روح البسالة والوطنية والحماسة في رجال هذه الزمرة أن جحافلها البالغة ٥٠ ألف جندي فرأت في إحدى المواقع الحربية بمقدونيا من وجه خمسة آلاف جندي بلقاني...

---

٢٢ البكتاشية طريقة أو بدعة أدخلها بعض مشايخ الطرق في الأناضول على البلاد التركية وتاريخها طويل وهي ترمز إلى التصوف المتهتك القائم على شيء من العبث والإباحية واقتناء المرد من الغلمان.

وبالرغم عن استئصال شأفة هذه الفرقة الطاغية فأن السلطان محمود رأى تجاه الزحف الأوربي الجارف على ديار المسلمين أن يباشر بكل سرعة في إدخال إصلاحات مدنية وسياسية وإدارية على البلاد التركية أو بالأصح العثمانية تقوي من ساعد الدولة وتكوِّن منها سداً يقف بوجه التيار الغربي المخيف. فعمل كثيراً وتمكن من وضع (لائحته الإصلاحية) الشهيرة. ولكنه توفى رحمه الله قبل أن يتمم المشاريع الطيبة التي احتوتها تلك اللائحة القيمة.

الوهابية ومؤسسها محمد بن عبد الوهاب

وفي هذه الفترة قام الرجل المصلح الشهير (محمد بن عبد الوهاب) من أهالي (الحوطة) وقيل (العينية) وهو الأصح شمالي الرياض من أعمال (نجد) المولود عام ١٧٠٣ بحركته الإصلاحية الشهيرة التي خصصنا هذا الباب لدرسها وتمحيصها وبيان غاياتها وأهدافها الدينية من جميع وجوهها بلونها الساطع الذي شغل علماء الشرق والغرب ردحاً من الزمن وعلق عليها الكثيرون منهم تعليقات مختلفة الاتجاه متباينة النقد والاستقراء مما سنتكلم عنه بإسهاب حيث ننقل الأهم والمفيد من تعليقاتهم وآرائهم تلك، وهدفنا هو بالطبع أن يستوفي هذا الباب حقه من الإحاطة بكل ما له علاقة بذلك المصلح الفذ والمجتهد المؤمن.

ولكن قبل أن نبادر إلى ذلك لابد لنا من الإشارة هنا إلى أسلاف كرام من رجالنا المصلحين الذين قاموا فيما مضى، وفي فترات مختلفة من القرن التاسع عشر بحملات أو ثورات توجيهية إصلاحية حتى وسياسية في ديار الشرق كالذين سبق أن تكلمنا عنهم مثل نادر شاه والسلطان محمود وغيرهما أرادوا منها:

١- تطهير ديار المسلمين من الاستعمار.

٢- إيجاد وحدة إسلامية سياسية ودينية.

٣- إدخال الإصلاحات المدنية وبث أنوار العلم في جميع الأرجاء الإسلامية.

وكان أبرز هؤلاء السادة الكرام عليهم الرحمة والرضوان (الشيخ جمال الدين الأفغاني) و(الشيخ شامل الجركسي) و(الأمير عبد القادر الجزائري) و(المهدي السوداني) و(عرابي باشا) المصري وغيرهم ممن ذهبوا ضحايا الجهاد في سبيل مبادئهم وبالأحرى في سبيل الله والأوطان الإسلامية التي أرادوا لها العزة والسيادة والتحرر ثم التحضر ومجاراة الأمم الأخرى في نهضاتها. ولا بأس من أن نشير بإيجاز إلى أعمال وأهداف كل عبقري من هؤلاء العباقرة رغماً عن أن هذا الباب قد خصص لبحث المذهب الوهابي دون سواه. ولكن الإلمام بأعمال المصلحين المجاهدين من ارهاط المسلمين، قد ينير للقارئ الكريم بعض نواحي الجهود الكبرى التي صرفها هؤلاء الكرام وغيرهم من أسلافنا في سبيل بث روح الحياة في الشعوب الإسلامية وحلمها على طرح الخمول والخنوع والبدع وبعثها بعثاً جديداً قوياً يعيد لها ماضيها المغمور بالعزة والكرامة والحضارة الباهرة.

الأفغاني

فالشيخ جمال الدين ثار كما هو معلوم لدى كل مطلع على حياة هذا المصلح العظيم واصطخبت روحه الجبارة ضد الحكام والحكومات الإسلامية التي كانت راضخة لجبروت الأمم المستعمرة لعجزها عن فك قيود الذل والجهل المخيمين على ديار شعوبها، وراح يجوب الديار الشرقية بأجمعها حاثاً على تحطيم هذه القيود وإعلان الثورة ضد الملوك والسلاطين القابعين وراء جدران قصورهم والمترامين بأحضان التلهي بكل ما يتاح لهم من مغارم قامت على الفسق

والفجور والبذخ والإسراف في سبيل قضاء الشهوات وتخليد الحكم الفاسد لهم ولذراريهم من بعدهم ضاربين صفحاً عن شقاء الرعايا وجهل أفرادها وانحطاط جماعاتها والارتماء في أحضان الاستعباد والاستذلال للدول الأوروبية القوية البطش والجبروت.

وظل هذا الثائر الكريم والجهبذ اللامع والخطيب المفوه والعالم بكل ما هنالك يكافح ويناضل وهو يجوب الديار الإسلامية حتى والأوروبية أيضاً رافعاً عقيرته وشاهراً راية نقمته على الحكام والظلاَّم ودعاة الاستعباد والتحكم حتى قضي عليه في (اسطنبول) حيث مات مسموماً عقب مؤامرة دبرت له في قصر (دولمه بفجه). وبذلك ذوي نجم مصلح عظيم وعبقري أوجد من بين صفوف مئات الملايين من المسلمين المشتتي الكلمة والخاملي المكانة بدون أن يصل إلى أهدافه الشريفة القصد والنبيلة الغاية. وكل ما تركه من أثر لثورته الإصلاحية الكبرى أن خلف رهطاً كريماً من التلامذة والأنصار الذين مشوا على غراره بعد موته وواصلوا جهادهم وما برح هؤلاء المعجبون بمواهبه يواكبون حملته المباركة التي لا يخمد لهيبها ويتمشون على مناهجه الإصلاحية البارعة إلى اليوم في أجزاء كثيرة من ديار الإسلام.

الشيخ شامل

وفي خلال هذه الظروف الشديدة الوطأة على المسلمين قام الزعيم الجركسي (الشيخ شامل) عام ١٨٠٣ بثورته المشهورة على قياصرة الروس، وأضرمها ناراً مستعمرة ضد جبروتهم وتحكمهم في بلاد القفقاس والقرم والتركستان وسواها من الأقاليم الإسلامية. وظل يكافح ويناضل على رأس جيوشه وتابعيه البواسل المجاهدين الذين تجمعوا تحت لوائه من مختلف القبائل

والديار المستنيرة بنور الإسلام مدة تسعة وثلاثين عاماً متواصلة، كبد الروس خلالها مئات الألوف من القتلى وغرّمهم بإنفاق الملايين الوفيرة من الأموال التي هدروها في سبيل إخماد ثورته إلى أن انتهى الأمر بتغلب القوي على الضعيف... نتيجة إهمال العالم الإسلامي وتقاعسه وفي المقدمة الدولة العثمانية وحكومة إيران الإسلاميتين لم تتنازلا إلى إظهار أدنى شعور بوجود تلك الثورة الإسلامية في جوار بلادهما، تلك الثورة التي كان المجاهد البطل الشيخ شامل يرمي من ورائها إلى فك قيود الأسر وتحرير أمة يبلغ عدد أفرادها ٤٠ مليون نسمة من نير الاستعمار الروسي الجائر... وكان من نتيجة هذا التواني اللئيم من قبل الدول الإسلامية وبالأخص المجاورة له أن ضاعف الروس بعد ذلك ظلمهم وتحكمهم بالشعوب الإسلامية وحملهم الملايين العديدة منهم على المهاجرة. والذين ساعدهم القدر المشئوم على البقاء في البلاد الروسية ضبطت أملاكهم ومعابدهم وحرموا من حق الحياة حتى والعبادة التي يتمتع بها الشعب الروسي نفسه وما برحوا إلى اليوم يرسفون في قيود الاستعباد والمهانة!!

الأمير عبد القادر الجزائري

وهل نستطيع أن ننسى جهاد السبعة عشر عاماً الذي قام به هذا العبقري العظيم والمجاهد الكريم والبطل الصالح علامة زمانه وسيد قومه الأمير عبد القادر الجزائري في أواسط القرن التاسع عشر ضد الدولة الفرنسية التي أرادت أن تستعمر بلاده (الجزائر) وتضعها تحت تحكمها وتصرفها وتستنزف ثروة شعبها الأبي وخيرات بلاده؟؟

امتشق هذا الأمير النبيل سيف نقمته وقام يعلن الجهاد ضد هذا العدوان الصارخ. ولا ريب في أن الدخول بوصف هذا الجهد المبارك والبطولة الفريدة

التي أبرزها المرحوم الأمير عبد القادر يعد من قبيل تحصيل الحاصل، لأنه لا يوجد في كل من العالمين الإسلامي والأوروبي من لم يطلع على تفاصيل هذا الجهاد المشهور والمديد الأعوام الذي قام به الأمير المشار إليه والتي أظهر فيه مع الشعب الجزائري المجاهد الآيات الباهرة من البسالة والشجاعة والصبر على تحمل المكاره، مما راح مضرباً للأمثال. فلا ترانا هنا في حاجة إلى الاسترسال في وصف صفحات هذه الجهاد الذي كان يرمي:

١– إلى تحرير الشعوب العربية الإسلامية في شمال أفريقيا وشرقها وغربها وجنوبها.

٢– بث روح النهضة والثورة في كل الأمصار الإسلامية الأخرى اقتداءً بحركته الجبارة التحررية لتخليص بلدان المسلمين من جحافل المستعمرين وظلمهم.

٣– إدخال الإصلاحات بمختلف ألوانها بين علمية واقتصادية وسياسية على البلاد الإفريقية الإسلامية، وأعد لذلك منهاجاً يمكن الإطلاع عليه في كتبه ومؤلفاته أو فيما كتبه المؤرخون عنه.

ولكن ومع كل أسف نقول بأنه أصاب هذا المجاهد الكبير ما أصاب الذين تقدموه من الزعماء الذين ظهروا في مختلف الديار الإسلامية من إهمال أليم من قبل الدول والشعوب الإسلامية لحركته التحررية، فاضمحلت على توالي السنين قدرته على مواصلة الكفاح، واضطر في النتيجة مرغماً على الاستسلام ليد الأقدار التي لم تعنه على متابعة النضال لتأمين أهدافه السامية رحمه الله وبل ثراه بوابل غفرانه ورحمته.

المهدي وعرابي

رأينا فيما تقدم كيف أن الثورات الإسلامية المختلفة أخذت تتوالى في

معظم ديار الشرق الإسلامي ضد الدول المستعمرة كروسيا وإنجلترا وفرنسا، الأمر الذي راح يبشر بوعي صارخ أصاب الشعوب المنضوية تحت راية الإسلام رغماً عن الفشل الذي كان يصيب زعماء هذه الثورات الإلهية. وقد سرت روح هذه النهضة المباركة عقب ظهور القفزات المباركة التي قام بها كل من جمال الدين والشيخ شامل والأمير عبد القادر إلى وادي النيل، فلمسنا كيف ثار بعد ذلك المهدي في السودان وعرابي باشا في مصر على الاستعمار الإنجليزي الذي كان شره قد استطار في ذينك الإقليمين الإسلاميين.

وإذا استعرضنا وقائع (المهدي) و(عرابي باشا) مع الإنجليز في شتى المعارك التي دامت أعواماً مديدة يتضح لنا أن جهاد هذين الرهطين الكريمين كان يرمي إلى نفس ما رمى إليه الشيخ شامل والأمير عبد القادر من قبل، أي إبعاد الاستعمار عن ديارهم وتحريرها من ربقة الاستعباد ومنحها كافة الحقوق التي تتمتع بها الأمم الحرة المستقلة.

بيد انه من أين للإنجليز أو الروس أو الفرنسيين أن يتكرموا على المسلمين بهذه المنح السخية والمزايا التي تتمتع بها شعوبهم، وهم لا يريدون للبلاد الإسلامية غير التشتت والضعف والانحطاط؟ وكيف يتخلون في نفس الوقت عن الغنائم الكثيرة والكنوز الوفيرة التي تعج عجيجاً في ديار المسلمين وبطاحهم الغنية بكل شيء، بالبترول والنحاس والذهب واللؤلؤ والفضة والفحم والمعادن الأخرى الثمينة، هذا فضلاً عن الحبوب والأقطان والحاصلات المتدفقة التي تسبغ على بلادهم الفقيرة حياة الرحاية والبحبحة وتدر على خزائنهم الملايين الكثيرة من الموارد والمغانم؟؟ وإلى جانب هذا كله كانوا قد استحصلوا في فترات الغفلة التي كانت سائدة في قلوب الحكام المسلمين على الامتيازات العديدة لحفر المناجم ومد السكك الحديدية وإنشاء المرافئ والمصارف

والكهرباء والمعاهد العلمية والتجارية، فكيف يتركون هذه الخيرات كلها للمسلمين أصحاب البلاد وفي يدهم السيف البتار الذي يهدد الأرواح والمدافع المهدمة للمدن والأمصار، بينما لا يوجد في يد المسلمين إلا القوس والنشاب والتفرق والفساد؟؟!!!

إذن لابد من سحق روح التحفز التي أخذ المسلمون يظهرونها ضد جشع هؤلاء المستعمرين ومطامعهم، وإذن لابد من كبت صوت (المهدي) والتنكيل بجموع (عرابي) وهو ما وقع فعلاً، حيث ارتكب الإنجليز آنئذٍ شتى ضروب الظلم والاضطهاد والفظائع المنكرة في مصر والسودان كما سبق للروس والفرنسيين أن فعلوا في الجزائر والقفقاس... وهكذا ذهبت ثورة سيد السودان وزعيم مصر بين عشية وضحاها في خبر كان... وراح المسلمون يتخبطون في دويجر مستقبل مجهول، وما برحوا كذلك... حتى يأذن الله بالفرج.

الوهابية (عود على بدء)

اتخذت بعد ذلك الثورات التي كان يقوم بها بعض أرهاط المسلمين وزعمائهم في مختلف الديار الإسلامية لوناً آخر يتجلى بروح علمية تقدمية ترمي إلى إصلاح ما اختل من قواعد الدين وأسسه وتقويم ما اعوج من الشمائل والأخلاق والطباع الإسلامية الموروثة إذ رأى الذين يتحسسون بهذا الشعور أن اقتلاع البدع التي أدخلت على الدين الإسلامي يعود بالإسلام والمسلمين إلى العصور التي زهت فيها حضارتهم، وعظمت قوتهم وقدرتهم ووحدتهم ومتى تم ذلك تسنى لهؤلاء أن يستردوا مكانتهم التمدينية والسياسية والعمرانية تحت القبة الزرقاء وإرجاعها إلى سابق عزها وزهوها. سواء باللجوء إلى القوى المادية التي تتوفر لهم، أو بالمواهب الدينية والعلمية المحفزة التي محضتهم إياها تعاليم دينهم القويم.

ومن هؤلاء المصلحين الأفذاذ، المفكر الكبير والعالم التحرير المرحوم الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) النجدي التميمي. إذ يذكر القراء الكرام أننا آتينا في مطلع حديثنا عن هذا الجهبذ الحصيف على إلمامة تتعلق بإنعكافه منذ شب وترعرع على درس التعاليم الإسلامية وقواعدها الشريفة ومذاهب الأئمة والمجتهدين دراسة عميقة أنارت قلبه النبيل، وهدته إلى جميع المآخذ والعلل والموجبات المحفزة ليقوم على أثرها بحملته الإصلاحية الجبارة سعياً وراء تطهير البيئة الإسلامية من البدع والملوثات التي أدخلت على الدين لمآرب نفعية وغايات شيطانية وابتزازية – رغماً عما يتجلى في البعض منها من شريف القصد وحسن نية العاملين على إدخالها...

إن ترجمة حال هذا الجهبذ الكبير قاصرة ويا للأسف على ما ذكره عنه مؤرخو الفرنجة، وعلى النذر القليل الذي وقفنا عليه في بعض الكتب التاريخية التركية، وهي ضئيلة التفاصيل لعدم اعتناء المؤرخين المسلمين بتتبع خطوات هذا المصلح كما ينبغي، بل لعدم اعتنائهم بدرس وتدوين حياة كل عالم كبير من علمائنا أو مجتهد بارز المواهب من نوابغنا كالمرحوم (الشيخ محمد بن عبد الوهاب) المشار إليه. وهذا الإهمال يعد جريمة كبرى على العلم ورجاله الأفذاذ من أسلافنا والقائمين إلى اليوم بين صفوفنا. ومع كل منها نحن نقتبس عن كتاب (الوهابية) للجوّابة الإنجليز (رادينغ Rading) ما ذكره عن هذا المصلح الكبير ونضيف عليه بعض ما ورد عنه في كتاب (الدولة السعودية) للقائد السيد طارق الأفريقي. وبعد، نأتي على ذكر التعليقات التي أوردها عنه المستشرق البلجيكي الراهب (Duzis) دوزي ليجتمع لنا من ذلك كل ما بالإمكان جمعه عن حياة ومذهب وأعمال ومواهب صاحب الترجمة. ونكون بذلك قد أدينا بعض ما يجب علينا إيضاحه عن المذهب الوهابي وألقينا نوراً كافياً على ما غمض أو

أهمل من آثار وشخصية وفلسفة المرحوم المشار إليه رضي الله عنه.

يقول (رادينغ) أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أولد في قرية (الحوطة) من أعمال نجد وهو ينتسب إلى قبيلة (تميم). بينما ورد في كتاب (الدولة السعودية) إن الشيخ محمد ولد في قرية (العينية) الواقعة شمالي الرياض. وعلى كلٍ فالمعلوم أنه عندما شب وترعرع أخذ يدرس على والده الشيخ (عبد الوهاب) العلوم الإسلامية. ثم رحل إلى (المدينة المنورة) في سبيل إتمام تحصيله العلم. وبقي فيها زمناً طويلاً. ثم برحها إلى مكة ومكث هناك مدة سنتين، ذهب بعدها إلى القاهرة ودخل الأزهر وقرأ على أفاضل العلماء فيه. وعقب ذلك اتجه إلى بغداد والشام وعكف على مطالعة الكتب الدينية التي كانت مكدسة في المكاتب الإسلامية الشهيرة، وهي تحصى بعشرات الألوف.

فرسب في ذهنه بعد هذه الجولات العلمية والدراسات الواسعة والمديدة التي باشرها في كل عاصمة من عواصم الشرق تقريباً ومقارنتها بحالة المسلمين المنحطة، أن الإسلام مهدد دائماً تهديد بالاضمحلال لما تطرق إلى أسسه الشريفة من بدع وملوثات ارتج على أبنائه من جرائها تفهم حقيقة الدين الإسلامي وأهدافه الطاهرة السامية. فأخذت عند ذلك فكرة لزوم تطهير الدين الحنيف من سفاسف العابثين بنقاوته وقدسيته ومتانة قواعده وتعاليمه وإرجاعه إلى صفائه البكر تتجسم في مخيلته. ولهذا يقول الراهب (دوزي):

[إن (لوثر) المصلح البروتستنتي ثار على السفاسف التي أدخلت على دينه، والوهابي محمد بن عبد الوهاب ثار أيضاً نفس الثورة على البدع التي أدخلت على دينه...]

وهو يريد من ذلك أن يشبه حركة (محمد بن عبد الوهاب) الإصلاحية

بثورة (لوثر) على المسيحية الكاثوليكية... وهنا يتكلم العالم (رادينغ) تعليقاً على ذلك ويقول:

[... ولكن أين يجب أن يعلن هذا المصلح والعالم القوي ثورته؟؟ في مصر، في بر الشام، في اسطنبول، في إيران أو الهند، في المدينة أو مكة؟؟ كلا... إنه كان يخاف من أن تحبط مساعيه وينتهي أمره بالفشل والقتل!! فلم ير والحالة هذه بداً من إعلان صرخته الأولى في (نجد) مسقط رأسه. ولما كان أبناء هذه البلاد كلهم من البدو الذين لم يتطرق العلم ولاسيما العلوم الفقهية التي لها ارتباط كلي بأساس الدين إلى ديارهم إلا بقدر محدود جداً، فإن دعوته لم تلاقي هنالك الترحيب الكافي من قبل العشائر القاطنة فيها رغماً عن تحلي أفرادها وزعمائها في أكثريتهم الكثيفة بالتقوى والتدين...]

وتدل الاستقراءات التي وقفنا عليها في بعض الكتب التاريخية[٢٣] أن هذا المصلح لم يحرم من بعض الأنصار من أهل بلاده النجدية الذين لبوا دعوته وعلى رأسهم الرهط الكبير الأمير (محمد بن سعود) الذي رحب بهذه الدعوة وزوج صاحبها المصلح من ابنته. ولما علم أهل البلاد بأن الأمير المشار إليه قد اعتنق المبادئ التي دعا إليها المرحوم (محمد بن عبد الوهاب) والتي يمكننا أن نسميها بعد أو وصلنا في دراستنا إلى هنا بـ (الوهابية) أخذ السواد الأعظم من أمراء البلاد وأعيانها ومشايخها وأصحاب النفوذ فيها يقبلون أفواجاً أفواجاً على الدخول في ذلك المذهب الذي لقب بعد ذلك باسم صاحبه والداعي إليه ونعني به (المذهب الوهابي).

---

٢٣ تاريخ الدولة العثمانية المؤرخ التركي الشهير (أحمد مدحت) وتاريخ الوهابية (لرادينغ) الإنجليزي.

صحيح أن هدف الشيخ محمد بن عبد الوهاب الرئيسي كان يرمي إلى نواح دينية إصلاحية واجتماعية، ولكنه في نفس الوقت كان يرجو أن يدخل أنوار العلم إلى بلاده التي كانت البداوة تتمثل فيها بشكلها الفطري دون أن يخالطها أي وعي للشئون الدينية أو المدنية المألوفة في بقية الأمصار العربية الإسلامية كمصر وسوريا والعراق وغيرها.

وراحت الأقوال عقب ذلك تتضارب حول هذا المجاهد المجدد خارج القطر النجدي. فقام من اتهمه بالمروق والإلحاد، وأخذ آخرون يدعون بأنه يحاول نشر مذهب (القرامطة). وانتشرت في أوربا شتى الشوائع عن مذهب هذا الرجل اللبيب، وعلق عليها الكثيرون من المستشرقين تعليقات مختلفة متباينة. فشبهه بعضهم بـ (لوثر) البروتستنتي كما مرّ معنا، وآخرون رفعوه إلى مصاف الفلاسفة، حتى وجد أيضاً من جعله صاحب مذهب خامس في الإسلام بعد المذاهب الأربعة. ولكن اتضح بعد ذلك أن هذه التقولات المتضاربة بحق (الوهابية) كانت غير صحيحة، لأنها تبعد عن القرمطية وعما يسمونه بالمروق بعد السماء عن الأرض، وبالعكس فإن تعاليمها العتيدة وجدت منطبقة على نصوص القرآن والأحاديث النبوية. حتى أنه في عام ١٨١٥ سافر إلى القاهرة مندوبان عن الوهابية وقابلا والي مصر آنئذٍ وكان (محمد علي باشا الكبير). فأمر رهطاً كريماً من العلماء ومن رجال الأزهر يفتح باب المناظرة بينهم وبين ذينك الشيخين الوهابيين. فعقد الطرفان عدة اجتماعات طلب علماء مصر خلالها من المندوبين النجديين إعطاء التفاصيل الوافية عن المذهب الوهابي. فراحت المناظرات تترى بين الجانبين واتسع نطاق الجدل والتدارس حتى عقدت راية الفوز في النتيجة للوهابيين، وذلك بإقناع علماء مصر أن تعاليم المذهب الوهابي تنطبق بمجموعها على منطوق الآيات القرآنية وأحاديث الرسول صلى

الله عليه وسلم. وأغرب من هذا فقد أثبت الضيفان الوهابيان خلال تلك المناظرات الدينية أنهما يحفظان القرآن الكريم والمئات العديدة من الأحاديث النبوية.

فنشر علماء الأزهر على أثر ذلك بياناً أعلنوا فيه أنهم لم يروا شذوذاً دينياً في المبادئ الوهابية. وفوق هذا كان في جملة ما نقله المندوبان إلى مصر كتاباً خطياً في العقائد وضعه الشيخ (محمد عبد الوهاب) عن المذهب الوهابي. فطالعه العلماء في الأزهر وصرحوا بعد ذلك بلسان واحد قائلين:

(إذا كان الوهابية كما سمعنا وطالعنا فإننا نحن أيضاً وهابيون)

ما يحرمه الوهابيون وينهون عنه

بعد أن ألمنا إلماماً كلياً فيما يتعلق بكل ما قيل عن الوهابية ومنشأها والبواعث القوية التي عملت على خلقها، يجدر بنا أن نأتي هنا على بيان موجز لما حرّمنه الوهابية ونهت المسلمين عن استعماله وهاك نبذات جامعة منها:

١-التنبيه بعدم زيارة القبور وإقامة الأبنية عليها، ونصب الشواهد المزخرفة فوقها إتباعاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم (خير القبور الدارسة أو الدوارس) ويعتبرون أن مثل هذه المظاهر تنم عن الاتجاه إلى ميول (صنمية) وهي عبادة الأحجار والزخارف أو ما يقرب منها. بينما جعل الله أعمال الإنسان هي الميزان العادل لموقفه بين يديه يوم القيامة فلا لزوم لطلب الشفاعة من نبي أو ولي أو صالح والتملق إليه عند قبره وإضاءته بالشموع والنذر له بكل ثمين من الذخائر والمباخر. وإنما يمكن اتخاذهم وسطاء عند الله.

٢- التقشف باللباس وعدم الاكتساء بالأطالس والحرائر وكل ما هو زاهر ومحلّى بالمطرزات أسوة برسول الله الأعظم الذي كان يختار البسيط من

اللباس وقد قال عليه الصلاة والسلام (اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم) وهذا هو الدستور الذي يتمشى عليه الوهابيون.

٣- الإرشاد إلى منع التدخين لأنه لا يفرق في نظرهم عن المسكر المحرَّم في الدين الإسلامي باعتبار أنه يحدث نوعاً من التخدير الذي يقرب إلى السكر ويستشهد الوهابيون على صحة ذهابهم هذا بنصوص (ابن مالك) القائلة بمنعه إذ يعيب المذهب المالكي على المدخنين إدمانهم هذا ويعتبرونه عادة قبيحة مستكرهة

[وهذا يدل على أن عادة التدخين قديمة لا كما يقول عنها مؤرخو أوربا بأنها حديثة الاكتشاف والاستعمال].

٤- ترك البدع كحمل المسبحة ومد ذيول العمامة وصبغ اللحى والمظاهر الأخرى التي تحمل روح التبرج السمج الذي ينسبونه إلى التصوف والمتصوفين، وهو عن التصوف بعيد وأيما بعد...؟ وقد كان الغرض من حمل المسابح قديماً التسبيح لله، فأصبح على مرور الزمن غواية وراح الناس يقتنوها للتزين والمرح اللذين لا يتفقان مع روح التزهد والإعراض عن الزخارف والمظاهر الخادعة. ومن جملة ما نزع الوهابيون إلى تحريمه الذكر والطرق القائمة على الترنم بالمزمار وضرب الدفوف والشيش والدواسات في الحلقات اللاهوتية. وتنكروا أيضاً لخروج النساء في الجنائز نادبات ومولولات يضربن على وجوههن وصدورهن.

٥- لزوم ترك باب الاجتهاد مفتوحاً أمام كل مجتهد، استنباطاً لجواهر الدين الحنيف التي غفل عنها من سلف ليكتشف فضائلها من خلف.

٦- جعل شعار الإسلام كلمة التوحيد دون سواها من الرسوم والصور

التي تحمل التقليد القبيح للفرنجة، ألا وهي (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

٧- كانت للوهابية نظريات استثنائية بشأن فريضة لم نر لزوماً لذكرها هنا لأن جلالة الملك عبد العزيز آل سعود عدَّل فيها وجعلها تتمشى طبقاً للطقوس التي إئتلفها المسلمون من قدم الزمن.

وهنالك غير هذه القواعد التي تعد بحق مصفاة طاهرة لتنقية الدين الإسلامي وتطهيره من البدع والأدران التي علقت به والتي لا ينكر أضرارها كل مؤمن. ولا صحة لما قيل من أن المذهب الوهابي يمنع شرب القهوة؛ فالوهابيون يستعملونها ولكن ضمن دائرة الاعتدال.

والخلاصة فقد استطعنا أن نستخرج من تعاليم العلامة المرحوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأن مذهبه القائم على روح التمسك بالعقائد الإسلامية المستمدة من القرآن والحديث يلزمه حسبما أثبتت الوقائع والظروف العديدة من يقوم على تنفيذ بنوده الجوهرية. وهذا ما يلمسه كل مسلم يقظ في شخصية جلالة العاهل العظيم عبد العزيز آل السعود الذي يشهد له الخافقان وفي الطليعة العالم الإسلامي بأجمعه بأنه يفضل تمسكه بتلك التعاليم المستنبطة من روح الدين الإسلامي القويم قد أخذ شأن مملكته يعلو مجدها يتسع والعلم ينتشر والحضارة تسترد مكانتها في دياره العامرة، كما أن الثروة العامة تضخمت وخيرات البلاد عمت وتوفرت وهيبة الحكم تجلت بعظمتها في نظر الغريب والقريب. أما المذهب الوهابي نفسه فقد أضحي موضع إعجاب كل مسلم ناسك ومتصوف لا تلهيه عن عبادة الله زخارف الحياة وبهارج الدنيا والبدع التي أدخلها المثبطون على الدين. وكثير ما أمسى يردد ما قاله بالأمس علامة مصر في ذلك العهد الشيخ (أبو الهدى الصعيدي) عقب المناظرة التي قامت بينه وبين العلماء الوهابيين: [إذا كانت الوهابية كما سمعنا وطالعنا فنحن أيضاً وهابيون].

وعليه فنحن نختتم هذا الباب بما قاله السائح الأسباني المستشرق (أرماندو) الذي طاف عام ١٩٢١ جميع أنحاء نجد مرتدياً لباس البدو عن المذهب الوهابي، وهي شهادة رجل غير مسلم نطق بالحق والصواب بدون دافع شخصي يدفعه إلى ذلك غير دافع العلم. وها نحن نعرب كلمته الحقة عن كتاب (الإسلام) للمستشرق الإيطالي (ليبرتيني) قال:

[إن كل ما ألصق بالوهابية من سفاسف وأكاذيب لا صحة لها على الإطلاق. فالوهابيون قوم يريدون الرجوع بالإسلام إلى عصر صحابة (محمد) وإنما ينقصهم للوصول إلى أهدافهم المقدسة رجال متنورون مثقفون، وهم ويا للأسف قلائل في هذه الديار، كما تنقصهم أيضاً الدعاية لأجل إظهارهم على حقيقتهم البريئة الشريفة.]

ومن السخافات التي لفتت نظرنا محاولة بعض المؤلفين والمتتبعين الأوربيين إلباس الحركة (الوهابية) لوناً سياسياً رموا فيه إلى أن هنالك دافعاً أجنبياً خفياً أتى من الخارج لإحداث تلك الحركة حتى تقوم الفتن الداخلية في البلاد العربية وتشترك فيها الدولة العثمانية التي كانت تسيطر آنئذٍ على تلك البلاد وليتسنى إلى تلك اليد المحركة الاصطياد في المياه العكرة لتتوصل إلى تحقيق مطامعها الاستعمارية في الديار الشرقية وترسيخ قدمها في الأماكن التي يحلو لها التمركز الدائم فيها.

ولكن عرف القاصي والداني أن الأمراء السعوديين منذ عهد المرحوم الأمير عبد الرحمن فالأمير تركي فعبد الله بن محمد إلى عهد جلالة الملك المعظم الحالي عبد العزيز يأنهم يحملون راية الزعامة في جزيرة العرب وأن قبائل نجد وأمرائها يعدون أقوى القبائل العربية وأوسعها جاهاً ونفوذاً وأكثرها إباءً وأقربها

إلى الحضارة وأشدها نزوعاً إلى طلب التحرر والاستقلال ورفع يد الاستغلال والظلم عن ديار العرب، الأمر الذي يبطل سخافات أولئك المفترين أمثال: (**Duzis**) و(**Rading**) وغيرهما...

وإذا شئت مزيداً من التفصيل في هذا الصدد، فاستمع إلى ما قاله السياسي الأمريكي الكبير المستر (وندل ويلكي) الذي توفى مؤخراً والذي كاد يفوز برئاسة الجمهورية الأمريكية مزاحماً المستر (روزفلت) في الانتخابات التي جرت عام ١٩٤٢– نقول استمع إلى ما يقوله هذا العبقري عن أمراء آل سعود وزعيمهم العظيم جلالة الملك عبد العزيز في كتابه الذي وضعه بعد جولةٍ واسعةٍ قام بها في معظم أنحاء الشرق. قال:

[... إن أقوى الشخصيات التي استطعت أن أزن خلالها ومواهبها في أثناء زيارتي إلى ديار الشرق وأن أتوغل في سبر غور نفوذها ومراميها وأخلاقها وانطباعاتها النفسية والسياسية والدينية هي شخصية جلالة الملك عبد العزيز السعودي والأمراء الرجال السعوديين الملتفين من حوله. فهو مشبع بروح الدهاء وسعة التفكير والوعي السياسي البارز. ومطلع على جميع الشئون الدولية في شرق العالم وغربه. وفوق ذلك فإنه نقي ومتدين يحب الخير لشعبه وبلاده، بل ولبلاد المسلمين كلها. وهو عامل على رفع مستوى شعبه وجعله في مصاف الأمم القادرة القوية، ويلجأ إلى ذلك بما يعمل على إدخاله من إصلاحات شاملة ومواصلته نشر العلم بين أفراد مملكته الواسعة الأرجاء. ومن جملة مواهبه المختارة كرمه الذي عمّ الديار النجدية والحجازية وبالتالي الإسلامية. ولو أتيح إلى أمريكا أن تنقلب يوماً إلى النظام الملكي، لما اشتهيت أن يختار لها ملك إلا جلالة الملك عبد العزيز آل سعود الذي تلتقي عنده شمائل الملوك العظام وخصال الرجال الشجعان ودهاء الساسة الأفذاذ..] تأمل.

ومسك الختام لهذا الفصل الممتع هو ما ننقله فيما يلي نقلاً عن كتابنا (البعث) المطبوع عام ١٣٦٥ هجرية فيما يتعلق بصفات ومواهب سيد الجزيرة العربية أطال الله عمره وأبقاه ذخراً للعرب والإسلام وقد جاء في كلمتنا تلك:

[... إن في الحجاز ونجد اليوم ملكاً رفيع الشمائل، واسع التفكير، بارز العبقرية، ورع ومهذب أرفع تهذيب عرفته الملوك. لا يضمر للإنسان إلا الخير، ولا للعرب والإسلام إلا كل مجد وسعادة. ففي متناول هذا الرهط الكريم أن يضم شملاً شتيتاً من قوم يعرب وأن يهيم النصح والتوجيه من أعمق مواهبه السامية التي تتحدث عنها محافل الغربيين والشرقيين بإكبار وإعجاب، ويحضهم حمايته الغالية الثمينة التي تصلح لتكون سياجاً ودرعاً حصيناً فتنم على يده الكريمة نهضة العرب المرتقبة لله در أبي الطيب المتنبي القائل:

ولقــد رأيــت الملــوك قاطبــة   وســرت حــتى رأيــت مولاهــا

وكأنه يعني بقوله جلالة مولانا المعظم عبد العزيز صانه الله وأطال عمره.

الفصل الخامس

الفوائد العظيمة التي جناها الأوربيون

من العرب والإسلام بعد الحروب الصليبية

الباب الأول

نعود إلى متابعة البحث في مواضيع كتابنا، بعد أن استنفذ منا الباب السابق جهوداً طويلة في دراسة المذاهب والشيع التي تفرعت عن الإسلام وكانت سبباً في تفرق كلمة عناصره العديدة القوية، واستغنام الدول الأوروبية الفرص السانحة من وراء هذا التشتت والضعف وزحفها على الشرق والاستيلاء على التراث الغالي المنتقل إلى العرب من أسلافهم العباقرة – نقول نعود إلى متابعة البحث عن العوامل التي مهدت للأوروبيين سبل المجد والقوة وكونت منهم دولاً جبارة عتيدة سواء عن طريق التثقف بالعلوم الإسلامية أو باقتباس الفنون والأعمال والمخترعات التي أوجدتها الحضارة العربية في الأندلس ومصر والعراق.

وقد تكلمنا بتفصيل واف عما اغترفوا من معين هذه الخيرات الأندلسية. وها نحن نتكلم في هذا الباب عن تلك الفوائد العظيمة التي جناها الأوربيون من ديار العرب والإسلام بعد الحروب الصليبية.

تساوى الضرر والنفع لدى الأوربيين من جراء حملاتهم الصليبية العديدة على ديار المسلمين. وما كانوا يحلمون أو يفكرون بوقوعهم على تلك الكنوز والغنائم الجزيلة التي أوصلتهم فيما بعد إلى أعلى ذروات التمدن وأسمى مرافق القوة. وكل ما كان يدفعهم إلى توجيه تلك الحملات الجبارة كان رائده التعصب والكراهية للإسلام فقط ثم تأليب القوى العتيدة لدك معالمه والاستيلاء على بلدانه وإقامة دول وشعائر نصرانية مكانيها.

ولما لم يتسن للنافخين في بوق هذه الحملات العدائية الوصول إلى ما

أرادوا من أهداف وضيعة مزدخرة بالكراهية للدين الإسلامي هيأت لهم الأقدار عندما لمّوا شتيتهم وحاولوا العودة إلى أوطانهم منكسي الأعلام أن يظفروا بما لم تحلم به مداركهم المنحطة وطبائعهم الهمجية رأوا لواء العدالة يخيم فوق ربوع الشرق فلا ظالم ولا مظلوم، ولا سلطان إلا للحق والشرع، ورأوا معاهد العلم والثقافة العامة قد بلغت أعلى ذروات النضوج والتكامل، ورأوا الشيء الكثير من مجالي التمدن الرفيع والعمران والثراء والرقي فأدهشهم ذالك وحيّر عقولهم، ولاسيما عندما قابلوه بما هم عليه من جهل وفقر وفوضى في كل شئونهم الاجتماعية والعلمية فأخذ المفكرون – وقلما وجد في ذلك الحين مفكر في أروبا – يعملون على تدوين واقتباس كل ما وسعته قرائحهم واهتضمته عقولهم من آثار خلد بها العرب حضارتهم وانتظمت معها شئونهم العمرانية والزراعية والعلمية والفنية والتشريعية. وهاك ما توصلوا إلى تقليده في بلادهم على مر العصور تقليداً فذاً أدى لرفعهم فيما بعد من هوات الجهل والضلالة إلى أسمى مراتب التكامل والمجد العظيمين[٢٤].

١- درسوا الطرق المتبعة لتأسيس المحاكم واقتبسوا الشيء الكثير من الأحكام الحقوقية والجزائية بالإضافة إلى ما كانوا مصطلحين عليه من مخلفات التشريع الروماني.

٢- تعلموا أساليب تأسيس مرافق الدولة بدواوينها ومجالسها وأصول جباية الأموال وطرح الضرائب.

٣- اقتبسوا علم الكيمياء العضوية وصناعة الأجبان والألبان وكلها كانت مجهولة لديهم ثم أتقنوا تكوين عناصر الغذاء.

---

٢٤ راجع كتاب (المدنية العربية) لغوستاف لوبون.

٤- تفهموا أصول تربية المواشي ولاسيما تحسين نسل الخيل بما نقلوه معهم من خيول عربية أصيلة.

٥- وأتقنوا الفنون الزراعية وخاصة تسميد التربة الذي كانوا يجهلونه كل الجهل.

٦- والدباغة الفنية على مختلف أنواعها.

٧- وعلمي المثلثات والفلك.

٨- وصناعة البارود الأبيض.

٩- وسك النقود.

١٠- وفنون الصياغة وبهارجها والتفنن الذي اشتهر العرب به في صناعة الحلي والمصوغات والمرصعات.

١١- وصناعة الفسيفساء. والحبر الثابت والحبر الخفي.

١٢- والطب البيطري وأصول تربية الحيوانات الطيور الداجنة.

١٣- وفن التمريض وأصول تأسيس المستوصفات. والطب الجراحي أي (**spitalia**) وأصلها لفظة عربية مستخرجة من كلمتي (سجن البطل).

١٤- ومختلف ضروب الفروسية.

وقد ضربنا صفحاً عن تعداد مرافق أخرى اقتبسها الإفرنج عن العرب عقب تلك الحملات الفاشلة التي قاموا بها في مصر والعراق كصنعة (القبقاب) - لما في تفاهة قيمته من اقتصاد للجيوب الفقيرة التي كانت تشكل الأكثرية في أروبا - وكزرع الأرز وطهيه وقد بقي اسمه عربياً أي (**Riz**) إلى اليوم ولم يكونوا

يعرفونه من قبل. وصنع الحلويات والمعجنات وعمل الأوتار من أمعاء الحيوانات واقتباس بعض الآلات الموسيقية وطبابة الأسنان وغير ذلك مما يطول تعداده وشرحه هنا.

وقد نالت فيما بعد بلدة (بال) الألمانية شرف تأسيس أول محكمة قانونية على الطراز العربي الإسلامي. وصار أرباب الحاجات يحجون إليها من كل مكان ليقاضي المظلوم ظالمه ويستنجد المغدور بعدل هذه المحكمة لاستخلاص حقه من المختلس أو المعتدي القوي. وكتب على بابها باللاتينية – Solo Loiyum – أي (الحق فقط). وكانت تتكون من حاكم وعضو معاون له ومدوِّن للجلسات. ثم تعممت هذه المحاكم بعد ذلك في عدة بلدان أوربية وخصصت إحداها لمحاكمة قرصان البحار في (طولون).

وبدأ المفكرون من رجال هذه الحملات يعملون بعد رجوعهم إلى بلادهم على تقليد الدول الإسلامية فيما اقتبسوه كتشكيلات الدواوين والمجالس وبقية المصالح التي يتكون منها جهاز الحكومة الفعال، كما عملوا على تحسين أصول جباية الأموال وطرح الضرائب وتنظيم الميزانيات وإحصاء الدخل والخرج وإيجاد التوازن بينهما. وكانت مملكة (بافاريا) النموذج الحسن لهذه التجارب والتأسيسات، ثم تدرجت منها رويداً رويداً إلى بقية الممالك الأوربية. حيث كانت (بافاريا) تبعث بالخبراء إلى كل دولة ترغب في إدخال هذه التجديدات المدنية والتوجيهية على تشكيلاتها الحكومية.

وجاء بعد ذلك دور الالتفات إلى تأسيس دور العلم ونشر لوائه في المحيط الأوربي المفعم بالتردي والجهل والتعصب الديني والحروب الناتجة عن هذه النعرات المذهبية والإقطاعية والعرقية. فتأسس على يد الداعية الإنجليزي

(ردولف جوني) أول معهد علمي في لندره نفسها. وأدخل إليه أبناء الأمراء والأعيان والمتمولين. وأخذ في تدريس العلوم التي اقتبسها المتتبعون الإنجليز من الشرق بقدر ما وسعت مواهبهم الضعيفة فقسموا الصفوف على الترتيب الذي تعلموه في المعاهد الإسلامية هم أسلافهم عندما كانوا في مصر والعراق أي خلال احتكاكهم بالمسلمين في الحملات الصليبية التي قاموا بها طيلة ١٤٩ عاماً متواصلة. فكان بين هذه الدروس وفي طليعتها العلوم الفلسفية التي تتضمن نظريات (ابن رشد) الفيلسوف العربي وتطبيقها ومقارنتها بفلسفة (أفلاطون)[٢٥]. ولذلك خرجت من هذا الخليط الفلسفي بعد ذلك النظرية الخرافية (Légende) التي تمزج الأسطورة (Mythe) بالخيال وتخرج منها الآراء التي يظنها متفلسفو ذلك العصر صحيحة. وهي تتمركز بالعقيدة القائلة (بتحديد الفكر). وقد تكلمنا عن هذه الفلسفة مطولاً في مطلع هذا الكتاب.

وهنا نجد أن عناصر أوربية كثيرة أخذت تبعث بأبنائها وبناتها إلى معاهد

---

[٢٥] ذكر هذا بالتفصيل المؤرخ البلجيكي (أرنولد هار) (Arnold Harre) في كتابه (المدنيات العالمية أو العامة) les civilisations Générales في الصفحات ٦٢ و٦٣ و٨٥ و٨٦ ومما رواه هذا المؤرخ أيضاً أن (فيليب) ملك سكسونيا طلب من الخليفة صلاح الدين الأيوبي أن يسمح له باصطحاب الطبيب العربي (مرشد بن المنصور) معه إلى أوربا وكان قد داواه في القدس من جروحه المميتة بعد أن وقع أسيراً وشفاه منها فإذن له بذلك وكان هذا الطبيب العربي موضع تكريم عظيم في أوربا وسمي بطبيب الملوك وهو يعرف بالكتب الطبية الفرنجية باسم (Merchissure...) ثم راح هذا المعهد يدرس بقية العلوم الأولية كالحساب وأصول الكتابة الحديثة [ونعني بالحديثة ما اصطلح العرب على وضعه للمخاطبات والنثر والشعر]. وجرب بعض الأساتذة تدريس الكيمياء والجبر وبعض العلوم التي اقتبسوها من الشرق. وتدل التتبعات التاريخية على أن الإنجليز نجحوا في إحداث نواة علمية في البيئات الراقية سواء في لندره أو بعض المقاطعات الأخرى من بلادهم.

إنجلترا العلمية الجديدة ليتلقى هؤلاء مختلف أنواع العلوم فيها – وكانت قد اشتهرت وتوسعت الدعاية لها في كل مكان بأوربا – وإليك البرنامج التدريسي الذي اصطلحت عليه كلية العلوم في لندره ترجمناه عن معجم لاروس (١٩٢١).

(١)– الفلسفة الرشدية (٢) علم الفروسية عند العرب (٣) فن الصيدلة المقتبس من مصر (٤) الحساب (٥) الجبر وهو من العلوم العربية (٦) فن الطهي الحديث (٧) فنون الموسيقى وتطبيقات مصطلحاتها الشرقية على السليقة الموسيقية الإفرنجية (٨) الكيمياء العضوية وهي من وضع العرب وتتضمن أصول صنع الألبان والمعجنات ومزج العناصر التي تتكون منها أنواع المغذيات (٩) الطب البيطري وغيرها من الدروس الضرورية التي لابد منها لكل مدرسة...

وأنت تجد أن هذا البرنامج يشكل خليطاً عجيباً من الدروس أو العلوم المختلفة والتي لا تتناسق مع أصول التدريس المتبع في معاهد الشرق. ولكن أرادوا أن يجمعوا التوجيهات العلمية في حملة واحدة يتفرع عنها فيما بعد تنسيق التعليم في معاهد مختلفة. وبتعبير أصح أرادوا تخريج الأساتذة والخبراء لتأسيس المدارس والكليات المنظمة في مختلف أنحاء بلادهم حتى وفي المقاطعات الأوروبية الأخرى أيضاً.

وقد وجد من امتدح الإنجليز على نهضتهم هذه بالرغم عما خالطها من الفوضى وجهل التنسيق العلمي كالعالم المعروف (سن بي دومن). ولكن الحقيقة التي يجب أن تقال في هذا الصدد، هي أن الفضل في نجاح هذه المعاهد كان يرجع إلى الوعي العجيب الذي ظهرت بوادره على الشعب الإنجليزي خاصة بعد عودة الحملات الصليبية من الشرق.

أما تأسيس دواوين الحكومات على الطريقة العربية، فكان قد سبق العمل به في مقاطعات فرنسا الجنوبية المتاخمة لحدود الأندلس. حيث جعل لكل مصلحة ديوان له رئيس ومسجل، بعد أن كانت تدار كلها جملة واحدة من قبل هيئة ضامنة أي متعهدة أو ملتزمة تأخذ على عاتقها الإشراف على هذه الأعمال!! فتحصل مواردها وتدفع لرئيس البلدة ويدعى (**Mer**) جعلاً سنوياً قد اتفق عليه عند توقيع العهد بين الجانبين.

وهكذا تدرجت تشكيلات الدواوين إلى التنظيم رويداً رويداً حتى أصبحت تشبه ما كان مصطلحاً عليه لدى الحكومات الإسلامية. ثم انتقلت هذه الأساليب الإدارية إلى بقية البلدان الأوربية وأخذ يطرأ عليها التحسين والترتيب إلى أن اتخذت شكل الدوائر التي تشاهدها اليوم في بعض البلدان بحالتها الابتدائية كاليمن والحبشة مثلاً.

وأيقظت هذه الخطوة في بعض الاقطاع الأوربية روح التفكير بالعناصر الواعية لتجديد تكوين الصلة الناظمة للروابط التشريعية التي تربط الشعوب بحكوماتها فراحوا يقلدون العرب في تأسيس المجالس الشورية المحدودة الصلاحيات والقاصرة على إبداء المشورة للقوة الإجرائية وإلفات نظرها إلى الحاجات الملحة المتعلقة بشئونهم الحيوية، وتواضعوا على اقتباس الأنظمة المعمول بها في هذا الشأن بالمقاطعات الأندلسية الشمالية القريبة من الحدود الأوربية. فخضعت لهم بعض عوامل التنظيم من وراء هذا التقليد الحسن، وكان يسعفهم على المضي في إدخال التحسن عليها عودة أبنائهم الطلاب الذين يكونون قد أتموا دراستهم في معاهد الأندلس، فيعملون على مواصلة التجديد في جميع النواحي سواء في دوائر الحكومات أو مرافق البلاد الصناعية والاجتماعية والزراعية.

وكان حسن الحظ يواتي الشعوب الأوربية من جهة أخرى بما يفد على سواحل قارتهم من التجار العرب حيث استفادت هذه الشعوب الشيء الكثير من هذا الاحتكاك سواء من بعض وجوهه المادية أو الأدبية فقد روى (العرق الطيب) أن تجار مصر كانوا يحملون إلى أوربا الخيول المطهمة والأبقار الحلوبة وأنواع أخرى من المواشي فيقبل الأغنياء على شرائها واستئجار أبناء العرب الخبراء بفن البيطرة وأصول تربية الحيوانات، وهؤلاء كانوا يرافقون على الأكثر التجار في سفنهم ليشتغلوا بأجور كبيرة في الحقول الزراعية الواسعة ببعض المزارع في مقاطعات (توسقانا) وسفوح (التيرول) ووادي (الرين) وجنوب فرنسا.

وقد اقتبست أوربا من خدمات هؤلاء الخبراء فوائد فنية عظيمة جداً، إذ أدخلوا على الطرق الزراعية تحسينات خطيرة فعلموا المزارعين الفرنج أصول تسميد التربة التي كانت أوربا تجهلها كل الجهل مما أفاض على مزروعاتهم الخير والبركة. وكان التجار العرب يشترون من بنادر أوربا بما يجمعون من الأموال السلع التي تفتقر إليها بلادهم، وخاصة جلود الحيوانات فيدبغونها ثم يبعثون بقسم كبير منها إلى الديار الأوربية ويبيعونها بأضعاف أثمانها التافهة.

فكان من جراء ذلك أن تنبه الأوربيون إلى وجوب تأسيس معامل الدباغة في بلادهم لتوفير الأموال الكثيرة التي يخصصونها لشراء الجلود المدبوغة من مصر وسوريا وبلاد المغرب العربي. فسافر بادئ ذي بدء أحد أثرياء (البندقية) وكان والده – على ما روى العرف الطيب – عربياً وأمه إيطالية ويدعى شريدر (Chrido) إلى مصر وأخذ يعمل على استئجار بعض الخبراء بفن الدباغة ويغريهم بالأجور الباهظة. وتمكن في النتيجة من استصحاب بعض المتخصصين إلى بلده (البندقية) وأسس مدبغة كبرى. وكان الأوربيون يستعملون الجلود المكشوطة والمزخرفة بالألوان الابتدائية التي تزول عندما لحق بها الماء، ومن

هنالك يبدو أن هذه الصناعة العربية أخذت تروج وتنتشر في كل بلد أوربية تقريباً.

وكما اتضحت مما تقدم الطرق والمناهج التي طبقها الغربيون في اقتباس الصناعات والعلوم الإسلامية عقب انتهاء الحروب الصليبية وما سبق ذلك من المغانم التي ظفروا بها عن طريق الأندلس أخذوا أيضاً يواصلون العمل تارة باستجلاب الخبراء والفنانين العرب وتارة أخرى بجهودهم الخاصة التي تهذبت وتم لها التوجيه على يد بعثاتهم العلمية. فأحدثوا الدور الخاصة بسك العملة على الأصول الحديثة المتبعة في تلك العصور لدى دول الشرق. وتعلموا صناعة سكب قطع الفسيفساء ذات الألوان والنقوش الجميلة الثابتة وعمل الصباغات والحبر الملون والحبر الخفي. وكشفوا عن الطرق الكيميائية التي يستعملها العرب لصنع البارود الأبيض.

وأوفدت إنجلترا بعض الصاغة إلى القاهرة عام ١٦٤٠ لصنع تاج الملكة حنا فيبورج فعادوا به وكان أجمل تاج وضع على رؤوس الملوك والملكات. وتسنى بهذه المناسبة لهؤلاء الموفدين أن يتقنوا فنون الصياغة العربية وبهارجها وصناعة المصوغات والحلي الخاصة بالزينة النسائية وسواها.

وعندما توفر للأوربيين اقتباس الشيء الكثير من الفنون والعلوم والصناعات الإسلامية، التفتوا إلى التحري عن الوسائل التي تقوي فيهم ملكة القتال على الأصول الحربي المتقن الذي شاهدوه أثناء زحفهم على الشرق بالحملات الوحشية الهوجاء التي قاموا بها، والتي انتهت بخذلانهم وتجرعهم الموت بمختلف أنواعه. فأخذوا يتعلمون فنون الحرب والفروسية تحت إشراف أبطال العرب الذين وقعوا أسرى في معركة (بواتيه) التي جرت في فرنسا بين (الغافقي)

و(مارتل) مما سنتكلم عنه مفصلاً في (الباب الثاني) القادم. وبين عشية وضحاها أصبح لمعظم الدول الكبيرة في أوربا جيوشاً قوية منظمة على أحدث طراز عرفته تلك القرون. ثم أضافوا إليه تعلم التمريض ومداواة الجرحى والمرضى بالمستوصفات التي أتقنوا أساليبها الطبية الإسلامية. وكلما مرت السنون زادت هذه الدول التي تسرب الانتعاش المدني إلى جميع مرافقها وبيئات شعوبها في تحسين أحوالها ومجتمعاتها ومؤسساتها ومعاهدها العلمية حتى توفرت لها كل الأسباب التي تخلع عليها مؤهلات التحضر والرقي، بينما كانت الشعوب العربية الإسلامية في أمكنة أخرى من هذه الكرة تمشي بخطوات واسعة إلى عكس هذا الاتجاه الذي مشت إليه أوربا، أي إلى الانحطاط والعدم، إلى التفرق والتقهقر، إلى الفقر والجهل، إلى الموت بين أحضان الذل والعبودية فلا حول ولا قوة إلا بالله...

الباب الثاني

ملاحظات ودراسات لابد منها

والشيء العجيب في انهماك أوربا وشغفها باقتباس أنوار التمدن الإسلامي وتبني جميع آثاره ومخلفاته وفضائله، أنه سابق للقارة الأوربية أن استقبلت قبل المدنية الإسلامية مدنيتين فذتين، انتشرتا وعاشتا ردحاً طويلاً من الزمن في الأقطاع الشمالية والجنوبية منها ألا وهما المدنية اليونانية، والمدنية الرومانية.

فالأولى التي انبثقت أنوارها في (أثينا) بقيت تخيم على أرجاء أوربا الجنوبية الشرقية بظلال علومها الوارفة عصوراً مديدة. ولا تسل عما جرّته هذه العلوم وراءها من الفنون النفيسة كالنحت والتصوير والموسيقى وهندسة البناء وعمران المدن وغيرها من آثار التحضير والتثقف والرفاء وعملت من ثم على نشره وتوسيعه إلى أماكن كثيرة من الشرق. ولكنها – وهذا من أغرب ما توقع لهذه المدنية اللامعة – لم تستطع أن تخطو خطوة واحدة إلى الشمال، أي إلى المقاطعات الأوربية وحتى المجاورة إلى البلاد اليونانية، كأن قيوداً حديدية قوية كانت تحد من سيرها وتخمد أنفاسها العطرة. فلم تسمع أو تقرأ بأن المدنية اليونانية تركت أثراً علمياً أو عمرانياً في الحوض الأدرياتيكي وما يخيم حوله من دول كالصرب والمجر والبلغار والرومان والتشك والجرمن، اللهم إلا النزر اليسير من تفشي بعض النظريات الفلسفية الأرسطاليسية التي لقيت بعض الرواج ولوقت محدود بين الشعوب الجرمنية ثم نسيها القوم وهجروها لتعسر فهمها ولطرقها أبواب القضايا المنطقية التي لا تتسع لها ذهنية الأوربيين الشماليين في تلك العصور المظلمة التي كانت تخيم عليهم والثانية، وهي المدنية الرومانية وقد

بزغت شمسها في آفاق (رومية) استطاعت أن توسع ملكها وتنشر لواء عظمتها في معظم بلدان أوربا والشرق وخفقت أعلامها فوق ربوع إنجلترا وفرنسا وجرمانيا وبقية أمصار القارة الباردة عصور طويلة أيضاً. ولكنها رغماً عن قوة سلطانها وبديع آثارها وأنظمتها وروح الشورى والديمقراطية السائدة في تشريعها وقوانينها، فإن الشعوب الأوربية لم تعرها سوى الانكماش والتقزز عن دهاقينها والتنفر من جبروتها الجارف. وإذا فتشت عن الأسباب الداعية لهذا الانحراف العجيب الذي بدر من الأوربيين نحو المدنية الرومانية الباهرة تجده منحصراً في أن هذه المدنية لم يكن لها لون ثقافي علمي، بل كانت مدنية فتح وتسخير وغطرسة، وهذا ما أجمع عليه العلماء المؤرخون في أوربا الحديثة.

لا نكران بأن الرومان نظموا المدن وعمروا الأمصار وأوجدوا آثاراً خالدة في هذا السبيل العمراني الباهر. ولكنهم كما يقول (أُوغست له ئر): "لم يلتفتوا إلى تثقيف وتعليم الشعوب التي تحكموا بمقدراتها دهراً طويلاً. فكان دأبهم إنشاء الدور العظيمة والملاعب والهياكل الدالة على عظمة سلطانهم. وكل ما فعلوه من الناحية التوجيهية والايقاظية للأمم التي استعمروها أنهم حاولوا نشر الديانة المسيحية والتصوف الديني في أوربا بعد أن رسخ في رومية ثم نقلوا جهودهم هذه إلى ديار الشرق وتوفقوا في إيجاد ثورة ونقمة على روح الإلحاد الذي كان يسود العالمين الغربي والشرقي كما أنهم نظموا روح القانون المدني وأوجدوا له فلسفة قوية تهدف إلى نشر لواء العدالة بين الناس. وهذا التوجيه الديني وما تلاه من التشريع الحقوقي ما كان ليحرك مشاعر الأوربيين خاصة نحو الأخذ بتلباب الحضارة الرومانية، لأن الدين غير العلم والفن والصناعة. ولأن نشر الحقوق المدنية بين الشعوب المحكومة أو المستعمرة لا يقومان من عوامل الجهل السائد بينها، ولا يزيل غصة التحرق والتلهف على طلب التحرر من قيود

المستعمر الجبار، ولهذا لم تلتف الأمم التي كانت تخضع لجبروت الرومان إلى ما حباها به هؤلاء المتألهون من أنظمة صارمة وهياكل قائمة ومعابد مزوقة وقصور مشيدة"

هذه كلمات رصينة للمؤرخ (أُوغست له ئر) تدلك على أن المدنية الرومانية لم تفز من مستعمراتها في الغرب والشرق بطائل، ولم تستطع بعد عهد طويل قضت في السيطرة على شعوب كثيرة أن تترك أثراً ثقافياً أو تحضيرياً يرمم من جهلهم ويقوم من انحطاطهم وينير لهم جوانب الحياة التي كان الظلام يسودها من جميع أطرافها.

وعلى هذا يمكننا أن نعود إلى إعطاء الجواب عن سبب انهماك أوربا وشغفها باقتباس أنوار التمدن الإسلامي وتبني جميع أثارة ومخلفاته وفضائله. ولعلك تجد في الكلمات التالية لأكابر علماء أوربا ومؤرخيها بعض ما ينير لك النواحي التي تطلب الجواب عليها. مثال ذلك، قال (غاستون دومرغ) أحد رؤساء الجمهورية الفرنسية سابقاً في كتابه (Les Civilisations des Orientaux) أي مدنيات الشرقيين ما تعريبه:

[أن العرب كانوا أرحم الفاتحين وأكثر الأمم الناهضة القوية شهامة وعدلاً وهذه العوامل النبيلة قد ساعدت على انتشار سلطانهم وخضوع الأمم لحكمهم العادل الشريف.]

وقال (غوستاف لوبون) في كتابه الضخم (La Civilisation Arabe) أي المدنية العربية ما نصه بالحروف:

[لقد بلغ من نبل الدعوة التي حملها أبناء الجزيرة العربية إلى العالم في كل مكان توجهوا إليه، أن أصبح قادة هؤلاء الأقوام الذين تبينوا أن بلادهم

ستكون ممراً لجحافل العرب يترقبون في لجج وشوق اقتراب ساعة ظهور تلك الطلائع المتهللة نصراً والحاملة لشعلة العدل والرحمة والحضارة حتى يقدموا القرابين ويذبحوا الذبائح لأبطالها. ذلك لأن سمعة الطهر وسمو الأهداف كانا يسبقان خيول أبناء العروبة المجليّة في فيافي آسيا وأفريقيا. وكانت تلك الخلال المحببة ينتشر عبيرها العطر على الناس قبل وصول العرب إليهم بألوف الفراسخ.]

وقال (جون دوانيورت) في كتابه (العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى) ما يلي:

[المرجح أن معركة (Poitieh) بواتييه التي نشبت بين "عبد الرحمن الغافقي" و"شارل مارتن" بأواسط فرنسا وانتهت بتقهقر العرب كانت أعظم عامل على تقلص ظل المدينة العربية عن الغرب. ولو فاز العرب في هذه الموقعة الكبرى لكانت أوربا اليوم عبارة عن مقاطعة عربية إسلامية بدون ريب...]

وقال المستشرق الإيطالي "ليبرتيني – Libertini" في كتابه "L'islamissime" أي "الإسلام في أمجاده" ما تعريبه:[٢٦]

[... إنني أكاد أعتبر أقطاب الأندلس وجزيرة العرب – عندما ضاء سناء الحضارة العربية بفضل جهادهم والعلم المنتشر في ربوعهم – أكبر مجرمي العالم. لأنهم لم يكتفوا بإفناء بعضهم بعضاً، بل تعدوا ذلك إلى وأد ألمع حضارة أوجدها إنسان على وجه الأرض. وكانت لم تزل تترعرع في أحضان النهضة الإسلامية الخارقة. فلو أتاح لها أربابها والعاملون على إشعال قبسها الوضاء

٢٦ نقلنا كلمات دومرغ ولوبون وجون دوانبورت وليبرتيني عن كتابنا (البعث) ص ٨ و ١٠ و١٧ و٤٧.

الباهر أن تمشي في سبيلها إلى التكامل لما بقي على الأرض إلا كل عربي أو مستعرب. ولما كان غير الإسلام ديناً للمجموعة البشرية. فاكتفى الناس شر الفتن والحروب والانقسام إلى دول ونحل وملل لا يحصيها قلم، أو تجمعها جامعة مهما سمت بجبروتها ومتين انسجامها...]

هذه نتف من أقوال علماء الغرب ومؤرخيه. ونظن أنها تغني عن الإسهاب في الأسباب التي حملت أوربا على تبني معظم شعائر ومصطلحات ومخلفات المدنية الإسلامية والانهماك على تلقفها بنهم أشبعها بعد ذلك علماً وحضارة وقوة ويقظة وتنظيماً وغناء وترهيباً وعظمة لا تداني ولا تغرب شمس عن هذه الأمجاد الباذخة العتيدة.

كان اليونانيون يتمركزون في مدنيتهم على الفلسفة الكلامية وبهارج الأقوال فقط. أما العرب فقد كانوا يتكئون في حضارتهم على الفلسفة العلمية من جميع نواحيها.

وكان الرومانيون يستندون في مدنيتهم على الأبهة والعمران والاستعمار وحسب. ولكن العرب كانوا يضيفون إلى آثارهم العمرانية الخالدة نشر ألوية العلوم والفنون والصناعات والمخترعات المفيدة للمجموعة البشرية، ويزيدون على هذا كله أيضاً رحمة تشمل الكبير والحقير بظلها الظليل وعدلاً يرفرف بأجنحته الندية الحنونة على الشعوب والملل من أي دين كانوا.

كان اليونانيون لا يقرون بفلسفتهم قواعد الأخلاق الاجتماعية، وكانت الميول العامة أقرب إلى الإباحية والعري لافتنانهم بمظاهر الجمال من أي نوع كان وبجانب ذلك كان العرب يقدسون القواعد الأخلاقية ويحرِّمون الإباحية ويدعوان إلى طاعة الله والخضوع لنصوص العدالة الربانية.

وكان الرومانيون ينظرون إلى الشعوب التي يستعمرونها كالأجراء الذين يجب تسخيرهم لخدمة العظمة الرومانية. وكان العرب يعاملون الغير بالرأفة والرحمة ويساوونهم معهم في الحقوق والواجبات ويعملون على تعليمهم وتمدينهم بكل الوسائل الممكنة.

فكيف لا تشغف الشعوب الأوربية بعد هذا كله بالمدنية الإسلامية وتتبع آثارها وتمسك بتلبابها وتعمل على الارتواء من سلسبيل كوثرها الصافي البراق؟ وكيف لا تتنفر أو تتقزز من روح الإباحية والافتتان بالخيالات (الأثينية) الواهية؟ ثم كيف لا تعرض بإباء واحتقار من غمائر الاستعمار والتجبر اللذين كان أبناء (رومية) يريدون نشر رواقهما المشحون بالكبرياء والأنانية فوق ربوع أوربا الضعيفة الجاهلة، في حين أن أوربا هذه كانت ترقب نفحة مؤاساة وتطبيب من مداوٍ رحيم لأمراضها الاجتماعية وفقرها المدقع في كل ناحية من نواحيها؟

الباب الثالث

عود على بدء

بعد معركة بواتييه - العرب في جنوب إيطاليا

بعد معركة بواتييه

لا نرى هنا بداً من العودة وفي هذا الباب خاصة إلى ذكر الأثر الذي تركته معركة (بواتييه) في مقدرات الأمة الفرنسية وبالتالي الأوربية وكيف أنها لم تهيئ لها الظفر في ميدان الحرب فقط – وهذا كان مصدره العرب أنفسهم لأنهم توغلوا كثيراً إلى الشمال من بلاهم وابتعدوا عن مراكزهم التي تمدهم بالذخائر والمؤن والرجال اللازمة لمواصلة القتال – بل مهدت لهم كما سبق وذكرنا أن يظفروا عن يد العرب أنفسهم بظروف ثمينة جداً وغير مرتقبة مهدت لهم سبل التجدد والتمدن وما كانوا ليحلموا بها من قبل أو يأملوا الوصول إليها ولو كرّت عليهم عشرات القرون. فتجليات القدر ومفاجأتها لا يدرك كنهها إلا مسيِّر هذه الأقدار، إذ له في خلقه شئون بعيدة الغور كما له في توجيه مصائرهم آيات أحكم وضعها كما يشاء. وها نحن نتكلم عن تلك الاتجاهات المفاجئة وما جرت وراءها من انقلابات سخية أدت إلى تحويل وجه التاريخ كما سترى.

من المعلوم أن الحروب في كل زمان ومكان تنتهي بوقوع القتلى والجرحى والأسرى من كلا الجانبين المتحاربين كما وقع في معركة "بواتييه" حيث أسر الأعداء من جيوش العرب ما لا يقل عن ٣٠٠٠ رجل وجد بينهم بعد التحقيق في شخصياتهم عدد غير قليل من الخبراء في صنع الأسلحة والبارود والطبابة والصيدلة والتمريض والبناء وصنع الأدوات الثقيلة وبناء الجسور وغيرهم من

أرباب الفنون والصناعات، كما وجد المستشارون من أهل العلم والأدب والشرائع ولا غرو فقد كان من عادة العرب أو الجيوش الإسلامية أنها كلما تحفزت للفتح واستعدت له يأمر قائد الفيالق الزاحفة بأن ترافق الحملة رجالات من أرباب كل حرفة، ولاسيما الحرف التي لها علاقة مباشرة بالحرب وبالمعدات الحربية والبناء وشرائع المعاهدات وجماعات الوعظ والإرشاد والعلماء في فنون الطب والجراحة والصيدلة والأخلاقيات والاجتماعيات وتواريخ الأمم وألسنتهم وعاداتها[٢٧] لأن أغراض العرب من هذه الحملات ما كانت ترمي من وراء شن تلك الحروب والغزوات إلى بعث الإرهاب وبث السيطرة والجبروت في قلوب الناس، وإنما كانت أهدافهم أسمى وأعلى من هذا كله. فالعرب كما نعلم يحملون رسالة نبيلة ترمي إلى نشر لواء الحضارة والنور والإيمان والسلامة والعدل بين الأقوام القريبة والبعيدة مهما شط مزارها، وقد برعوا في هذا القصد الجميل إلى حد رأيناه مثار إعجاب المؤرخين الأوربيين أنفسهم كما سبق ونقلنا ذلك بالتفصيل في فصولنا المتقدمة.

فلا عجب والحالة هذه إذا رأيناهم يجندون أهل الفن والصناعات والعلوم ليرافقوا الحملات الحربية، ويتركونها تعمل وراء الصفوف على نشر ألوية الحضارة والعلم ومختلف الصناعات والفنون، كما كان فريق آخر يعمل للوعظ والإرشاد والهداية وبعث الحياة في القلوب الخاملة والعقول المتحجرة ليهدوا الشعوب الضليلة إلى مثاوي النور والأمان ومراحل التمدن والإيمان الواعي.

وهكذا كانت حملة "عبد الرحمن الغافقي" على فرنسا ترمي إلى نفس هذه الأهداف السامية. ولما قدر لها الفشل ورسب في ميدان المعارك التي أثارها من

[٢٧] تاريخ فالبير Falier

رسب من الأسرى العرب الذين تكلمنا عنهم آنفاً، تلقفتهم أيدي الأعداء كغنيمة باردة، وراحوا على توالي الأيام يستغلون مواهبهم التي كانت يتعطش الفرنجة إلى استغلالها واستثمارها بالنظر لشدة حاجتهم إليها وكيف لا وقد كانوا غارقين في بحور مدلهمة من الضلال والفوضى ويحدثك عنهما مؤرخوهم الأواخر بصحائف سوداء تكشف لك عن المهاوي والمخازي التي شدتهم إليها أشطان التثيب والجهل وجعلتهم عبيداً أرقاء ووحوشاً ضارية.

وأول من تنبه لأمر هؤلاء الأسرى كان رجال الدين ثم شاركهم في هذا الشعور جماعة ممن سبق لهم أن أتموا دراساتهم وثقافتهم بالمعاهد الإسلامية في الأندلس، فألفوا بادي ذي بدء كتلة أسموها باللاتينية (Cenirosomus) ومعناها (النواة المركزية) راحت تعمل على انتقاء ذوي المواهب المختلفة من بين هؤلاء الأسرى وتعمل على الترفيه عنهم وتبذل لهم كل الوسائل التي تستميلهم وتؤمن راحتهم وتزيل عوامل الوحشة من قلوبهم – وهذا الوعي من جانب الفرنسيين فقدره لهم الكتب التاريخية العربية والإفرنجية كل التقدير، لأنه فضلاً عما فيه من عمل إنساني رائع كان يدل دلالة واضحة على أن هناك لفتة واعية تكمن في بعض الصدور نحو التجدد وطرح الخمول. ومع ذلك فقد قال المؤرخ (سيتيه بوس) الفرنسي عنها بأنها نتيجة بارزة للتأثير الثقافي الذي أحدثته معاهد العلم الأندلسية في صدور بعض الطلاب الفرنسيين الذين كانوا يحملون براءات وعلوم هذه المعاهد الإسلامية الراقية.

وهنا لا نرى حاجة إلى القول بأن الفرنسيين استفادوا فوائد علمية وفنية وصناعية عظيمة كونت لهم فيما بعد تلك النواة الحية لنهضتهم، بل لنهضة جميع الشعوب الأوربية. وقد توسع (غوستاف لوبون) في هذا الموضوع وخرج منه إلى القول بأن فرنسا اتخذت بعد هذه الخطوات الوئيدة صفة الأستذة

للعناصر المتقهقرة في كل أصقاع أوربا بكل ما يسمى فناً أو علماً على الرغم من أنه كان ابتدائياً محدوداً يتماشى مع سليقة أمم تلك العصور. وقد وجد بين المؤرخين من عزى الثورة الفرنسية الأولى إلى الروح العربية التحريرية التي اقتبسها الفرنسيون عن الفاتحين العرب وعن تقاليدهم الشوروية النبيلة.

فالعرب إذن هم الذين بثوا روح النهضة في فرنسا، وهم الذين أحيوا الصناعات العديدة فيها وأسسوا المعامل ورموا الحقول وبعثوا روح العمران في كل نواحيها، وهم الذين أسسوا معاهد العلم وأحيوا النهضة الثقافية الأولية في كل أرجائها وهم الذين نظموا قوانينها ودواوينها، بل هم الذين بثوا روح الثورة في قلوب أبنائها، فظلت كامنة في طيات قلوبهم حتى تأزمت واشتعل أوارها. ولعمري فإنك لو حللت تفاصيل هذه الثورة لوجدت بين جراثيمها روحاً (أندلسية) ذر فيها – عقول الأساتذة العرب – النيرة في عروق الفرنسيين تلك الروح التي تستمد نظرياتها الإلهية من المبادئ (الشوروية) التي يقدسها كل عربي أرضعته التعاليم القرآنية لبانها المباركة منذ تأسست أول دولة إسلامية على وجه الأرض.

ومع أننا لم نعثر في الأسفار التاريخية التي بين أيدينا على ما آل إليه أمر هؤلاء الأسرى أو (الأساتذة) على الأصح، ولكن يرجح (سينيه بوس) بأن فريقاً كبيراً منهم تمكن بوسائله الخاصة من العودة إلى الأندلس. ما خلا الذين كانوا مسيحيين أو يهوداً من بينهم فالراجح أنهم اختاروا البقاء في فرنسا راضين ومكرهين وتأهلوا فيها وخلفوا الذراري والأحفاد...

العرب في جنوب إيطاليا

وبينما كان هذا يجري في فرنسا كانت العناصر العربية الحافزة إلى الفتح

وبث روح الرسالة التي تحملها إلى شعوب الأرض قد توطدت أقدامها في جنوب إيطاليا واستولت على جزر (صقليه) و(ساردينيا) وعلى مقاطعات (ترانتو) و(باري) و(كاتالونيا) و(لوجانتو) وأخذ دعاقما يبثون روح الحضارة العربية فيها، فنظموا في أول الأمر الحقول وبنوا المساجد[٢٨] وأسسوا المعاهد العلمية – ومع أن هذا الحدث أو الفتح الإسلامي لا يدخل في بحثنا عن علائق الحروب الصليبية في يقظة أوربا، بل يتقدمها بمائتي عام تقريباً إلا أننا رأينا الإلماع إليه هنا استدراكاً لما غفلنا عن ذكره بهذا الصدد فيما تقدم معنا من فصول كتابنا وتثبيتاً لما أشاعته المدنية الإسلامية في ظروف مختلفة من روح التحضر والتهذيب والهداية في أرجاء أوربا.

ونقول أن العرب مكثوا في جنوب إيطاليا ٣٠٠ عام تقريباً فاستعرب أهل تلك المناطق وأصبحوا يتكلمون العربية ويدينون بعادات العرب، ما خلا العقيدة الدينية فإنهم رجحوا الاحتفاظ بها واكتفوا بدفع الجزية وما يتلوها من ضرائب وتكاليف. وقد كان أبطال الإسلام يحرصون كل الحرص على ترك الحرية لأهل البلاد التي يدخلونها في معتقداتهم. عملاً بقول القرآن الكريم [فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وما ربك بظلام للعبيد].

وكان من نتيجة هذا الاختلاط أن تسمَّى الكثيرون بأسماء عربية كأحمد وعبد الله وجعفر وعبد الرحمن والأكمل والنصيب[٢٩] وو. مما يطول عدَّه. كما أن الأماكن والحاجات والشوارع والقصور وأدوات الزينة والحرب ومتاع البيوت وغيرها أصبحت لها أسماء وألواناً ومظاهر عربية صرفة لم يكف أن يصطلح عليها

---

٢٨ وإنك لتجد إلى اليوم في ميناء برندزي مسجداً قائماً بمئذنته التي قضمت الأعاصير قسمها العلوي وقد بني على الطراز العربي الخلاب.

٢٩ وما برحوا يسمون بهذه الأسماء إلى اليوم.

أهل إيطاليا الجنوبية فقط، بل انتقلت وتسربت إلى كافة أرجاء بلادهم الوسطى والشمالية. وهذا كله عرفناه وشاهدناه عند إقامتنا في إيطاليا من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢١.

وقصدنا من إيراد هذه الحقائق هو أن نبين بوضوح جلي أن النفحة العربية التي هبت نسماتها الزكية على ديار الإيطاليين علمتهم كيف يحترمون الواجبات بعد أن كان معظمهم يشتغل بقطع الطرق والنهب والسلب، وعلمت أبناءهم القراءة والكتابة وشتى العلوم بعد أن كانوا أُميين يفتك الجهل المدقع في صفوفهم ويحط بها في غمائر الحياة الوحشية. وعلمتهم الصناعات المختلفة وأصول الزراعة والحياكة وشاركهم العرب في ضروب التجارة التي درت عليهم الثروات الضخمة بعد فقر وشح وشقاء.

وقد اتخذ العرب خليج (ترانتو) لبناء السفن الحربية منها والتجارية، فاشتهر أمر هذا المعمل العربي البحري وصار يقصده التجار لابتياع ما يلزمهم منها كما أن بعض المقاطعات الإسلامية كانت توصيه على صنع المراكب المعدة للحرب. وكان العمال من الطليان والمهندسون والخبراء من العرب. وفي هذا الصدد يقول المستشرق الإيطالي المشهور (Libertini ليبرتيني) في كتابه (الإسلام) ما يلي:

[... لو دام الاستعمار العربي الإسلامي لجنوب إيطاليا بضعة قرون أخرى لأزاحت المدنية التي جاء بها هذا الاستعمار من جزيرة العرب الشعوب الإيطالية عن بلادهم وساقتهم إلى أواسط أوربا مهاجرين مغتربين، كما فعل هذا الاستعمار العربي نفسه بديار الأندلس مع الأسبانيين. ولكن يبدو لمن تتبع آثار هؤلاء الفاتحين أن البلاد الإيطالية في ذلك الحين كانت فقيرة جداً تحتشد فيها

عصابات متوحشة كثيرة تعمل على النهب والسلب وإقلاق الراحة، مما زهد العرب في مواصلة الفتح إلى شمال البلاد. ثم استفحل هذا الزهد فيما بعد بقلوبهم فقض من عزائمهم وانتهى بالجلاء تحت تأثير الوهن والاختلافات التي نشبت في صفوفهم...]

وهنا لا يفوتنا أن نذكر بأن أهم المؤلفات العلمية كانت من وضع العلماء العرب الذين حلوا في إيطاليا. وإذا ما دخلت اليوم إلى المكتبة الكبرى الكائنة في الفاتيكان [مدينة البابا في رومية] نجد الألوف المؤلفة من هذه الكتب الخطية القديمة. وقد شاهدناها بأم العين وطالعنا في بعضها. وها نحن نستخرج من جعبتنا التي جمعنا فيها الشيء الكثير من آثار جدودنا في إيطاليا بعض أسماء هذه الكتب ومؤلفيها والعلوم التي تحتوي عليها:

١- أسفار الفاتحين - لأبي الحسين الكوفي (ويتضمن وصف لبعض وقائع الصحابة الكرام).

٢- إلى من يعوزه الطبيب - لأبن سينا (ويتضمن فوائد طبية نفيسة جداً).

٣- الروح والجسد - للفيلسوف ابن خلكان (ويتضمن أبحاثاً بيولوجية تتعلق بعلوم الأحياء).

٤- كشف النقاب عما وراء جبال الأطلسي والسحاب - لعلي بن أبي بكر المكناسي (ويتضمن أبحاثاً جغرافية لبلاد البرابرة).

٥- الكنوز الغنية في الشريعة الإسلامية - لأبي طاهر الحسني (كذا) [ويتضمن بحوثاً دينية].

٦– اللمس والحس – كتاب طبي لم يذكر اسم مؤرخه.

٧– الجمان في لغة الرومان – لابن الصواف.

٨– الطلائع والخوافي في علم القوافي – للمرقضي البراقي (يتضمن فنون الشعر والعروض).

٩– السحر والطوالع – لم يذكر اسم صاحبه.

١٠– أسرار الروح – لابن خلكان (ويتكلم عن الروح وما ورد عنها في القرآن والكتب الوثنية).

١١– بين المنام واليقظة – لابن سيرين (في تفاسير الأحلام).

١٢– علم الكلام– لحسن البصري (وهي تتضمن علم البيان أو البلاغة).

١٣– خمسون فائدة – لم يذكر اسم مؤلفه.

١٤– الزايرجه وعلم التنجيم– لابن داوود (وهو يبحث عن أسرار الأرقام والحروف).[٣٠]

---

[٣٠] وهنا نورد على سبيل المثال بعض هذه الكلمات مثل: الكوب وهو وعاء للماء (coupe) الزليج أي كل شيء ناعم (zelic) وحرف (c) يقرا بالإيطالية (ج) الكشك أي القصر (kiosque) الفنجان أو الطاسة (l'asse) السكرية (sucrier) الجرم أي الجرثومة (germe) النواة (moyau) البركة أي الحوض (baraka) الوداع (aricidechi) الخان (kan) السكر (sucre) الأرز (riz) القميص (chemise) الطين (tine) القائد (kayede) الجمل (gamel). ولو أردنا تعداد المئات بل الألوف من الكلمات والألفاظ والنعوت، التي استعملها الإفرنج بما فيهم الطليان منقولة عن لغة العرب ومصطلحاتهم لما استوعبتها صفحات هذا الكتاب. فاكتفينا

١٥- تذكرة ابن داوود - كذلك لابن داوود (وقد طبعت فيما بعد ولا يجهلها أحد).

هذا قليل من كثير عن آثار العرب في جنوب إيطاليا وعن الحضارة التي أسسوها في تلك البلاد الفقيرة وعن العلوم والمؤلفات التي وضعوها. وما كان لعمري ليخلق بها أن تدول أو تزول. ولكن يظهر بأن ما قاله (ابن خلدون) عند تشبيهه المدنيات بحياة الإنسان من أنها (تلد وتترعرع ثم تتكامل وبعد يعتريها الهرم والشيخوخة) يصح أن تتخذ كنظرية ثابتة صدقتها جميع الوقائع الطارئة على كل المدنيات التي ظهرت في العالم إلى اليوم من صينية إلى هندية إلى فرعونية إلى فارسية إلى يونانية إلى رومانية إلى عربية والله أعلم.

بالقليل منها وحسبنا في ذلك أن نكون قد دللنا على ما فيه نواة اللغة العربية في كل أثر تقريباً من آثار الأوروبيين سواء أكان في العلوم أو اللغة أو الصناعات.

الفصل السادس
الفوائد التي جناها الأوروبيون
من وراء زحف العثمانيين على بلادهم

الباب الأول

عظماء ملوك آل عثمان - أواخر الفتوحات الإسلامية في أوربا

كانت دول أوربا في أوائل وأواسط القرن السادس عشر الميلادي منهمكة في الحروب الدينية المصطلية الأوار في جميع أقطاعاتها بنتيجة الجهل والتعصب الذميمين رغماً عن بزوغ بعض خيوط التنور والتحضر الواصلين إليها عن يد الدول الإسلامية كما مر معنا تفصيله في أبحاثنا المتقدمة ودراساتنا المستفيضة. ففي تلك الغمرة المفعمة بروح الثورات والحروب المذهبية اللاهية بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وهولندا وأسبانيا وبعض الدول الأخرى بزغ في الشرق كوكب وضاء وأخذ يلمع سناه في أرجاء أوربا الشرقية، فدل ظهوره الفوري على قرب حدوث مفاجآت سياسية كبرى في الشرق والغرب معاً لابد أن تتفرع عنها حروب طاحنة وويلات جارفة في هذين العالمين.

ونعني بهذا الحدث المفاجئ جلوس (السلطان سليمان القانوني) على عرش أجداده الأتراك عام ٩٢٦ هـ. أي في الوقت الذي كانت فيه أوربا تندرس تحت رحي الحرب الدينية الملمع إليها آنفاً. وكان هذا السلطان أو الخليفة الثاني كما تسميه كتب التاريخ التركية قوي الشكيمة صارم العزم ومتين العقيدة الإسلامية وواسع الطموح وقد اختط لنفسه منهاجاً حربياً جباراً ضد دول أوربا البلقانية ليحتلها كلها وينفذ من هناك إلى أوربا الوسطى فيكتسحها أيضاً ثم يملي إرادته على بقية الدول الأوربية الغربية التي أخذت تبدو واهية القدرة

مهدمة الأوصال من جراء ما أصابها من أهوال الحروب الطويلة كحرب الوردتين، وحرب المائة سنة وسواها...

وكان السلطان سليمان مطلعاً على الضعف الذي طرأ على الدول الإسلامية واليقظة التي أخذت تنتشر في معظم أرجاء أوربا. فأراد أن يضرب ضربته الساحقة المهدمة بكل سرعة ليسترد من جهة الأمجاد الإسلامية التي أخذت تندرس ويعلن نفسه الزعيم الأكبر والأوحد للعالم الإسلامي وليقف من جهة ثانية تيار النهضة الأوربية التي يعرف جيداً بأنها سوف تنتهي بزحف الغرب على الشرق والاستيلاء عليه وتسخير شعوبه لقبضة تحكمه واستعماره.

قلنا أن هذا السلطان القوي كان يلقب بالخليفة الثاني. والسبب في ذلك أن والده هو "ياوز سلطان سليم" كان قد فتح سوريا والعراق ومصر وأخذ الخلافة من آخر ملوك بني العباس "المتوكل على الله الثالث" ولقب نفسه بالخليفة العثماني الأول. وهنا إذا أردنا أن نقول الحقيقة المجردة عن كل غرض أو نفسية، فلا يسعنا إلا أن نعترف بأن بعض ملوك بني عثمان حاولوا بكل ما أوتوا من جهد وقوة وسلطان أن يعيدوا إلى الإسلام سالف عزه وسؤدده. وقد توفق هؤلاء في الوصول إلى الأهداف الشريفة التي ريضوا أنفسهم على تبنيها ووضعوا على رؤوسهم تيجان كسرى وقبضوا على صوجانات ملوك البلقان واليونان. ومعظم الإمارات الكائنة على سواحل البحر المتوسط فاتسع ملكهم أيما اتساع وعظم شانهم أيما تعاظم. فكانت هذه البادرة المحببة سبباً لعودة روح الانتعاش إلى المقاطعات الإسلامية التي أدركها اليأس والانحطاط من جميع أطرافها.

ولكن كل ما فعله أولئك السلاطين في سبيل الوصول إلى هذه الأمجاد

وتحقيقها لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب ما قام به السلطان سليمان القانوني من الأعمال الجبارة والفتوحات العظيمة والانتصارات الباهرة التي أحرزها في ظروف وتواريخ مختلفة بأربع عشرة حملة قاد فيها كل جيوشه بنفسه إلى الظفر. فكان لا يكاد ينتهي من حرب ظافرة حتى يدخل في معامع جديدة تنتهي أيضاً بانتصاره على أعدائه واكتساح بلادهم واغتنام أسلابهم وكنوزهم حتى وعروشهم. وقد وصل به الحال إلى أن أخذت فرائص الدول الأوربية الكبرى ترتعد من مجرد ذكر أعماله وتحسب لتقدمه نحو أوربا الوسطى واكتساحه بلاد المجر والنمسا ومحاصرته! (فينيا) ألف حساب مما سنفصله فيما سيأتي معنا بعض التفصيل، لأننا نتوخى من وراء ذلك إطلاع القراء على بعض المقارنات والملابسات التاريخية حيث تتبين لنا منها الفوائد العديدة التي جناها الأوربيون باحتكاكهم مع الأتراك بجانب ما سبق لهم أن جنوه من الأندلس ومن ثم من الدول الإسلامية الأخرى بعد حملاتهم الصليبية عليها [راجع تفاصيلها في فصولنا المتقدمة].

ومع أن العثمانيين لم يخلفوا بزحفهم واستيلائهم على بلاد الناس حضارة تنم عن مواهب علمية وتوجيهية، ولكن على كل حال كانت لهم في ميادين الحضارات أيداً سخية في بعض الشئون الحيوية استفادت منها أوربا فوائد عظيمة جداً مثل:

١- الأبنية الضخمة والقباب العظيمة التي علَّمها البناءون والمهندسون الأتراك للشعوب الأوربية وما برح يطلق على هذه المؤسسات وهندستها الجبارة (Stille Turque) أي النمط أو الطراز التركي.

٢- بناء الجسور القوية والطويلة المسافة.

٣- صنعة المدافع المحلِّقة التي تُلقب اليوم بـ "الهاون".

٤- بناء الأساطيل المدرعة والمقاومة للأسفار البعيدة.

٥- صناعة الطنافس "السجاجيد" التركية النفيسة.

٦- الأصباغ الثابتة في ألوانها الزاهية.

٧- فنون الحرب.

ومن البديهي أن هذه المواهب التي منحها الأتراك للأوربيين أو بالأحرى التي اقتبستها منهم الشعوب الأوربية أفادت هذه الشعوب فيما بعد بشتى المناسبات فوائد كبيرة جداً - ومع أنها لم تكن تحمل طابع مدنية تركية بالمعنى العلمي المألوف عند الكشف على معنى المدنية وماهيتها ولكنها بكل حال من المآثر التي أعجبت بها أوربا واستثمرتها خير استثمار.

وعليه فنحن لا نرى بداً هنا من الرجوع إلى التاريخ لنستطلع أعمال هذا البطل العظيم (السلطان سليمان القانوني) وفتوحاته وتأثير هذه الفتوحات في أوربا. وأمامنا تاريخ (جودت) وهو أصح وأصدق سفر تاريخي عثماني رأينا أن نعرب عنه فيما يلي الأسفار أو الحروب الـ ١٤ التي قام بها السلطان المشار إليه نظراً لعلاقة بعض الوقائع الجارية فيها بمواضيع كتابنا هذا من النواحي التاريخية الإسلامية.

السفر الأولى:- "فتح بلغراد" كانت هذه الحملة موجهة إلى بلاد الصرب لأن ملكها لم يحفل بجلوس السلطان سليمان على أريكة العرش العثماني ولم يهنئه كما فعل سائر ملوك أوربا. وقد كان "بيري" باشا الصدر الأعظم هو القائد لهذه الحملة. ولكن السلطان قام بنفسه بعد ذلك مستصحباً جيشاً لجباً

وحاصر بلغراد وفتحها عنوة "٩٢٧ هـ" ثم زحف على بلاد المجر ووصل ظافراً إلى "بودابست" وحاصرها.

السفرة الثانية:– "فتح رودس" كان بعض الفرسان الصليبيين قد احتلوا هذه الجزيرة وحصنوها بالقلاع العظيمة وطال مكوثهم فيها حتى امتنع فتحها على السلطان محمد الفاتح الشهير الذي دك فيما مضى حصون "القسطنطينية" ودخلها ظافراً كما هو معروف وحيت أن الدولة العثمانية قد احتلت مصر فرأى رجال الحرب الأتراك أنه لابد من احتلال "رودس" لوقوعها بين مصر القسطنطينية فأرسل السلطان سليمان بادئ ذي بدء أمير البحر مصطفى باشا مع عمارة مكونة من ٦٠٠ قطعة بحرية إلى هذه الجزيرة. ثم تبعه السلطان بذاته مستقلاً الدارعة "مرمريس". وظلت هذه العمارة تحاصر جزيرة رودس مدة ستة أشهر متواصلة ثم اضطر رجال حاميتها وعددهم ٧٠٠٠ من الصليبيين الفرنسيين إلى التسليم في ١٨ صفر عام ٩٢٩ هـ.

السفرة الثالثة:– فتح "بودابست" ذكرنا في السفرة الأولى أن الجيوش العثمانية التي يقودها السلطان سليمان بنفسه أخذت في محاصرة مدينة "بودابست". ولكن ذلك لم يمنع من فتح العثمانيين لقلعتي "بودين" و"مهاج" المجريتين عام ٩٣٢ هـ ثم عبر السلطان سليمان نهر الدانوب وفتح قلعتي "وارادين" و"أومسك" ثم اشتبك جيشا بالي بك المصري وخسرو بك بن الأمير سلطان أحد أمراء العرب بحرب دموية هائلة مع الجيش المجري في صحراء "مهاج" انتهت بمقتل الملك "لويس" وانكسار المجريين شر كسرة. وبعد ذلك دخل سليمان القانوني إلى بودابست ظافراً وأجلس على العرش المجري أحد أتباعه المدعو "جان زابولي" ٩٣٣ هـ.

السفرة الرابعة:- "حصار "فيِّنا" أرسل السلطان سليمان عام ٩٣٦ هـ وزيره الأعظم إبراهيم باشا إلى محاصرة " فيِّنا " وبقي هو في صحراء "مهاج" ينتظر النتيجة. وكانت الحوافز لضرب الحصار على هذه المدينة العظيمة كثيرة أهمها الاتفاق الذي عقد بين "فرنسوا الأول" ملك فرنسا والسلطان سليمان القانوني على أن يعمل الأخير على تخليص فرنسا من شر الإمبراطور "شارلكان" الأسباني الذي كان يهدد فرنسا وبالتالي أوربا كلها بالاستيلاء عليها. ومن جهة أخرى كان الإمبراطور القوي يريد نصب شقيقه "فرديناند" ملك النمسا ملكاً على المجر أيضاً الأمر الذي يعاكس خطط القانوني ومشاريعه الحربية في أوربا. وهنا يظهر سبب تلاؤم النظريات السياسية بين القسطنطينية وباريس لأن عرش المجر كان يجلس عليه "جان زابولي" خصيص السلطان وخادم ركابه. ومع ذلك لم يدم حصار فيِّنا طويلاً، لأن الأتراك كانت تنقصهم مدافع الحصار الكبيرة فاضطر السلطان أن يبعث بجلبها من عاصمة ملكه، ثم داوم حصاره ٢٧ شهراً انتهى بعقد الصلح بين الأتراك والنمساويين ضمن شروط ملائمة للأولين كثيراً. وفيما يروي بصدد هذا الحصار أن فرسان الترك كانوا يمرحون بخيولهم فوق أسوار " فيِّنا " كأنهم يجولون ويصولون في ميادين القتال، وقد لقبهم النمساويون بشياطين الإنس (Bobahamesh).

وهنا ينتقد المؤرخون الأتراك السلطان سليمان القانوني ووزرائه انتقاداً مريراً لأنهم تسامحوا مع الفرنسيين في الاتفاق السياسي الذي عقدوه مع فرنسوا الأول تسامحاً عجيباً كان من أدهى وأضر نتائجه قيام [الامتيازات الأجنبية] التي محضها الأتراك للفرنسيين وبالتالي للأوروبيين!!! وأعقب هذه الامتيازات ظهور "المسألة الشقية" التي انتهت باستعمار الأوربيين لمعظم بلدان المشرق مع أنهم أي الأتراك كانوا في أوج سؤودهم وعظمتهم ولا يضطرهم عامل ما من

العوامل السياسية أو الحربية على التورط في مثل هذا الخنوع المزري، بل كانوا أقوى دول الأرض جمعاء. فجاءت هذه الهفوة السياسية كجرثومة أخذت تنخر في عظام ذلك الملك العنيد حتى جعلتها رميماً، وقضت دعائم العرش العثماني القوي في جميع ممالكهم البلقانية، ثم ولاياتها الشرقية القريبة والبعيدة، ولاسيما التي كانت عناصرها تتكون من غير الأقوام التركية، وأمر هذا معلوم فلا حاجة إلى الاستفاضة في شرح حواشيه ولدنياته... وهنا يبدو جانب آخر من جوانب يقظة الأوربيين وغفلة المسلمين فحسبنا الله وكفى...

ومما يدل على عظمة الأتراك في ذلك الحين الآني الذي بعث به السلطان سليمان القانوني إلى (فرانسوا الأول) ملك فرنسا جواباً على كتابه الذي أرسله مع سفيره المدعو (جان فرانجباني G. Frencoban) عام ١٥٢٥ م حشاه رجاءً وتضرعاً واستنجاداً بقوة الأتراك من غارات شارلكام على البلاد الفرنسية. ولا يسعك عندما تقرؤه ألا تلمس عظمة هذا السلطان والأمجاد الزاخرة التي كان غارقاً في نعيمها، والمفاخر الإمبراطورية المخيمة فوق عرشه العتيد وهاك نصه:

إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم

[بعناية حضرة عزة الله جلَّت قدرته وعلت كلمته، وبمعجزات سيد الأنبياء وقدوة فرقة الأصفياء محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم الكثير البركات، وبمؤازرة قدس الأرواح حماية الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وجميع أولياء الله. أنا سلطان السلاطين، برهان الخواقين، متوّج الملوك، ظل الله في الأرضين، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والأناضول والرملي وقرمان الروم وولاية ذي القدرية وديار بكر

وكردستان وأذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة أيضاً التي فتحها آبائي الكرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة أنار الله براهينهم، وبلاد أخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر، أنا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان:

إلى فرانسيس ملك ولاية فرنسا:

وصل إلى أعتاب جلالتي وهي ملجأ الملوك الكتاب الذي بعثتموه مع تابعكم (فرنقباني) النشيط مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بها شفهياً وأعلمنا أن عدوكم (شارلكان) قد استولى على بلادكم، وإنكم الآن محبوسون وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سرير سدتنا الملوكية وأحاط به علمنا الشريف على وجه التفصيل.

فصار بتمامه معلوماً. فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم. فكن منشرح الصدر، ولا تكن مشغول الخاطر فإن آبائي الكرام وأجدادي العظام نور الله مراقدهم، لم يكونوا خالين من الحرب لأجل فتح البلاد ورد العدو. ونحن أيضاً سالكون على طريقتهم. وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة، وخيولنا ليلاً نهاراً مسرجة وسيوفنا مسلولة. فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشيئته. وأما باقي الأخبار والأحوال تفهمونها من تابعكم وسفيركم المذكور فيلكن معلومكم هذا:

تحريراً في أوائل شهر آخر الربيعين في سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة بمقام دار السلطنة العليا

القسطنطينية المحروسة المحمية

السلطان سليمان ابن السلطان سليم

عز نصره آمين

وقد حفظ هذا الكتاب إلى اليوم بأحد متاحف فرنسا بنصه وفصه. وبالفعل قام السلطان سليمان بوعده وهاجم بلاد النمسا التي يجلس على عرشها شقيق الإمبراطور شارلكان ومزق جيوشها وحاصر عاصمتها مما أثر على شارلكان كل التأثير وبعث إلى السلطان بالهدايا الثمينة والتحف الغالية ومن بينها ساعة غريبة الشكل تعتبر من التحف النادرة، وهي لم تزل محفوظة في متحف (سراي بروني) في اسطنبول.

نقول: هذا كتاب جبار يملي عظمته وشوكته على الملوك كما يريد، أو كما يزين له خيلاؤه الملكي العظيم فيعتبرهم دخلاء على أعتابه يتسكعون تحت أقدام جلالته: فاتلله لو أحسن الأتراك سياستهم مع العناصر والأقوام والدول التي دخلت تحت طاعتهم. ولو عملوا على تمدين أنفسهم وتثقيفها بالعلوم والفنون التي نشرها أخوانهم المسلمون قبلهم سواء في الأندلس أو مصر أو العراق ووزعوها على أمم الأرض فأخذوا قسطهم منها ثم قسطوا الباقي على تلكم الأقوام التي انضوت تحت لوائهم الظافر المنصور، لما تنكست لهم أعلام ولما دالت دولتهم واضمحلت مع توالي السنين والأعوام.

فكل ما فعلوه أنهم جربوا أن يكونوا رجال حرب وكفاح فنجحوا بدون أن يجربوا في نفس الوقت أن يكونوا رجال سياسة وحسن إدارة وسعة في مدارك

المعارف، ولكن لما وجد من ضارعهم قوة وبطشاً خسروا في هذا الميدان كما خسروا في عالم الحضارة والعلم والسياسة أيضاً...

لم يدخلوا بلداً إلا وأرهقوها حرباً وقتالاً، ثم تركوها تتأكلها ويلات تلك الحروب من جهة والانحطاط العلمي والعمراني من جهة أخرى. هكذا كان شأنهم مع بلاد العرب والأكراد والأرناءوط والبلغاريين والصربيين واليونانيين والرومانيين والمجريين والجراكسة وغيرهم من الأمم التي دخلت تحت سيطرتهم، وهكذا كان شانهم أيضاً مع بلاد الفرس التي شنوا عليها وحدها ١١ حرباً حتى أفنوا فيها حتى وفي كل المدن التي سخروها لقبضة سيوفهم الفتاكة كل بادرة من بوادر الحضارة والحياة الراقية الآمنة.

خذ بلاد العرب مثلاً فإن الأتراك عندما دخلوها كانت معالم التمدن لم تزل زاهرة في معظم الأقطار العربية. فبدلاً من أن يمهدوا لهذا الشعب المتمدن الأسباب التي تسهل له استرداد عزته ومكانته المرموقة في عالمه الذي كان فيما مضى بالغاً حد الكمال في حضارته، راحوا يعاملونه بالإهمال والضغط والاستعباد حتى أفنوا في شعوبه كل موهبة ثقافية أو فنية وأمست بلاد العرب على عهد حكمهم الذي امتد ٤٠٠ سنة بلاقع خاوية ورموساً مندرسة... وهذا ما فعلوه أيضاً مع بقية البلدان التي افتتحوها بحد سيوفهم. إلى أن حانت الفرص لهذه الممالك والأقوام المستعبدة المهملة فقامت تثور واحدة بعد الأخرى بوجه مستعبديها الأتراك إياهم ليتخلصوا من كابوس استعمارهم وجحودهم وانحطاطهم وصلفهم الفارغ. وراحت الإمبراطورية التركية العظيمة تصغر وتنكمش وتتلاشى حتى أصبحت عبارة عن مملكة صغيرة كما نراها اليوم تهددها الدول القوية كروسيا مثلاً بالاكتساح والابتلاع ولله در من قال:

ومـن رعـى غنمـاً في أرض مسـبعةٍ   ونام عنهـا تـولى رعيهـا الأسـد

السفرة الخامسة:– على أثر رفض أمراء المجر قبول (جان زابولي) خصيص السلطان سليمان ملكاً على هذه البلاد وقيام الملك فرديناند المخلوع بمحاصرة قلعة (بودين) زحف ١٠٠,٠٠٠ جندي تركي تحت قيادة السلطان سليمان ذاته معلناً الحرب على الإمبراطور شارلكان نفسه باعتبار أنه يحرض شقيقه فرديناند للقيام بأعمال عدائية ضد الدولة العثمانية. فوصل هذا الجيش إلى فيّنا بعد أن فتح معظم البلاد النمساوية كـ "غوتس" و"أشتاير" و"اسقلاوينا" ثم طوق العاصمة النمساوية بنطاق حديدي فاضطر الملك فرديناند المخلوع أن يرضخ لقوة الأتراك ويطلب الصلح متعهداً بأن لا يتدخل في شئون المجر. وقد عدَّه المؤرخون الألمان خائناً لأنه كان يخاطب الصدر الأعظم العثماني في مراسلاته بكلمة "أخي العزيز"، وبعد عقد الصلح رجع السلطان ظافراً إلى القسطنطينية ٩٣٨ هـ.

السفرة السادسة:– كانت إلى العراقين العجمي والعربي وقد استغرقت مدة شهرين قام السلطان خلالها بتأديب أمير أذربيجان المدعو "شاه طهماسبا" ثم هبط إلى بغداد ومكث فيها مدة وعين المدعو "ذو النقار خان" والياً عليها ثم عاد إلى مقر سلطنته عام ٩٤١ هـ.

السفرتان السابعة والثامنة:– [معركة بحرية هائلة] كان لخروج العمارة العثمانية المكونة من ٢٨٠ قطعة حربية من الدردنيل تحت قيادة أمير البحر المشهور برباروس خير الدين باشا التونسي العربي [وكان الإفرنج يطلقون عليه هذا النعت ومعناه ذو اللحية الحمراء] صدىً مزعجاً في جميع أنحاء أوربا ولاسيما إيطاليا التي استفحل أذاها للشعب الأرناؤوطي وتتابعت دسائسها في البلقان ضد الدولة العثمانية، فأخذ سكان السواحل الإيطاليين يخلون السواحل

كما أن البابا "بولس الثالث" هجر رومية نفسها. فوصلت العمارة التركية بزعامة قائدها العربي إلى ميناء "أولونيا" الألباني على سواحل الأدرياتيك كما خيم ١٥٠،٠٠٠ جندي عثماني بقيادة السلطان سليمان في صحراء "أولونيا" نفسها.

فتجمهرت دول أوربا وأخذت تجهز عمارة بحرية عظيمة تحت قيادة الأميرال "أندريا" الإيطالي لمهاجمة الأسطول العثماني ولما تم إعدادها في "نابولي" خرجت لمقابلة الأتراك فالتقت العمارتان في ظهر البحر، وبعد معركة غير فاصلة تمكن الأسطول الأوربي المتحد من الالتجاء إلى جزيرة "قورفو". فأخذ بارباروس يتحين الفرص للانقضاض على هذا الأسطول الضخم. وفي اليوم الثالث من شهر جمادي الأول عام ٩٤٥ هجرية و ١٥٣٨ ميلادية التحم الأسطولان في موقع يدعى "اياماوره" عند خليج بلدة "بروزه" وكان أسطول أندريا – وقد أطلق عليه البابا اسم "أسطول الصليبيين" – مكوناً من ٦٠٠ قطعة حربية قوية. أما الأسطول العثماني فكان عدد قطعاته ١٢٨ قطعة فقط. فقسم بارباروس عمارته إلى ثلاثة أقسام تولى إحداها هو والثانية الأميرال إبراهيم – وهو بيروني من آل العيتاني المعروفين – والثالثة الأميرال طورغود. وجعل وضعها يشبه حدوة الخيل وقد استهدف بذلك خرق خط العدو من الجانبين. وصادف عند بدء المعركة أن هبَّت رياح غير مواتية للأسطول الإسلامي، بل على العكس تلائم أسطول الصليبيين. فلجأ المسلمون إلى التضرع لله وعلقوا الآيات القرآنية على الأشرعة وراحوا يبتهلون إليه تعالى أن يجعل لهم من أمرهم مخرجاً حسناً، ثم أطبق بارباروس على أعدائه بهجوم شديد يرافقه تهليل وتكبير البحارة الأبطال ولعلعت أصوات مدافعهم ترسل الحمم والنيران إلى سفن الأعداء، وصادف حسن الطالع العثمانيين بأن مدافع أسطولهم كانت أبعد مرمى من

مدافع أسطول الأعداء الأمر الذي مكّن باربارو خير الدين باشا من اقتحام صفوف مراكب "أندريا" وإغراق بعضها وتعطيل البعض الآخر عن العمل، وظل أوار هذه المعركة التاريخية مشتعلاً مدة عشر ساعات متوالية أظهر فيها القائد العربي ضروب الحنكة والمهارة في القتال ما أدهش الأعداء وحملهم عندما بدأ الليل يرخي سدوله على الفرار بالرغم من تفوقهم العظيم بعدد قطعاتهم. فلحق بهم باربارو تحت جنح الليل وأسر ٥٠ قطعة من مراكبهم وأغرق قسماً آخر منها، ثم عاد إلى "بروزه" غانماً ظافراً وأعلام المجد والنصر تخفق على سواري الدوارع كلها وأناشيد التهليل والفوز من أفواه الجنود البواسل ترتفع في أجواء الفضاء. وفي صباح اليوم التالي شوهد سطح البحر وقطع أسطول العدو الخشبية تغمره إلى مسافات شاسعة وقد علق قواد البحار المتأخرون على هذه المعركة أي بعد مرور ٢٠٠ سنة عليها بما يلي:

[قال الأميرال الإنجليزي (كريزي) أن معركة "بروزه" كانت أعظم وقعة بحرية في التاريخ لذلك العهد. وقل الأميرال "رودني" الفرنسي أن بربارو خير الدين باشا هو أمهر قائد بحري عرفه عالم الحروب البحرية. وقال الأميرال "سن ونسنت" الأسباني أن عمل القائد البحري العثماني يعد معجزة لا يتسنى لأي قائد سواه الإتيان بمثلها. وقال الأميرال "نلسون" الإنجليزي المشهور بطل معركة "طرف الغار" بعد أن درس خطط وأعمال كل من بربارو وأندريا ومناوراتهما الفنية أن بربارو علمنا درساً لا ينسى في الأساليب الحربية الفنية المتعلقة بالطرق التي ينبغي إتباعها لاختراق صفوف العدو وقد أصبحت هذه الأساليب دستوراً يعمل به أمراء البحار حتى أنني أنا نفسي طبقت هذه القواعد المدهشة في حرب "طرف الغار" ونلت من جراء ذلك فوزاً عظيماً على الأسطول الفرنسي].

وعندما أطل بربارو على اسطنبول وهو عائد إليها غانماً ظافراً، أطلقت

له القلاع مائة مدفع تحية لمقدمه وزينت المدينة أروع زينة وخرج أهلها بشيبهم وشبانهم وعلى رأسهم السلطان سليمان نفسه لاستقبال هذا القائد العربي العظيم. وعندما نزل إلى البر غمره السلطان بيديه وراح يقبله ودموع الفرح تهطل من مآقيه على وجه البطل خير الدين باشا، ومنحه أعظم الرتب والأوسمة والهدايا مع ٥٠ سرية من أجمل حوريات القصر السلطاني.

وكانت السفرة الثامنة إلى الهند بناءً على طلب مهراجا (كجرات) الذي التمس من السلطان سليمان أن ينجده من فظائع المستعمرين (البرتغاليين) الذين احتلوا الهند واستعبدوا شعوبها. وكان أحد قوادهم المدعو (الأميرال بوكرك) يفكر باحتلال مكة وجزيرة العرب. فأهاج هذا الخبر جلالة السلطان وأمر الأسطول العثماني الذي أُعد في السويس أن يبحر تحت قيادة المدعو سليمان باشا إلى عدن. وهكذا كان ولكن هذا القائد الفظ ارتكب بعد وصوله إلى هذه المدينة جريمة نكراء بقتله لغير ما سبب (الأمير عامر بن داوود) صاحب عدن. فاستفظع أهل اليمن هذا العدوان الشنيع ووصلت الأخبار السيئة عنه إلى الهنود فأعرضوا عن طلب المعاونة من الأتراك واتفقوا مع البرتغاليين، مما اضطر سليمان باشا أن يعود إلى اسطنبول بخفي حنين، ٩٤٦هـ.

السفرتان التاسعة والعاشرة:– (استذلال إيطاليا) وسنة ٩٤٧ هـ اشتدت الحروب بين برباروس خير الدين باشا وحكومة البندقية (إيطاليا) فكان هذا يكر بعمارته على سواحل إيطاليا ويفتح مدنها ويجمع الغنائم التي لا تحصى من أهلها مما فت في ساعد هذه الحكومة وبعثت تطلب الصلح من السلطان سليمان على أن تتخلى له عن شبه جزيرة (موره) وعن القلاع على سواحل (دالماسيا) مع ٣٠٠ ألف ليرة ذهبية غرامة حربية. فقبل السلطان بذلك وعقد الصلح بين الطرفين.

وفي السفرة العاشرة عام ٩٤٨ هـ أعلن السلطان سليمان القانوني بعد فوز باهر أحرزه بنفسه في معركة (بودين) بضم بلاد المجر إلى الدولة العثمانية تأديباً للملك فرديناند المخلوع عن العرش ونصب ابن خصيصه (جان نابولي) ملكاً على المجر وكان يدعى (استفان) ولقَّبه باستفان الأول. ولكن فرديناند لم ينفك عن دس الدسائس ضد الملك (استفان) فأرسل السلطان سليمان عمارة بحرية بقيادة البطل بربروس مكونة من ١٠٠ قطعة حربية إلى سواحل أسبانيا متحدياً بذلك الإمبراطور شارلكان شقيق فرديناند. فوصل إلى الثغر الفرنسي (نيس) في ١٤ آب عام ١٥٤٣ م و٩٤٩هـ فاستقبله الفرنسيون أعداء شارلكان وحلفاء تركيا بحفاوة عظيمة جداً وانضمت العمارة الفرنسية إلى قيادة خير الدين باشا ووضعت تحت إمرته وقد انتقد بربروس المشار إليه الأميرال الفرنسي (رونكين due d'enghien) على عدم انتظام عمارته وقذارتها وعدم كفاءتها للاشتراك في الحرب القادمة مع أسطول شارلكان القوي ومع ذلك هجمت هذه العمارة المتحدة على سواحل إسبانيا وعملت فيها تخريباً وتهديداً ثم رجعت إلى نيس حيث استلم بربروس ٨٠٠ ألف ليرة ذهبية من الملك فرنسوا الأول كنفقات للأسطول العثماني، وقفل هذا الأسطول بعد ذلك راجعاً إلى القسطنطينية. بعد أن عقد صلحاً مع شارلكان يدفع بموجبه للدولة العثمانية جزية سنوية تبلغ ٣٠٠ ألف ليرة ذهبية ٩٥٢هـ.

وفاة البطل العظيم باربروس

وبعد هذا الجهاد العظيم المتواصل ركن هذا البطل العربي إلى الراحة في اسطنبول تحتاطه رعاية جلالة السلطان وتكريم الشعب وإجلاله ولكن عاجله مرض الروماتيزم بالوفاة في اليوم الرابع من شهر تموز سنة ١٥٤٦ م و٦ جمادي الأول سنة ٩٥٣ هـ فذهبت روحه الطاهرة إلى بارئها غانمة بالأجر حافلة

بالتقوى والجهاد، بعد أن ألقى الرعب في قلوب دول أوربا بأجمعها وقد حمل معه لقب (أعظم قائد بحري في العالم). كما اعترف له بذلك أمراء البحر الفرنج. ومن غرائب الصدف أن شعراء ذلك الزمن نظموا لوفاته رثاءً جاء الشطر الأخير منه وهو [مات رئيس البحر ٤٤١ – ٢٧١ – ٢٤١] تاريخاً لوفاته وهو منقوش إلى اليوم على شاهد قبره الطاهر في المقبرة الملكية بمحلة (أيوب) رحمه الله وبل ثراه بغيث رضوانه.

السفرة الحادية عشرة والثانية عشرة:– [فتح إيران للمرة السادسة] هاجم السلطان سليمان بنفسه البلاد الإيرانية لتأديب الملك (طهماسب) الظالم وأوسع بلاده حرباً وأهوالاً وبعد أن أخضعه وربطه بمعاهدة وفرض عليه الجزية رجع إلى اسطنبول ليوالي سفرته الثاني عشرة إلى البلقان لأمور حربية هامة.

وبالفعل هاجم بـ ٨٠ ألف مقاتل عام ٩٥٩ هـ قلاع (طمشوار) (بجن) و(جناد) و(ليبوه) و(بسبرم) و(صولنق) وفتحها وأعلن ضمها إلى الإمبراطورية العثمانية. وعندما رجع إلى الأستانة بعث بقائد عمارته طورغود باشا تلميذ المرحوم برباروس خير الدين باشا إلى فتح جزر مالطة وكريد واستنكري وصاموس ومدللي وليمني وما يتبعها من الجزر الواقعة في بحر إيجة فاستولى عليها هذا البطل وعددها ٢٥ جزيرة وألحقت بالدولة العلية.

السفرة الثالثة عشرة والأخيرة:– بلغ السلطان سليمان رحمه الله في سنة ٩٧٤ هـ ٧٥ سنة من العمر قضى منها ٤٨ سنة على عرش بني عثمان ظافراً. وقام بـ ١٣ عشر سفرة حارب في كل منها على رأس جنوده أعواماً طويلة وكان في كل حروبه موفقاً منصوراً حتى هابته دول الأرض بأجمعها. وكانت سفرته الأخيرة هذه إلى بلاد المجر أيضاً حيث أتعبه تعنت ومكر ملكها السابق

فرديناند، فعزم على أن يلقي عليه الدرس الأخير القاضي على حياته واستئصال شأفة دسائسه من الوجود. وبعد أن فتح قلعة (سكثوار) التي كان يعتصم بها فرديناند المذكور تمكن من أسره وطرحه في سجن بلغراد.

ولكن حدث في مساء ذلك اليوم الواقع / ٢١ صفر الخير سنة ٩٧٤ هـ أن اشتد عليه مرض (النقرس) وداهمته يد المنون عند منتصف الليل. فلم يلبث هذا الخطب أن شاع في ديار أوربا فتهللت أسارير ملوكها وتنفسوا الصعداء، كما أن بعض الشعوب البلقانية أخذت تعد العدة لإعلان الثورات والقلاقل بوجه الدولة العثمانية. ومما ساعد هذه الدول والشعوب الثائرة على الوصول إلى أهدافها العدائية انعدام روح الكفاءة والقوة والمقدرة في السلاطين الذين جلسوا على العرش العثماني بعد سليمان القانوني، بل رأيناهم على العكس من ذلك يسترسلون في اللهو والإعراض عن شؤون الملك ظناً منهم بأن ما حققه السلطان الراحل من آيات المجد والسؤدد والقوة خلال فتوحاته العظيمة سيظل باقياً على مدى الدهر، وأن أعداء الدولة العثمانية وهم الجمهرة الكبيرة من دول أوربا ستنام على ما لحقها من خزي وانكسار وخسائر فادحة على يد ذلك البطل المغوار أعظم ملوك بني عثمان وأقواهم شوكة.

وما هي إلا هنيهة قليلة من الزمن حتى قامت تلك الدول تواصل كفاحها ونضالها ضد العثمانيين حتى بدأ الفشل والتقهقر في صفوف هؤلاء وأخذت البلاد التي سخرتها سيوف الأجداد الأقوياء تنسلخ على كر الأعوام واحدة تلو الأخرى عن الإمبراطورية العثمانية مما سبق لنا أن أشرنا إليه في تعليقاتنا السابقة حتى وصل الحال بهذه الدولة الكبيرة إلى البوار والانقراض، لولا أن تداركها في العهد الأخير مصطفى كمال باشا وجمع فلول البقية الباقية من الأتراك وكوَّن منهم دولة صغرى في الأناضول كما رأينا في أوائل عام ١٩٢٠ م مما يعلمه المعاصرون اليوم ولا نرى حاجة إلى التوسع في شرحه وتفصيله.

تعليقات وملاحظات على وقائع هذا الفصل

لعمري أن الواجب الوجداني ليدعونا هنا إلى تسجيل جهود السلطان العظيم سليمان القانوني وكفاحه الطويل، وبطولته الخالدة طيلة ٤٨ سنة قضاها على عرش أجداده، بدون أن يمنح نفسه الجبارة وقتاً للتمتع بعزته وسلطانه. فقد أتاح للإسلام مجداً جديداً أضافه إلى أمجاده السابقة التي كان غطارفة العرب وأعاظمهم أسيادها وحماة راياتها ومكوني قبابها الشامخة العتيدة.

كان هذا العاهل الكبير مسلماً صحيح الإيمان. وما سمي بالقانوني إلا لأنه كان يتمسك بشعائر الدين ونصوص الشرع الإسلامي. وقد أرخ (كنه الأخيار) للمؤرخ التركي (إبراهيم بحيري) أن السلطان سليمان كان يرغب في إتباع خطط رجال الفتح الإسلامي في منح جميع الشعوب التي دخلت تحت طاعته الحريات الواسعة والأحكام الذاتية والاكتفاء بربطها بالجزية والخراج. ولكن بعض وزرائه ورجال حاشيته الذين كان التعصب العنصري يفتك في كل جارحة من جوارحهم وأوهموه بأن منحه هذه الحريات لتلك الشعوب وخاصة العرب منها يعرض (الخلافة) للخطر ويسهل عودتها إلى صاحبتها الأولى وهي الأمة العربية. فقبض يمينه مضغوطاً عليه ولم يمنح بقعة ما أدنى سلطة إدارية أو سياسية ولو كانت ضئيلة تافهة مما سبب فيما بعد إثارة نقمة العناصر الداخلة تحت حكم الأتراك والتجائهم إلى التمرد والعصيان للتخلص من ظلمهم وتعسفهم.

والعجيب أن هذا الضغط الذي كان يفرضه العنصريون الترك على

سلطانهم العظيم القانوني لدوس حقوق العرب وسواهم من الأقوام الراضخة لنير الحكم العثماني، قد وجه إلى (السلطان بايزيد الثاني) مما اضطره إلى الامتثال له أيضاً عندما استنجد به أحد ملوك بني الأحمر في الأندلس (المنتصر بن أحمد الهادي) مع رسوله المدعو (الحازم بن عبد الله الذكري) طالباً منه باسم الإسلامية التي تربط الجانبين برباطها القدسي أن يمده بقوة يرد بها غارة فيليب الكاثوليكي ملك (قاستيليه) عن بلاده التي كان يشن الغارة عليها من كل صوب، ففي أول الأمر أجاب السلطان العثماني طلب زميله الأندلسي وبعث إليه بأسطول ضخم يعد ٤٠٠ قطعة تحت قيادة أمير البحر إبراهيم الذي قلنا عنه عند وصف أسفار السلطان سليمان البحرية بأنه عربي الدم ومن آل العيناني في بيروت. وكانت أساطيل تركيا وقتئذ أعظم عمارات الدول كلها، تلقي الهول والرعب على جميع الموانئ والثغور الإيطالية والفرنسية والأسبانية والجزر الكثيرة التي كانت تدفع الجزية والخراج للدولة العثمانية. ولكن ما كاد هذا الأسطول يصل إلى سواحل أسبانيا حتى تلقى أمراً من السلطان بالعودة سريعاً. وقد فسَّر المؤرخ المستشرق (ليبرتيني) هذا النكول السريع بما يلي من الملاحظات الدقيقة التي نقلها عن كتابنا البعث[٣١] قال: [كان السلطان بايزيد خاطئاً في ارتداده وعدوله عن معاونة هذه الدولة الأندلسية الإسلامية العربية. وأن غلطته هذه ذهبت لطخة سوداء في تاريخ بني عثمان. لأن أوربا في ذلك الحين كانت منهمكة في حروب دينية طويلة. فلا يتسع لها المجال لاتهام تركيا بأنها تريد بانضمامها إلى ملوك الأندلس المسلمين أن تشير حروبا دينية ضد أوربا كما ادعى العنصريون الأتراك يومئذ لغايات ومآرب قومية وفي مقدمتهم الأمير (جم) ابن السلطان بايزيد نفسه. فالحقيقة التي لابد من ذكرها هنا هي أنت متعصبي الترك أرسلوا

---

[٣١] راجع ذلك في الصحيفة ٤٦ من هذا الكتاب.

بدسيستهم هذه عن طريق (جم) ليثبتها في ذهن والده بقصد ترك دولة العرب في الأندلس تنقرض تحت سنابك الاسبانيين حتى لا تبقى دولة عربية كبرى تنزع (الخلافة) من يد الأتراك وتنازعهم السلطان على الدول والمقاطعات الإسلامية في الشرق.

وعندنا أن هذه الملحوظة تكشف عيانا عن وجه الحقيقية الصارخة. فتسجل على الأتراك هضيمة نكراء تضاف إلى أخطائهم الكثيرة التي سببت ذهاب ملكهم الواسع والقوى من أيديهم في لمح البصر. ولو أن أردنا أن نحصى خدمات أمراء العرب وقوادهم لملوك بني عثمان وقد مر معنا الالماع إلى ذلك في كثير من المناسبات والتعليقات التي أوردناها في بعض أبواب هذه الكتاب لرأينا أن العثمانيين مدينون في مواقف حربية وسياسية كثرة إلى فضل العرب وحنوهم عليهم. فكان يلزمهم والحالة هذه شيء من الإنصاف ليقابلوا الإحسان بمثله...

وكأن الله أراد أن ينتقم للعرب من أعراض الدولة العثمانية الإسلامية عن معاونتهم بفعلة ماكر وخيانة غلول ذميم ونعنى به (لويس التاسع) احد أحفاد فرنسوا الأول ملك فرنسا الذي لم يجره من بطش شارلكان وفتحه لبلاده إلا التجاؤه إلى طلب المعونة والحماية من السلطان سليمان القانوني حيث أمده بما يلزم من القوى البرية والبحرية وابلغه أمانيه برد غرات شارلكان عنه وإطلاق سراحه من السجن الذي كان معتقلا به. فبدلا من أن يحفظ الفرنسيون هذا الجميل الذي لا ينسي [وهذا شانهم ي النكث بالعهود ودوسها بأقدامهم مع جميع الأمم حتى اشتهروا بهذه الوصمة وأصبحت نعتا خاصا بهم] بادرن عام ١٦٠٤ ميلادية إلى الانضمام لدول أوربا المتحدة التي عزمت على إعلان حرب صليبية ضد تركيا. وكان أسطولها يشترك مع أساطيل الدول المتحالفة بضرب الموانئ التركية في كل مكان...

وما لنا ولهذا كله فنحاول ختم هذه التعليقات بالتنويه إلى الحقائق الآتية وإثباتها هنا للحقيقة وللتاريخ:

كان السلطان سليم الأول أكثر سلاطين آل عثمان عطفا على العرب وتمسكا بتقاليدهم ولغتهم وآدابهم.

وكان السلطان سليمان القانوني أشدهم تمسكا بأهداب الدين الإسلامي ونصوص الشرع وأحكام القرآن.

وكان السلطان محمود أكثرهم ثقافة ووعيا وتعلقا بالإصلاح وحسن الإدارة.

وكان السلطان عبد الحميد أعقلهم وأدهاهم وأعمقهم تفكيرا فلو تجمعت هذه المواهب كلها في سلطان واحد من سلاطينهم وفي ظروف ملائمة لصالح العالم الإسلامي من وجهتها الحربية والسياسية لتمت على يده النتائج الباهرة التالية:

١- استقرار الإمبراطورية العثمانية في الشرق وحتى في أوربا نفسها.

٢- استقرار الإمبراطورية العربية في الغرب (الأندلس).

٣- تحول جغرافي وسياسي في أوربا لمصلحة الدول الإسلامية، بل ولمصلحة القارة بمجموعها.

٤- بقاء هذا السؤدد الإسلامي وطيد الأركان إلى قرننا الحالي وما سيليه.

٥- انتشار حضارة موحدة بين طبقات البشر في مختلف القارات مصدرها التعاليم والشرائع الإسلامية السامية.

٦- سلام وأمان يسودان المجموعة البشرية على مختلف معتقداتها ومذاهبها. ولكن إرادة الله هكذا شاءت فلا مرد لحكمه وهو اعلم بما لا نعلم.

الفصل السابع

صفحات المسألة الشرقية – جولة حول الجامعة العربية

الباب الأول

صفحات المسألة الشرقية ونتائجها

أما وأننا قد تكلمنا في الفصل السابق عن مواقف بعض السلاطين آل عثمان حيال الشؤون المختلفة المتعلقة بمصائر الدول الإسلامية – وفي جملتها الدولة العثمانية نفسها – وتقاعس البعض منهم عن شد أزر الدولة العربية في الأندلس من جهة وعن إهمالهم شؤون إمبراطوريتهم من النواحي العمرانية والإصلاحية من جهة أخرى، فقد صار لزاما علينا أن نأتي في هذا الفصل على النتائج الوخيمة التي أصابت المسلمين، وفي المقدمة الأتراك بالذات من جراء ذلك التقاعس والإهمال اللذين فككا وشائج التضامن بين الدول الإسلامية وهدما دعائم الدموية الخالدة لهذه الدول، في الوقت الذي اخذ الوعي والنهوض والتأهب ينتشر بسرعة البرق في معظم أرجاء أوربا مما أدى إلى اختلال التوازن في القوى والعلم والارتقاء والتنظيم والتمدن من جميع وجوهه بين الشرق والغرب. فكانت كلما فتحت جامعة في إحدى عواصم أوربا تغلق بجانبها إحدى خلجات ذلك التبسط والإدراك اللذين رافقا الأمم الإسلامية في حضارتها وفتوحاتها ووثبات العمران والإصلاح في بلادها، ولكما تأسست في ديار الغرب منظمة ترمى إلى إعلاء شان الشعوب الأوربية وتوفير أسباب الرقي والوعي لها تزوي بجانب ذلك مؤسسة إسلامية سبق لها العمل على إحياء المجد الإسلامي، وقامت على أنقاضها شتى أنواع الفتن والمنازعات وتشتت الشمل وتفرقت الكلمة...

وظل هذا السلب والإيجاب يتوغلان في إفشاء تأثيرهما العجيب في كل

من ديار الشرق والغرب حتى رأينا عندما أشرفنا على أواسط القرن الثامن عشر أن الفرق بين العناصر الأوربية والعناصر الشرقية – ونعني الإسلامية منها – شاسعا جدا. إذ باتت الممالك الأوربية تتمتع بنهضة علمية وتمدينية لامعة جبارة، يقابلها بالجانب الشرقي منه انحطاط وتخاذل وتضعضع وفتن ورزايا وبلايا لا تعد ولا تحصى بين الأمم الإسلامية من عربية وتركية وسواهما.

وعندما أراد المصلحون والواعون من إرهاط المسلمين القيام لتلافي هذا البون الشاذ الذي ذر قرنه بين الشرق والغرب قام من تصدى لهم ومنعهم من إجراء الإصلاح اللازم في البلاد وبث روح النهضة بين شعوبها وتحويل الشقاق والتنابذ إلى أخاء وتضامن، بل لم يكتف الظالمون المرتجعون من سئل حركة هؤلاء الجبابرة المصلحين فقد رأيناهم يشردونهم وينكلون بهم تنكيلا مريعا، وكثر منهم ذهب قتلا أو غرقا أو شهيد المنافي في اقضي بلاد الأرض. وكان في طليعة هؤلاء الآثمين الظالمين بعض سلاطين الترك ووزرائهم الذين طمس الله على قلوبهم. وغررت بهم أحاسيس المنافع الخاصة ولؤم المنبت وقلة الإيمان وضعف الوطنية.

وما وصل الحال إلى هذه النتائج المحزنة إلا كانت دول أوربا تجمع أمرها على لزوم سحق الدولة العثمانية الإسلامية وطردها بادئ ذي بدء من بعض الممالك التي بقيت لها في أوربا كبلاد القرم ورومانيا والصرب والبوسنة والبلغار والجبل الأسود وبلاد الأرناءوط واليونان وغيرها من الممالك التي ظلت بحوزة تركيا بعد الإنهزامات المتوالية في حروبها مع روسيا والنمسا والمجر وفرنسا. وما هل عام ١٦٥٠م حتى قام (بطرس الأكبر) قيصر روسيا المشهور وأعلن وصيته المشهورة التي تحتوى على لزوم طرد تركيا من البلاد البلقانية وضرورة احتلال روسيا لمدينة القسطنطينية (اسطنبول) ومضايق الدردنيل والبوسفور وحصر الدولة العثمانية في رقعة ضيقة بشرقي الأناضول... وكانت هذه البادرة الخطرة

في أول صرخة في ناقوس الشرور التي تنذر البلاد الإسلامية بأسرها، وليس البلاد العثمانية وحدها، باستقبال عهد مشئوم سوف يقع على رؤوس المسلمين، بل أول هجمة أو موجة توجه لاكتساح ديارهم وذهاب ما تبقى لهم من عز وحرية واستقلال.

ماذا يقول مؤرخو أوربا؟

لا ننكر بان بعض مؤرخي أوربا وفي طليعتهم المسيو (سينيه بوس) المتخصص في دراسة شؤون الشرق السياسية قد استفظعوا التألب الدولي الأوربي الاستعماري على دول الشرق وخاصة على الدولة العثمانية وتآمرهم على استعباد هذه الدول وأذلاها.. ولكن من هو المسبب يا ترى إلى ذلك الضعف الذي تسربلنا به، وأدى إلى إستكلاب الأوربيين من جرائه في سبيل الاستحواذ على كل تراث ثمين انحدر إلينا من عهود ماضية يوم كان جدودنا سادة العالم وإرهاطها الجبابرة؟؟

ألسنا نحن الذين أفسحنا المجال إلى أعدائنا بان يعملوا على تقوية أنفسهم، وتأليب قواهم وتنظيمها، وتوسيع متاجرهم، وجر الغني والثروات الضخمة إليها؟ ألسنا نحن الذين كنا بجانب ذلك الوعي الأوربي ننام على سرر اللهو والخنوع والإهمال والمنازعات العنصرية والدينية ونترك للعدة الفرص الغالية ليقوى ويتأهب وينشط إلى مبادهتنا بالعداء ويستعد لاكتساح ديارنا وبسط نفوذه عليها وابتزاز شعوبها كل ما لديهم من الإمكانيات التي جعلتهم في الماضي أمما قوية..؟ فماذا نريد بعد ذلك أن تكون نتائج هذه المراحل التي تتراوح بين التيقظ والاستعداد في أوربا والتلاشي والانحطاط في ديار المسلمين غير ما رأينا وما سمعنا وما شاهدنا؟؟؟

ومع ذلك فنستمع إلى ما يقوله (سينيه بوس) حول هذه الكوارث التي أصابت ديار الشرق وما جرت وراءها من نتائج وخيمة أوصلتنا إلى ما يحيط بنا من بؤس واوصاب لا حد لها ليتسنى لنا بعد ذلك استعراض النتائج التت حدثت على أثرها والصفحات التي انعكست على بطاح مشارق الأرض الفسيحة الأرجاء. !!!

قال (سينيه بوس):

[أن أفظع جرم انهالت به القرون المنصرمة على رؤوس الجماعات البشرية، هي تلك الكوارث التي أعدتها دول أوربا منذ القرن الثامن عشر حيال البلدان التي تخلد شعوبها الضعيفة إلى أوكارها في ربوع الشرق آمنة راضية، وذلك عندما تآمرت هذه الدول فيما بينها على سلب نعيم واستقلال هذه الجموع الكثيفة من البشر وإخضاعها لسلطان استعبادها واستعمارها. أما تلك المؤامرات التي حاكتها دسائس المستعمرين وأحكمت خيوطها، فهي التي تبدأ بالبادرة العجيبة المعروفة باسم (المسألة الشرقية). تلك المسألة التي تبدأ عام (١٦٥٣) أي عندما أعلن قيصر روسيا (بطرس الأكبر) وصيته الشهيرة التي طالب فيها باحتلال (اسطنبول) ومضايق البوسفور والدردنيل وطرد تركيا من البلقان وحصرها في رقعة صغيرة من الأناضول... وكانت هذه الوصية حافزا لدول أوربا الكبيرة في حزم وتصميم على التألب والتحالف ضد روسيا للحيلولة دون عدوانها الصارخ على تركيا وإحباط مساعي بطرس الأكبر في تنفيذ بنود وصيته الشهيرة الجائرة، والمليئة بالأخطار التي تهدد السلام العام من جهة، ومناطق نفوذ تلك الدول وتحول بينها وبين مطامعها الخفية في البلدان الشرقية عامة].

عجائب الأقدار !!

هذا ما قاله (سينيه بوس). وبالفعل تمكنت الدول المتحالفة (وتركيا معهم) من جدع انف روسيا في حرب القرم وإرجاع بعض الهيبة والسيطرة إلى تركيا وإدخالها (بقرار اتخذه مؤتمر اسطنبول) في عداد الدول السبع العظام. ولكن ليت شعري ما فائدة هذا كله إذا علمنا بعد ذلك أن الشيء الذي سمي (بالمسالة الشرقية) اخذ يختفي حينا ليعود إلى الظهور بشكل ينم عن تضخم واتخذا ألوان سياسة غريبة بدأت تجر وراءها ذيولا حشوها الأهوال والكوارث على ديار الشرق. يدلك على ذلك أن روسيا رغم انكسارها في حرب (القرم) عادت تواصل تحككها بالدولة العثمانية وتطالب بتنفيذ وصية بطرس الأكبر، الأمر الذي أصبح الشغل الشاغل للدول الأوربية وحملها على تحقيق مطامعها الاستعمارية بأي شكل كان، ولو بالاتفاق مع روسيا نفسها !! وهل رأيت أعجب من هذه الظاهرة المضحكة والمبكية معا؟ ظاهرة اتفاق هذه الدول مع روسيا وحبك وسائل المؤامرات سوية على ديار المسلمين، بينما كان إرهاط وساسة هذه الدول بالأمس يحاربونها ويكافحون مطامعها بحد السيف وقذائف المدافع الهدامة؟ لعمري أن هذا لمن أعجب التصرفات التي شاهدها التاريخ البشري من صحائف الأقدار، حلفاء ينقلبون إلى أعداء وأعداء ينقلبون إلى أحباب وخاصة ضد العناصر المسكينة في البلاد الإسلامية !!

نتائج وخيمة وعواقب أليمة

وهل تدري ماذا كانت نتائج هذه المؤامرات الدولية؟ إليك استعراض يوضح لك ذلك بجرة قلم كسير ونحن نعلم بأنه سوف يحزنك جدا هذا الانعكاس لتلك النتائج المريرة التي أصابت أمصارنا.

١- احتلت (انجلترا) جزر قبرص ومالطة والإقليم المصري والسوداني وشطوط الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية وتقاسمت مع روسيا النفوذ في إيران.

٢- احتلت (فرنسا) شمال إفريقيا.

٣- استولت (النمسا) على البوسنة والهرسك.

٤- نالت (ألمانيا) امتياز مد خط بغداد الحديدي لتنفذ إلى أقاصي جزيرة العرب.

٥- استولت (روسيا) بعد إعلانها الحرب على تركيا عام ١٨٧٨ على سيواستبول وشبه جزيرة القرم والقفقاس وسلخت عن جسم الدولة العثمانية ممالك (رومانيا) و(بلغاريا) و(الصرب) و(الجبل الأسود) كما استولت على إمارات إسلامية كثيرة في أسيا.

٦- ظلت (ايطاليا) تحرك وتقوم وتقعد حتى احتلت بعد مساع سياسية ماهرة وبارعة ولاية طرابلس ومتصرفية بنغازي وجزر ايجة.

٧- استكملت (هولندا) احتلال كل جزر وبلاد اندونيسيا الإسلامية الوافرة الغنى.

٨- استولت (اليونان) على جزيرة (كريت) وبعض جزر الأرخبيل واستقلت جزيرة (سيسام).

وبعد أن تمزق شمل الديار الإسلامية على هذا الشكل المفجع، واقتسمت الدول الاستعمارية تلك الغنائم العظيمة فيما بينها، لم يبق للمسلمين من بلاد مستقلة سوى قطع صغيرة في الأناضول وإيران والأفغان... حتى أن ما بقي لتركيا من نتف صغيرة كبلاد الأرناءوط وبعض أنحاء جزيرة العرب راحت تنسلخ

رويدا رويدا عن جسم تركيا وتذهب تحت عوامل سياسية دولية طعما سائغا لبعض الدول المستعمرة. واغرب من هذا انه عندما لم يبق لتركيا سوى الأناضول نهضت أكثر من دولة أوربية تحرض اليونان على لزوم احتلال هذا (الأناضول) التركي بداعي انه ارثهم المقدس الذي ينحدر إليهم عن جدودهم (البزانسيين) !! وهكذا رأينا الجيش اليوناني يهاجم مصطفي كمال في أزمير ويتوغل داخل الأناضول ويحتل قسما كبيرا منه، ولولا بطولة ذلك القائد التركي الكبير لامست تركيا اليوم في خبر كان...

وهكذا رأينا أن دولة السلاطين الأتراك، المهملة، المتسببة، المتقهقرة، الخاملة كانت السبب الأول والأخير في فتح باب (المسألة الشرقية) على مصراعيه ذلك الباب الذي قرعته الدول الاستعمارية وولجت منه مخترقة أبهاء الشرق الفسيحة لتعمل فيها تنكيلا وتشريدا وتستعبد شعوبه وتستعمر عناصره وتسفك دماء زعمائه وأحراره وتمتص الثروات الهائلة الكامنة فيها وتقضى على المسلمين بعد ذلك بالفقر والجهل !!

انقلاب الدهر !!

على أننا نحمد الله بأنه بعد مرور حقبة طويلة وزمن مرير زاد على المسالة عام على هذه المغارم، أراد الله أن يجعل لهذا الشرق البائس أو بالأحرى للشعوب الإسلامية المعذبة مخرجا تستطيع أن تنفذ منه إلى عالم التحرر والنجاة من سنابك المستعمرين، وها نحن أولاء نشهد منظرا جديدا من مناظر التقلبات التي يمحضها الدهر إلى المجتمعات والكتل البشرية حينا بعد أخر سواء أكانت بشكل دول أم قبائل وشعوب هائمة. وهذا المنظر يتجلى اليوم في الثورات التي يتقد لهيبها في مراكش والجزائر وتونس وليبيا ومصر والسودان وإيران وفي الهند

والباكستان واندونيسيا وسواها بالأمس. ومعنى ذلك أن أقوام الشرق وعناصره ودوله وزعماءه وأرضه وسماءه قد قامت كلها تثور على الظلم والظالمين والمتعصبين وتكيل لهم الصاع صاعين. ولا غرو فان للفلك كما قلنا آنفا دوراته وللزمان صدماته وللبغي مصرعه الوخيم، كما أن أنظمة الكون لن تتبدل، فإنها ما أفسحت في قرونها الغابرة مجال التجبر والتحكم لأمة من الأمم القوية على الأقوام المستضعفة إلا لعهد محدود من الزمن، حتى إذا انقضى ذلك العهد انقلب الأمر على الظالم وبالا وفشلا وانقراضا...

ظهور المسألة الأوربية

فالوعي الذي يسيطر على ربوع الشرق وشعوبه اليوم ليس هو إلا عبارة عن رد الفعل الذي أصاب أولئك الأقوياء المتجبرين في الماضي، بل هو مطلع عهد جديد وانقلا ب مبارك تكمن بين طياته المجهولة بسمة الأمل، وقفزة الترعرع، وخلجة المتحفز يمنحها الدهر دائما لمن تتوفر فيهم جميع المؤهلات للكفاح والجهاد ضد الظلم والظالمين في سبيل المجد والتحرر.

وفي يقيننا أن (المسألة الشرقية) قد أغلقت اليوم أبوابها في وجه المستعمرين، واحكم الشرقيون سد منافذها التي كانت تتسرب منها أعاصير المطامع إلى كل رقعة من رقاعه الواسعة الغنية بعد أن استنفذ الطامحون كل وسائل الشراهة الاستعمارية في هذه الربوع.

وقد اخذ العالم اليوم يستعرض (مسألة) جديدة يحق لنا أن نطلق عليها النعت الذي تنبأ به العالم الكبير (كاليكيان) أستاذ الحقوق الدولية في جامعة (فيينا) اليوم وفي جامعة (اسطنبول) سابقا حيث قال:

[أن الطاقة التي تتحمل (المسألة الشرقية) ضغطها المتواصل قد

استنفذت كل قواها، وأخذت تهن ويتكسر تيارها الجارف على أبواب (مسألة) جديدة نبذ قرنها بين الدول المختلفة، إلا وهي (المسألة الأوربية) التي يحتدم سعيرها الآن بين روسيا ودول أوربا الشرقية من جهة، وبين دول أوربا الغربية من جهة أخرى...].

اجل أن أوربا أصبحت بلا ريب على وشك التراجع عن ديار الشرق مكرهة ومنهزمة لتشتغل في مشكلتها الجديدة إلا وهي (المسألة الأوربية). وكلنا يعلم ما هي هذه المعضلة الكبرى المحرجة التي لا يبعد أن تنجم من وراء مشاكلها الملغومة حرب أوربية ثالثة، يقول ٩٠ بالمائة من رجال السياسة في العالم بأنها واقعة لا محالة، لان التباين في الآراء والاتجاهات السياسية بين الكتلتين الشرقية والغربية قد بلغ حدا لا يمكن تلافيه إلا بامتشاق الحسام.

وعل كل فيجب على أمم الشرق أن تواصل كفاحها حتى تصل إلى أهدافها السامية التي ترمى إلى تحريرها من ربقة الاستعباد والاستعمار. فلا يكفى أن ننتظر نشوب الحرب الأوربية المرتقية حتى تبلغ أمانينا إذ قد لا تنشب بل ربما ساد بين عيشة وضحاها التفاهم بين الطرفين المتخاصمين ليعود التألب الاستعماري الأوربي إلى سابق صلفه وجبروته فوق ربوع الشرق. لذلك لابد من مواصلة النضال مهما كلف الأمر وليفعل الغربيون ببعضهم ما يفعلون، وكل ما نعرفه أن ديارنا تتطلب استرداد أمجادها وحرياتها، وهذا كل ما يجب أن نضحي في سبيله حتى يحق الحق ويزهق الباطل.

الباب الثالث

الوحدة العربية

كان لنا رأي في السابق يرمى إلى تحويل الجامعة العربية إلى جمعية تأسيسية تسن دستورا عاما لاتحاد عربي يشمل في الوقت الحاضر جميع الدول والإمارات القائمة في جزيرة العرب وينبثق عنه في النتيجة تكوين امة موحدة منقسمة إلى أربع دول فقط وهي (سوريا) بانضمام لبنان وفلسطين وشرقي الأردن ولواء اسكندرون إليها. و(العراق) ويلتحق بها الكويت وسواحل الجزيرة العربية الشرقية والشمالية و(المملكة السعودية) وتتكون من نجد والحجاز واليمن وإمارات السواحل الشرقية الجنوبية. و(مصر) وتنضم إليها السودان وبرقة وليبيا والصومال والصحراء الأفريقية. ولأجل أن لا يكون هذا الرأي مدار نقد واعتراض أيدنا مبدأ القائلين بمنح الوحدات الإقليمية أي الإمارات المنضمة إلى الدول الأربع الكبرى كل الصلاحيات التي تخولها حق الحياة الحرة والاستقلال الداخلي الواسع النطاق – كما هي الحال فيها اليوم – فلا تشعر بتبدل في وضعها السياسي والإداري بل يزاد عليه إدخال الإصلاحات الرئيسية كنشر العلوم وتوسيع مرافق العمران وتحسين حالة الزراعة والصناعة وسواها مما يدخل على هذه المقاطعات بواعث التجدد وجلب الثروات الكبيرة بشعوبها فتغدو في قليل من الزمن ذات حضارة وقوة تنهض معهما إلى مجارات الأمم الراقية المجاورة لها.

فهذه الفكرة الطيبة رأيناها بعد التمعن والاختبار وعقيب الوقائع والطوارئ السياسية التي مرت على البلاد العربية في الظروف الأخيرة تصطدم

بعقبات كثيرة يتطلب اجتيازها جهودا لا سبيل إلى تحقيقها بأعوام قليلة إلا بعناء يشك في النتيجة بالوصول معه إلى تامين هذه الغاية التي يقدسها من حيث الأساس كل عربي، كيف لا وهي ترمى إلى توحيد البلاد العربية وجعلها ذات قدرة لا تضاهي وتضامن سعيد يبشر بانبثاق فجر الحضارة العربية مجددا ليحي الأمجاد المندرسة.

ولذلك رجعنا إلى الفكرة القائلة بلزوم تقوية (الجامعة العربية) التي تعتبر اليوم الخطوة السعيدة الممهدة لتحقيق الاتحاد الملمع إليه آنفا. فتكلمنا في الباب السابق بإسهاب عن الطريق الواجب إتباعها لبعث هذه القوة في كينونة الجامعة الخالية وجعلها الركن الأساسي الصالح الذي يستطيع عندما تكتمل له الوسائل العملية القوية أن يوصل الأمة العربية إلى أمانيها المقدسة.

هذا ونحن عندما أخذنا نمسح القلم من إعداد الصفحات الأخيرة لهذا الكتاب رأينا أن الضرورة تقضي بان ننوه بالجهود الكبرى التي بذلناها في البحث والتنقيب عما يصلح إدخاله إلى فصوله من الحقائق والوقائع التاريخية ليأتي واقيا بالغرض الجوهري الذي رمينا إليه من وضعه، ذلك الغرض السامي الذي أردنا أن نكشف من ورائه ما أسدى المسلمون وفي طليعتهم عرب مصر والعراق وسوريا والأندلس من منح وعطايا، وما وزعوا من حضارات ونعم على الشعوب الأوروبية التي كانت تعيش في العصر الإسلامي الذهبي بعالم ملؤه الضلال والتوحش والجهل – ويا ليتهم لم يفعلوا – حتى قلبوا ضلاله إلى نور توحشه إلى حضارة وجهله إلى علم انتهي كله بنا وربهم إلى حيث رأيت وقرأت...

وقد احتجنا في تدقيق وتثبيت هذه الحقائق الواردة في سفرنا إلى مراجعة ٥٠ مجلدا تاريخيا بين فرنسي وايطالي وتركي وعربي عدا الكتب الخطية القديمة

التي أوصلنا إليها طويل البحث والتنقيب. ولابد أن يلاحظ القراء ذلك خلال تصفح أبوابه وفصوله. وليس لنا في بذل هذه الجهود كلها سوى غرض نبيل واحد، وهو أن نثبت فيه الحقائق الثلاث التالية:

الحقيقة الأولى: لفت نظر الأجيال العربية الحديثة والتي ستتلوها بان العرب كانت لهم في الماضي حضارة فياضة أسبغت على الكون نورا وهديا وعدلا وعرفانا وعلما وفنا وقوة وثراء ولم يدخلوا إلى مناهجهم روح الطغيان أو العدوان والصلف والاستبداد والاسترقاق. فيجب على هذه الأجيال المباركة أن تستعيد تلك الأمجاد التي تنعم بها جدودهم عصورا طويلة وتعمل على إحياء هذه الحضارة. وقد كانت كما علم القاضي والداني المع المدنيات العالمية.

الحقيقة الثانية: علم العرب الشعوب الأوربية كيف يجب أن تتحضر وتبدل ثوب الخزي والجهل والبداوة الذي كانت تتسربل به. ولكنهم أهملوا على ما يظهر تعليم هذه الشعوب المتمردة على الحق في كل زمان ومكان طريقة الرأفة بمقدرات الأمم الضعيفة وعدم جعلها ألعوبة بأيديهم يتحكمون بها كيفما سولت لهم منافعهم الخسيسة ومطامعهم الدنيئة.

والحقيقة الثالثة: هي أن المدينة الحالية قد أصبحت على وشك الانهيار بسبب ما ادخل عليها من أطماع خسيسة استفزت حماس الشعوب المستعمرة وحفزتها إلى إعلان التمرد والعصيان على ما جرته هذه العوامل من فساد في الأخلاق وتفسخ في الأنظمة الاجتماعية المرتجة، وعلى ما أعقب ذلك من توالى الحروب وتنازع الدول الجبارة على طلب السيادة والقوة والقدرة وحصرها بفريق جون الأخر. ولذلك أصبحت هذه الحالة الراهنة المزعجة في العالم الأوربي تتطلب منا معاشر العرب أن نتهيأ ونعد العدة للاستيلاء على

الميراث الضخم الذي سوف يخلقه هذا النزاع المتواصل والمستأصل بين دول العالم وان نسترد مكانتنا المدنية المهذبة، مدينتنا العادلة الشريفة، مدينتنا الطاهرة التي كانت مفعمة بمكارم الأخلاق والموسومة بالخير وجلب السعادة والمساواة للمجمع البشري، مدينتنا التي كانت لا تأمر إلا بالمعروف ولا تنهي إلا عن المنكر. هذه المدينة التي أضعناها بأيدينا ولم يستخلصها منا الغير. فقد كنا نلهو ونتنازع وكان الأغيار يعملون بجد لسرقة كنوزها الفنية والثقافية حتى غدوا هم أصحابها ونحن الغرباء عنها...

هذه هي الحقائق الثلاث التي أردنا أن نثبتها في هذا الكتاب وان ندعها تستعرض نفسها أما أنظار نشئنا العربي النبيل معراة من كل غموض وأوهام وأضاليل ليعمل هذا النبت المبارك على استردادها لتخض وضر أغصانها وجذوعها من جديد بالربوع التي بزغت فيها شمسها الضارية.

فاه لو يعلم هذا النشء النجيبة – ولعله يعلم ما يقرؤه ويطالعه أو يتدارسه – أن أجداده الأمويين قد شيدوا بظرف ٣٥ عاما فقط إمبراطورية عربية إسلامية تحصى ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة مكونة من ٢٠ ملة ودولة فيها العجم، والأتراك، والأكراد، والأفغان، والهند، والصين، والمغول، والجركس، والأرمن، والسريان، والكلدان، والروم، والصقالبة، والأقباط، والبربر، والاسبانيول، واللاتين، والزنوج وغيرهم ممن لا تحضرنا أسماؤهم. وتبدأ حدود هذه الإمبراطورية من سد الصين وتنتهي عند جبال البيرونه وسواحل المحيط الأطلسي، وكشفت حضارتهم شموس عدة مدنيات وحولت المستضيئين بظلها الزائل إلى الانضواء تحت علم الحضارة الإسلامية الفنية القوية. وقد كانت تلك المقاطعات الأموية مقسمة على الترتيب التالي:

مقاطعة الشام وتنضم إليها ولايات سورية وغربي الأناضول.

مقاطعة الكوفة وتنضم إليها بلاد العرق والجزيرة.

مقاطعة البصرة وتنضم إليها ممالك إيران والبحرين وعمان.

مقاطعة القفقاس.

مقاطعة ارمنستان.

مقاطعة الحجاز.

مقاطعة إفريقيا والأندلس.

مقاطعة مصر والسودان.

مقاطعة اليمن.

مقاطعة خراسان.

مقاطعة الهند وبعض أطراف الصين.

وقد أتيح كل هذا المجد للعرب ولما يمر على فتوحاتهم أكثر من ٧٠ عاما وقد كانت اللغة العربية هي اللسان الديني والعلمي لمعظم هذه الأقوام. يضاف إلى هذا كله أن جيش الأمويين الذي كان متأهبا للحرب في كل ظرف وزمان يبلغ ٣٠٠,٠٠٠ جندي وهو من أقوى جيوش أهل الأرض طرا.

واه لو يعلم هذا النشء النبيل أن أجداده الأمويين أنفسهم صنعوا يوم كانت المدينة الإسلامية في دور الترعرع فقط ولم تتوافر لها بعد جميع أسباب التسامي والتكامل ١٠٠ ألف ترعة وقناة في أطراف البصرة وحدها لتنحدر إليها المياه من نهر الدجلة وتروى ملايين الفدادين من الأراضي القاحلة وتخرج

النبت الصالح لسكان هذه المقاطعة التي كان يبلغ عدد سكانها في ذلك الحين ٤,٠٠٠,٠٠٠٠ نسمة.

لعمري أن أبناءنا لو عملوا هذه وغيره من صحائف المجد الذي لا يبلي والخوارق العلمية والفنية التي قفز إليها جدودهم وبرزوا بها على الخافقين لنهضوا نهضة الجبابرة وأقدموا بعزم لا يباري وشمم لا يقتحم على اغتنام الفرص السانحة لهم اليوم وتوجهوا إلى الأخذ بتلباب الممكن والمحال لتحقيق الآمال وتجديد العهود النيرة المندرسة. الم يقل الله جل وعلا في كتابه الكريم:

"كنتم خير امة أخرجت للناس"

ثم ألا يجب أن نحقق عطف الله علينا اليوم كما حققناه في الماضي ثم أهملناه أو نسيناه...

الجامعتان العربية والإسلامية

كيف يجب أن تتكونا وما هي أهدافها

هذا ويكثر الكلام في هذه الظروف المليئة بالمفاجئات والمشاحن الدولية فوق مختلف الأمصار عن هذه الكرة المحتضرة عن (الجامعة الإسلامية) وعن لزوم تكوينها وتوطيد دعائها بين صفوف المسلمين في معظم أنحاء الأرض والبالغ عددهم ٤٠٠ – ٥٠٠ مليون شخص. ومصدر هذه الخلجة الناشطة يبدو قويا في المقاطعة الإسلامية الكبرى (الباكستان) تعاضدها همسات تقرب من الجهر وتتناوبها قفزات ملؤها الرغبة والشوق لتحقيق هذه البغية الحبيبة إلى قلب كل مسلم أينما كان، وفي أية بقعة من بقاع الأرض أقام. وقد مشت الاجتماعات التي يعقدها الزعماء والعلماء المسلمون لهذه الغاية في مدينة (كراتشي) عاصمة الباكستان شأوا بعيدا في هذا الشوط المجهول النتائج والكثير العراقيل.

وحيث انه قد سبق لنا في الماضي الاشتراك مع الكثيرين من مفكري الأمة الإسلامية وأفاضلها وزعمائها في البحث المطول والاستقراء العميق على صفحات جريدتنا (الرأي العام) في عامي ١٩١٠ و ١٩١١ حول قضية إحياء (الجامعة الإسلامية) وبعثها من أجداث الإهمال والنسيان ولاسيما بعد موت السلطان عبد الحميد الذي كان يترأس الحركة الكبرى والتشكيلات الواسعة التي كونها وأوجدها في سبيل تقوية دعائم هذه الجامعة لتقف في يوم من الأيام سدا منيعا في سبيل المطامع الاستعمارية الأوربية الرامية إلى استعباد الديار الإسلامية وقتل روح الوعي أو اليقظة التي أخذت تظهر بوادرها بين صفوف المسلمين — نقول انه حيث سبق لنا بحث طويل وجدل واسع الإحاطة في أمر إحياء الجامعة الإسلامية خرجنا منها بنتائج متشعبة الميول والاجتهاد، وفيها الشيء الكثير مما يفيد جدا طرحه على بساط البحث في هذه الظروف التي رجع الكلام فيها عن تلك الجامعة يتسع ويعم، بل ويتخذ ألوانا تنم عن بوادر ايجابية طيبة، رأينا أن نسوق الكلام في مطلع هذا الكتاب عن تلك الخطوة المباركة، لان الأحاسيس الدينية وخاصة الإسلامية منها هي من الأسس الرئيسية التي أفردنا هذا الكتاب وعليه نقول:

لابد لتوطيد دعائم الجامعات الدينية وتقوية أسسها ومقوماتها من أن تنبثق في بيئات ذات شمائل بارعة القدرة فتنمو عندئذ وتترعرع في تلك الأقاليم وتتدافع العناصر الجبارة فيها والقادمة إليها للتزاحم والتهالك في سبيل تامين ديمومتها. وإنا لنستعرض هنا تاريخ بعض الجامعات الدينية التي أريد أحداثها قديما وحديثا في مختلف أنحاء العالم، وما آل إليه أمر هذه السبيل فكان نصيبها الفشل، كما يساعدنا على توضيح الطرق الناجحة فيما إذا سلكها العاملون المثابرون وكيف يتوصلون إلى الأهداف المطلوبة التي يسعون إليها. ولكن قبل

أن نبدأ البحث في هذا الموضوع الحساس، لابد لنا من أن نتفهم جيدا معنى الجامعات الدينية وما يتفرع عنها من شواغر تجعل منها عاملا رئيسيا على بعثها وتكوينها وعليه نقول:

الجامعة اليهودية

أجمعت الروايات التاريخية على أن أول الأمم التي فكرت في تكوين جامعة دينية خاصة بها قبل جميع الأمم الأخرى كانت الأمة اليهودية. فإذا سبرت غور تاريخ هذه الأمة الظليلة واطلعت على الشذوذ الخلقي والطبائع الرخيصة التي تتسربل بها منذ ظهرت للوجود لتشاغب وتتنكر لله وللأنبياء والملوك والدول ولتتحرش بمعتقدات الأمم المختلفة ولتنزع إلى تهديم كل كيان قومي لغير أبناء دينها ولتعمل فيه تخريبا وتقويضا حتى انطبع في كل واد اثر من جرائمها كما حدث ذلك في صدر التاريخ القديم مع فراعنة مصر ومع ملوك العراق القدماء ومع أمراء المغول في أسيا وأباطرة الهند... وأحابيلها ودسائسها في تاريخنا الحاضر مع شعوب أوربا وأميركا ومحاولتها الاستئثار بثروات الأمم وإثارة الفتن والحروب بين مختلف الدول والأمم، وفي النهاية قيامها بالنعرة (الصهيونية) التي انتهت بكارثة (فلسطين) وذهاب هذا الإقليم العربي البحت طعما لمغرياتها ومفاسدها ورشوتها – نقول إذا سبرت غور هذه الماسي والدوافع المرهقة تتمثل أمام ناظريك بجلاء ووضوح ما لهذه الأمة من طابع خاص وشواذ حشوها المكر والخديعة والإخلال بأمن الشعوب وسلامة الجماعات وإفقار الخلق، وسلبهم متاعهم ومقدساتهم...

وحيث أن جميع هذه الحقائق يعلمها القريب والبعيد فلا ترانا في حاجة إلى التوغل بفرض أوسع لمساوئ هذه الأمة وهي كما علمت تتقزز منها النفس

وتتنكر لها الطبيعة البشرية القائمة على روح المحبة والتسامح وتقديس نعرة السلام بين مختلف عناصرها. وإنما نحب أن نلمح هنا إلى فكرة الجامعة الدينية التي أراد اليهود وما برحوا يريدون بعثها بين الكتلة الضئيلة المكونة من مجموعتهم المبعثرة في جميع أرجاء الأرض، والتي لا تحصى أكثر من اثني عشر مليون يهودي.

فاليهود كما اثبت التاريخ يتهالكون منذ ظهروا على وجه الأرض وراء تكوين جامعة دينية توحد صفوفهم، من وجهات جغرافية وإقليمية، بعد أن رأينا طبائعهم وعاداتهم الرخيصة موحدة من كل وجوهها، بمعنى انك لا يمكن أن تجد يهوديا لا يحب جمع المال أو يتعفف عن مد يد الأذية للأفراد والجماعات الغير المنتمية إلى دينه، ولا يمكن أن تبحث بين صفوفهم عمن لا يتقن فنون المكر والختل والخداع فكلهم يتسمون بصفات واحدة هي (الشر) المجسم لغير أبناء دينهم من الناس...

ولما كانت وحدة هذه الصفات تنقصها وحدة أخرى لتبدوا ذات طابع عنصري خاص لم ير أركان هذه الجماعة المتشردة بدا من اللجوء منذ القديم إلى تكوين وحدة دينية تتكتل فيها صفوفهم وتربط بين مفارق الطرق المتباينة البعد في لم شملهم، ولو عن طريق الأحاسيس الخاصة بمعتقداتهم إن لم تكون عن طريق إيجاد (وطن) خاص بهم. ثم تطورت هذه الميول مع مرور الزمن فأضافوا إلى النزعة الدينية نزعة سياسية ترمى إلى تكوين مملكة خاصة بهم بجانب جامعتهم الدينية... وهذا هو سر ظهور (الصهيونية) ومن ورائها القضية الفلسطينية، حيث وقع اختيارهم على هذا الإقليم العربي تحت تأثير دعاية دينية طويلة وباطلة يعرفها الخاص والعام وليس ثمة من حاجة إلى التوغل في بيان مقدماتها ونتائجها هنا...

ومع أن هذه الجامعة الدينية اليهودية ما برحت في دور التطور والتنظيم من الناحية المتعلقة باختيار المنطقة الإقليمية التي سوف تتمركز فيها، فأصبح لابد للعرب من العمل على إبادة هذه الظاهرة المقيتة التي سوف تهدد في المستقبل الكيان العربي بأسره، فلينهض اليهود في كل واد ومهمة وليئسوا (الجامعات) التي يريدونها لعنصرهم... ولكن يجب أن يكونوا في محاولاتهم هذه بعيدين عن الأقطار العربية، وهو ما يعمل له العرب اليوم ولله الحمد بكل ما أوتوا من قوة ولو كلفهم ذلك إثارة الحروب وإراقة الدماء انهارا...

فالجامعة الدينية عند اليهود كما ثبت لنا مما تقدم معنا، هي عقيدة مقدسة يرثونها عن جدودهم القدماء مستندين في ذلك على بعض النصوص (الدخيلة) على التوراة وكلها باطلة شانهم في سائر أعمالهم واتجاهاتهم القائمة على الباطل والضلال، وفي طليعتها ما ورد منها في توراتهم هذه [... ويجتمع أبناء وأولاد ونساء من يهوذا حول سفح (سافود) لينظروا إلى عظمة الإله الذي كون وحدتهم...] وعلى هذا يمكننا أن نقول بان جامعة اليهود الدينية التي ما برحوا ينشدونها منذ ألفي عام سوف تظل وهما لن يتحقق، وخيالا لن ينقلب إلى حقيقة، وحسرة في قلوبهم تضطرم كلما طال عليها الزمن وتقضى على كل تدبير أعدوه لها، لان الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة وشردهم أيما تشريد !!! ولسوف يظلون كذلك إلى يوم الحشر والحساب...

الجامعة المسيحية

أما الجامعة الدينية المسيحية فقد اجتازت في التاريخ ثلاث مراحل كانت الأولى في التألب الذي دعي إليه البابا بيوس الرابع بالاتفاق مع الملك فليب الاسباني لطرد العرب المسلمين من ديار الأندلس، وفي هذه المرحلة رأينا تألبا

دينيا شمل جميع الدول المسيحية في أوربا. إذ بادرت كلها وعلى رأسها المقام البابوي إلى إعلان الحرب المقدسة في الأندلس، وراحت المعاونات العسكرية والمادية تتوالى على الملك فيليب لمواصلة كفاحه ضد المسلمين حتى تمكن المتألبون في النتيجة من تامين غايتهم كما هو معلوم... أما المرحلة الثانية فقد قامت بدعوة أصدرتها حكومة (البندقية) (عام ١٤١٠) إلى المقام البابوي خلال توسع الفتح العثماني لدمار أوربا وخاصة على عهد السلطان سليمان القانوني واقتحام الأساطيل العثمانية تحت قيادة أمير البحار المشهور (بربروس) العربي التونسي، لجميع موانئ وأساطيل دول البحر الأبيض المتوسط وإعلان سيطرتها وتفوقها على جميع العمارات بما فيها العمارة الكبرى التي ألفها البابا (لاوون) الثالث وكونها من أساطيل جميع الدول المسيحية، وقيام معارك حربية هائلة بعد ذلك بين العثمانيين المسلمين والاتحاديين المسيحيين... أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الحروب الصليبية البالغة تسع حملات متتابعة على ديار الشرق الإسلامية.

ولما كنا قد فصلنا في أبواب هذا الكتاب وقائع هذه المراحل التسع فلا ترانا في حاجة إلى تكرارها هنا، وإنما يطيب لنا أن نلمع إلى فشل الحركة الدينية التي رمى إليها بعض ملوك أوربا لتحقيق الوحدة المسيحية الدينية. لان التجارب القاهرة التي مرت على القائمين بإعلان الدعوة للوحدة المذكورة أفهمت العناصر والشعوب الأوروبية بما فيها المحافل البابوية أن هذا الاتحاد ينقصه:

١- انسجام المذاهب المسيحية المختلفة وتوحيد معتقداتها.

٢- وجود عناصر مسيحية كثيرة في الشرق الإسلامي وهي تحصى عدة ملايين يخشى على مصائرهم في حالة مواصلة العدوان على الديار الإسلامية

فضلا عن الخطر الذي يهدد مئات الإرساليات المسيحية التبشيرية بمعظم أنحاء أسيا وأفريقيا الإسلامية، وهي تقيم في تلك المناطق منذ عهد بعيد.

٣- اعتراض البرلمان الانجليزيين (١٤٧٣) على هذا الاتحاد الديني الذي لا ترى فيه حكومة انجلترا سوى بث روح الاستفزاز والعداء بين الطوائف المسيحية والإسلامية ونشوب ثائرة الحرب المتواصلة بين الشرق والغرب، مما لا ينتج سوى توالى النكبات المادي والخراب على الديار الأوروبية بصورة عامة كما توقع لها بعد فشلها في الحملات الصليبية. ولذا فان انجلترا لا تكتفي بعدم تلبية الدعوة لهذه الفكر السقيمة بل سوف تكافحها في شدة بكل ما أوتيت من وسائل عملية.

وعليه فقد اتضح أن الوحدة الدينية المسيحية كانت تنقصها عناصر قوية جدا ليتمكن القائلون بها على تحقيقها وتدعيم مراميها، كما كانت تشوبها في نفس الوقت شوائب متجهمة عاثرة تثيرها أحاسيس التعصب الذميم لا الحاجة الدينية التي يتمسكون بها لأغراض سياسية صرفة. وهكذا انتهي الاتحاد المسيحي إلى زحف على الشرق من جبه أخرى يمكننا أن نسميها (بالتطرق الاستعماري) الذي نجح فيما بعد وأيما نجاح، وهو أسلوب قبلت به جميع الدول الأوروبية المسيحية تقريبا وعملت على تنبيه والاستفادة من مناهجه السياسية والتجارية والثقافية...

الجامعة الإسلامية

كثير منا معاشر المسلمين يجهل بان (الجامعة الإسلامية) كائنة منذ اليوم الأول الذي انبثق فيه نور الإسلام على سطح هذه الكرة الفسيحة، لان طبيعة قوانين هذا الدين وتعاليمه والتوجيهات الزمنية التي وضعت له تجعل من

المهتدين بنور هديه كتلة واحدة متماسكة العناصر والذرات ومتكافلة في معاضدة بعضها بعضا في كل ظرف وزمان ومكان.

الم تر أو تقرا أو تسمع الآيات والأحاديث والأقوال المأثورة التي قبلت بهذا الصدد، والتي جعلت وجود (الجامعة الإسلامية) أمرا مفروغا منه، وحقيقة يلمسها ويتحسس بكينونتها كل مسلم صادق الشعور والإيمان؟ وهناك قبضة مباركة منها تعرض نفسها قادرة على النطق، ظاهرة التبيين، ثابتة التوجيه، عارية عن الغرض، مجردة عن الروح العنصرية الغريرة:

١- المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

٢- الخلق كلهم عيال الله أقربهم إليه انفعهم لعياله.

٣- لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

٤- الإنسان اخو الإنسان أحب أم كره.

٥- لا عصبية في الإسلام.

٦- اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا. الخ الخ....

فنظرة واحدة إلى هذه الأقوال الشريفة المأثورة تعطى الدارس والمدقق فكرة صريحة بان الإسلام خلق ليكون متكتلا بأتباعه والمستضيئين بقبس تعالمه المقدسة، ولذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من بث روح العنصرية بين الشعوب المسلمة أو المناطق التي تخفق فوق سهولها وجبالها راية هذا الدين السامي التعاليم والتوجيهات. وحرص عليه الصلاة والسلام بلزوم استبدال النعرات القومية السياسية والعنصرية بشعور موحد يصح معنا أن نسميه هنا بـ

(القومية الدينية). وانك لتستدل على ذلك من إشارته إلى أننا لكنا عيال الله، وأننا كالبنيان نشد بعضنا بعضا وان لا تفاضل بين مسلم ومسلم مهما اختلفت منابتهما، وان الإنسان هو أخ لكل إنسان مثله، وشدد على لزوم نزع روح القومية العنصرية من بين صفوف المسلمين.

فليث شعري بماذا عسانا نفسر مغزى هذه النداءات الطاهرة البريئة التي دعا إليها صاحب هذا الدين الباسم المتسامح؟ وما هي الأهداف التي يرمى إلى تدعيمها وتركيزها؟

كن على ثقة بأنه ما أراد عليه السلام من كل هذا، إلا أن يخلق للعالم (جامعة) تجمع بالتساوي المطلق بين الشرقي والغربي، والأصفر والأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، والغني والفقير، والأمير والحقير حتى تتكون من كل ذلك تلك (البيضة) المباركة أو الجامعة العتيدة كما سبق وقلنا آنفا.

وقد أبطل بنهجه القويم هذا وافسد على اليهود أنانيتهم وعنجهيتهم ومكرهم ووحدة قوميتهم العنصرية، وحرض الأقوام المسيحية على الارتكان والاستئناس بتعاليم الإسلام وغاياته النبيلة، وذلك عن طريق احترامه لعقائدهم وبيئاتهم، وهو يرمى من وراء ذلك إلى انه عندما تستكمل (الجامعة الإسلامية) شروط بنيانها وقوام عزتها ومكانتها، قد ينبثق عن مظاهر هذا التكوين القدسي المحفوف بالقوة والمكانة والاتحاد والهيبة وواسع السلطان – قد تنبثق لدى العناصر الغير المسلمة فكرة الاندماج بالناحية الإنسانية من هذا المنهاج الشريف بصرف النظر عن تباين المعتقدات وهو إيحاء نبوي واسع الغور في المدارك الفلسفية الاجتماعية التي عرف هذا النبي الكريم أو رئيس هذه الجامعة المقدسة الأول كيف يجب استمالة خلق الله على تباين معتقداتهم إلى وحدة

إنسانية وتآخ يعمل لخير البشرية ويرفع الشرور وروح الخصام والتنافر والنزاع من بين الناس.

انظر أيها القارئ الكريم إلى المسعى الذي قام به المرحوم السلطان عبد الحميد العثماني لإحياء (الجامعة الإسلامية) لأغراض سياسية كيف فشلت مساعيه في هذا السبيل، ولم يستطع أن يستميل لفكرته هذه سوى جدران قصر يلديز فقط... وما ذلك إلا لان فكرة (الجامعة الإسلامية) لا تقوم على الدعوى لغير ما وضعه لها محمد صلي الله عليه وسلم.

اقتراح

ولهذا نرى أن المساعي التي يبذلها رجال شقيقتنا حكومة الباكستان في صدد تكوين الجامعة المشار إليها يجب أن تتجرد عن كل مرمى أو مغزى سياسي، وعندنا أن توسيع نطاق الجامعة العربية بإدخال الدول الإسلامية في عداد أعضائها يفي بالغرض الذي يرمى إليه إخواننا في (الباكستان)، على أن يستن لهذه الجامعة منهاج جديد يمشى إلى تكوين تكتل جديد تشاهد عناصره الرئيسية مكونة من:

١- جعل مبدأ السلام العام بين مختلف الأمم والعناصر ركنا رئيسيا في طليعة أعمالها.

٢- الدعوة إلى توحيد الأنظمة الاجتماعية الإسلامية.

٣- تقسيم الجامعة العربية إلى فرعين كبيرين (فرع الجامعة العربية) ويكون مجردا عن كل هدف ديني لوجود عدد كبير من العرب غير المسلمين و(فرع الجامعة الإسلامية) وتنحصر مساعيه في الأسس التي وضعها النبي الكريم لهذا التكوين البريء.

٤- يشتغل كل فرع بشؤونه التي نصت عليها أنظمته الداخلية ففرع الجامعة العربية يختص بسياسة بلاد العرب وتفرعاتها الزمنية وفرع الجامعة الإسلامية يتفرغ لأمور المسلمين والدفاع عن حقوقهم وبث روح النهضة والتجدد في صفوفهم وثمة يقوم هنالك جهد أخر يرمى إلى توطيد دعائم التكافل بين الفرعين وإيجاد انسجام عملي يوحد بين غايتيهما حيث توضع لذلك أنظمة خاصة. ومعنى هذا في الختام إيجاد منظمة للأمم المتحدة الشرقية... وهو خير عمل يليق بالإسلام والعرب أن يعملوا له.

كلمة الختام

موقف الدول الكبرى من الجامعة الدينية

انجلترا والجامعة الإسلامية:

لا ريب في أن الدول الكبرى كأميركا وفرنسا وروسيا لا تقابل تكوين الجامعة الإسلامية بارتياح، بل على العكس من ذلك فإنها سوف تسعى السعي الحثيث لإيجاد العراقيل في سبيل منع أو على الأقل تأخير تشكيلها، لأنها تخشى بالطبع من نتائج تألب العناصر الإسلامية حول أهداف موحدة واندفاعات سياسية مهددة لنفوذ تلك الدول في الشرق وإجبارها على الرضوخ لوجهات نظر المسلمين ومطالبيهم التي تتعلق في القضاء على المراحل الأخيرة من الاستعمار الأوربي لمختلف المناطق المأهولة بالشعوب الإسلامية.

ولكننا نجد أن هنالك دورا يمثل تحت طي الخفاء تقوم بها انجلترا لتحقيق أماني المسلمين في تكوين جامعتهم الدينية هذا الدور الذي تبدو علاماته في:

١- توسيع المجال لحكومة الباكستان بان تتبنى حركة إحياء الجامعة الإسلامية وجعل مركزها في كراتشي وتعمل جهدها لتشجيع ساسة الباكستان وحملهم على تحقيق هذه الغاية الأمر الذي يدل على رضاها التام عن هذا المشروع الإسلامي وانه لو كانت لها غير هذا الاتجاه لرأينا لها ألف بادرة تلجا إليها لإحباط المشروع المذكور.

٢- إذا لم يتيسر جعل (كراتشي) مركزا لهذه الانتفاضة الإسلامية المباركة، فلا باس من جعلها في مكة المكرمة. ولذا فهي تراقب بعين ساهرة الميول المتراوحة بين التمركز في (كراتشي) أو (مكة).

٣- أن انجلترا تجد في مد يدها إلى صداقة المسلمين وعقد أواصر التفاهم معهم وبالتالي التحالف مع الدول الإسلامية والعربية، الفرصة الثمينة لتي تحفظ لها في قلوب أهالي الشرق الإسلامي كبير الثقة والاحترام ويؤمن لها مرابحها التجارية ويصون منافعها الاقتصادية الكبرى. وبعد ذلك يجعل من الكتلة الكثيفة المكونة من ٤٠٠ مليون نفس اكبر وأقوى حليفة لها تتكئ على صداقتها ومعاونتها عند اشتداد الأزمات التي تهدد أوربا في كل يوم ولحظة.

أما نحن معاشر المسلمين، فلم يعهد من صالحنا منابذة هذه الصداقة التي تطرحها انجلترا علينا، ولاسيما بعد أن انخفضت حرارة الاختلافات التي كانت قائمة بين بريطانيا وبعض الدول العربية والإسلامية إلى حد إنها تقريبا قد زالت ما خلا بعض الشؤون الثانوية التي أخذت حكومة لندرة تعمل جادة في سبيل القضاء عليها. ونظن بأننا قد فصلنا ذلك في فصول قسم المتعلق ببحث الاشتراكات في هذا الكتاب.

ومع ذلك نعود فنكرر بأننا نرحب بالصداقة والحلف الإسلامي الانجليزي وفي اليوم الذي تنتهي فيه جهود انجلترا لحل قضيتي فلسطين وشمال أفريقيا ولا نظمه بعيدا لان بين أيدينا وأمام أعيننا دلائل مادية محسوسة تشير إلى أن السياسة الانجليزية مندفعة بجد وتشاط كليين وراء تحقيق أماني المسلمين والعرب، ولا أدل على ذلك من الأسلحة التي بدأت ترد على الدول العربية والإسلامية في الجهر والخفاء لتجهيز جيوشها بما تتطلبه من أسلحة حديثه. كما أن هنالك أدلة أخرى تتعلق باهتمام انجلترا بمساعدة الجامعة العربية على استكمال تكوين الحلف العسكري بين العرب والذي يسمونه (بالضمان الجماعي) ليكون الركن الأكبر في الدفاع عن الشرق الأوسط الذي تتفانى كل من انجلترا وأمريكا في سبيل تحقيقه.

الفهرس